الزهراء

مجلّةٌ علميّةٌ أدبيّةٌ اجتماعية

تصدُرُ في القاهرة في مُنتصَف كل شهرٍ عربيٍّ

لمُنشئها

محب الدين الخطيب

﴿ الاشتراك السنوي ﴾

خمسون قرشاً مصرياً في المملكة المصرية و ستون قرشاً في الخارج

وثمن الجزء ٥ قروش

سنة المجلة عشرة اشهر * وتقدم للمشتركين في آخر السنة كتاباً هدية

تنشرها ادارة

المطبعة السلفية ومكتبتها

صاحبها: محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

شارع خيرت بالقاهرة رقم ٤٠ (بجوار المالية) • [illegible] ٧٣-١٠ • تلغرافياً ([illegible]

الزهراء

ج ٢ : م ١ | القاهرة | ١٥ صفر ١٣٤٣

القومية عند العرب

لغة الامة دليل نفسيتها — القومية العربية جسم حي — الصلة بين أعضاء هذا الجسم العرب كلهم شيء واحد — العرب وملوكهم الاعاجم — نحن وامتنا اليوم

﴿ لغة الأمّة دليل نفسيتّها ﴾

يرى المشتغلون بالقانون أن مجموعة القوانين في أمة من الامم مرآة أخلاقها ، وترجمان سجاياها . لانه ما من مادة وضعت في قانون حكيم الا لحاجة اخلاقية عامة دعت الى وضع تلك المادة فيه . وهذه القضية صحيحة لو لا أن آفة التقنين التقليد ولاسيما في الشرق ايامنا هذه ، لأن الدولة وهي في دور ضعفها لاتستمد قانونها من نفسيتها ، ولا من الاحكام التي أسست بها عصوراً طوالا ، بل تترجمه عن لغة دولة أقوى منها ، مكتفية بما تدخله عليه من تعديل ظاهري . هذا اذا كانت الدولة الضعيفة مطلقة اليد في سن قوانينها ، واما التي تتصرف فيها يد الاستعمار فقوانينها أكذب دليل عليها

ويرى آخرون أن جداول الاحصاء أصدق من القوانين دلالة على مستوى

فهرس

صفحه

الصحاح (مادة شعب) قال : وفي الرأس أربع قبـائل . والشأن واحد الشئون وهي مواصل قبائل الرأس وملتقاها ومنها تجيء الدموع

وأما القبيلة فهي في الأصل العظام المشعوب بعضها الى بعض الى أن تصل بينها الشئون المتقدّم ذكرها . قال الجوهري (مادة قبل) وبها سميت قبائل العرب

وأما العمارة فهي من الانسان الصدر . قال الزبيدي في تاج العروس (مادة عمر) : سمي الحي العظيم عمارة بعمارة الصدر وجمعها عمائر

والجماعة من العرب التي تسمى بطناً هي دون العمارة وقد سميت بطناً لأنه دون الصدر

وكذلك الحال في الجماعة التي يطلق عليها اسم الفخذ

والفصيلة رهط الرجل الأدنون . قال الزبيدي في التاج : وهي بمنزلة المفصل من القدم . ونقل ابن الأثير في النهاية عن الهروي أن أصل الفصيلة قطعة من لحم الفخذ

قال القلقشندي في صبح الأعشى (١ : ٣٠٩) : وربما عبروا عن كل من الطبقات الست بالحيّ

وقال ابن عبد ربه في العقد الفريد (٢ : ٥٦ بولاق) : وقيل للجماجم جماجم لأنهـا يتفرّع من كل واحدة منها قبائل اكتفت بأسمائها دون الانتساب اليها فصارت كأنها جسد قائم وكل عضو منها مكتفٍ باسمه معروفٌ بموضعه

ويقولون (الاشلاء) لبقايا القبيلة التي انحلت جامعتها وتفرّقت في غيرها ، أخـذوها من الشلو وهو العضو من أعضاء اللحم . وفي الصحاح أشلاء الانسان أعضاؤه بعد البِلى والتفرق

قال ابن رشيق في العمدة (٢ : ١٥٤) : وزعم أبوأسامة ـ فيما رأيتُ بخطه

الامة الاجتماعي ، لأن الاحصاء تاريخ ساكن والتاريخ احصاء متحرك ، كما قال شلوزر . وهذه القضية صحيحة أيضاً لو كانت أرقام تلك الجداول تُجمع دائماً بطريقة من الحصر والاستقراء تطمئن اليها النفس ؛ وهو مطلب عسير في كثير من الامم ، وأكثر منها عدداً الامم التي ليس فيها إحصاءٌ قط

ونحن مع القائلين بان لغة الامة دليل نفسيتها ، وصورة عقليتها ؛ بل هي أسارير الوجه في كيانها الاجتماعي الحاضر ، وفي تطورها التاريخي الغابر . لأن وراء كل لفظة في المعجم معنى شعرت به الامة شعوراً عاماً دعاها الى الإعراب عنه بلفظ خاص ، فوقع ذلك اللفظ من نفوس جمهورها موقع الرضى ، وكان بذلك من أهل الحياة . وما معجم اللغة الا مجموعة للمعاني التي احتاجت الامة الى التعبير عنها فاختارت لكل معنى منها لفظاً يدل على الجهة التي نظرت الامة منها الى ذلك المعنى عند ما سمته باللفظ الذي اصطلحت عليه . فلغة الامة تتضمن تاريخ أساليب التفكير عندها ، من ابسط حالاته الى أرقاها ؛ يعلم ذلك البصير في أبنية اللغة وتلازمها ، ومن له ذوق دقيق في ترتيب تسلسلها الاشتقاقي

﴿ القومية عند العرب جسمٌ حيّ ﴾

لا أحسبني مُحْدِثاً في لغة العرب وتاريخها بدعة اذا قلت ان للعرب قوميةً نامية نماء الكائنات العضوية ؛ فالعرب تمثلوا في قوميتهم معنى الجسم الحيّ النامي منذ أقدم العصور ، بل منذ نطقوا بلغتهم هذه ذات الاسرار العجيبة التي تشرّفنا بوراثتها عنهم

تنقسم القومية العربية عند اهلها الى شعوب ، والشعوب الى قبائل ، والقبائل الى عمائر ، وبعد العمائر البطون ، وتحت البطون الأفخاذ ، تليها الفصائل

أما الشَّعب فمأخوذ من شَعَب الرأس وهو شأنه الذي يضم قبائله كما في

ابن هاشم فكان فيما قاله لابن ذي يزن :

« أنت - أبَيْتَ اللعن - ملك العرب وربيعها الذي تخصب به البلاد ، ورأسها الذي له تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي تلجأ اليه العباد . سلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف . ولن يُهلك الله من أنت خلفه ، ولن يخمل ذكر من أنت سلفه »

وقال له أبو أمية بن أبي الصلت أحد رجال ثقيف :

اشرب هنيئاً عليك التاجُ مرتفقاً في رأس (غُمدان) داراً منك محلالا
واشرب هنيئاً فقد شالت نعامتهم وأسبل اليوم في برديك اسبالا

ولما سئم عرب العراق تسلط الفرس على أطراف بلادهم ، ومحاولتهم النيل من حريتهم واستقلالهم ، انتهزوا فرصة تضافروا فيها مع هانيء بن مسعود في يوم ذي قار على الفرس واستظهروا عليهم ، فقال في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولم يكن أوتي النبوّة بعدُ - :

« اليومَ انتصفتِ العربُ من العجم »

وظل العرب بعد الاسلام ينظرون الى هذه الواقعة كنظرهم اليها في زمن حدوثها . وفيها يقول أبو تمام حبيب بن أوس :

أُلاكَ بنو الافضال لولا فعالهم دَرَجْنَ فلم يوجد لمكرُمة عقبُ
لهم يومُ ذي قار مضى وهو مفرد وحيدٌ من الأشباه ليس له صحبُ
به علمت صهبُ الأعاجم أنه به أعربت عن ذات أنفسها العربُ
هو المشهد الفرد الذي ما نجا به لكسرى بن كسرى لاسنام ولاصلبُ

وقال حبيب أيضاً :

اذا افتخرت يوماً تميم بقوسها وزادت على ما وطّدت من مناقب

وقد عاصرته وكان علاَّمة باللغة ـ ان هـذه الطبقات على تأليف خَلق الانسان الأرفع فالأرفع : فالشعب أعظمها مشتق من شعب الرأس ، ثم القبيلة من قبيلته ، ثم العمارة . قال : والعمارة الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . قال : وهي الساق أو قال المفصل ـ الشك مني أنا ـ قال : والحي أعظم من الجميع لاشتمال هذا الاسم على جملة الانسان

قلت : وقد صنّف العرب فى هذا المعنى ، ولعبد الله بن محمد بن محمد الصغير رسالة فيه تقع في بضع صفحات في مجموع رقم ٣٣٢ من كتب اللغة في الخزانة التيمورية

﴿ الصّلة بين أعضاء هذا الجسم ﴾

كانت العرب في كل أدوار التاريخ تعتزّ بوحدتها القومية فتغتبط أعضاؤها الاجتماعية بالخير يصيبه عضوٌ منها أو مجموعُها ، وتجزع للشرّ يصيب عضواً منها أو مجموعَها

ومن أمثلة ذلك أن اليمانيين لما قاموا بقيادة سيف بن ذي يزن لاخراج الحبشة من وطنهم ـ مستعينين على ذلك بالفُرْس بعـد يأسهم من عون الروم ـ فانتصر ابن ذي يزن عليهم وردّ الى ذلك الجزء الـكبير من بلاد العرب حرّيته واستقلاله ؛ رأى العرب أن لهم نصيباً من هذا النصر الذي ساقه الله الى بني قومهم اليمانيين ، فأتت وفود عدنان تهنيء مَلِكَ قحطان . وقد روى الحافظ ابن عساكر (١ : ٣٦١) عن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ان فيمن أتاه من الوفود وفدَ قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس ، وعبد الله بن جُدعان ، وخويلد بن أسد ، ووهب بن عبـد مناف بن زهرة في ناس من وجوه قريش ؛ فقدموا عليه صنعاء فاذا هو في رأس (غُمدان) . قال مؤرخو العرب وخطب عبد المطلب

ربما كانت أوغل من المشاكلة من جهة الرحم . نعم ، حتى تراه أغلب عليه من أخيه لأمه وأبيه ، وربما كانت أشبه به خَلقاً وخُلقاً ، وأدباً ومذهباً »

﴿ العرب وملوكهم الأعاجم ﴾

رأى القراء فيما نقلناه في العدد الماضي من أقوال الدكتور دوزي انه لم يرث أحد على سطح الغبراء نصيباً أوفر من نصيب العربيّ في الحرية ، ولا قسطاً أعظم من قسطه ؛ حتى أن عدم اقراره بالعبودية لأحد غير الله في كلمة « لا إله إلا الله » دليل تمسكه الشديد بحرّيته وعضه عليها بالنواجذ . ونحن اذا نظرنا الى الأمة العربية وبلادها نظرة تاريخية وجغرافية نرى أنها أقل بلاد الله خضوعاً للغريب واخلاداً الى حكمه . وانها ــ سواء كانت بدوية أو حضرية ، وجاهلة أو مهذبة ، ومتوسطة في موقعها أو متطرّفة ــ لم تتنازل قطّ عن حريتها ، واذا اضطرت الى ذلك حيناً من الدهر تبيت الليالي والشهور والسنين تتحيَّن الفرص للخلاص . وقد مضى في أثناء هـذا المقال حديث قيام اليمانيين لاخراج الحبشة من أرضهم ، وهبوب العراقيين للانتصاف من جيرانهم الذين انتقصوا من حريتهم ؛ وما برحت الليالي في الشرق العربي حُبالي ، وليس بعيداً أن يلدن العجائب

يقول الدكتور غُستاف لوبون في فصل « سر عظمة العرب » من كتابه عن حضارتنا : « ليس التاريخ الا رواية الأحداث والأفعال التي قام بها الناس سعياً وراء المطمح . ولولا هذا لظلّ الانسان على بربريته ، ولما كان له من المدنية نصيب . وان انحطاط الأمة يبتديء يوم لا يكون للأمة مطمح تحترمه بجملتها فيدافع كل فرد منها بنفسه في سبيل حمايته والذَّود عنه »

ونحن اذا تتبعنا تاريخ العرب في جميع الأدوار ، وراقبنا خُلقهم السياسيّ العام ، لنتبين مطمحهم القومي الثابت بعد انتقالهم من حياة القبيلة الى حياة الدولة ،

فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم عروشَ الذين استرهنوا قوس حاجب[1]

﴿ العرب كلهم شيء واحد ﴾

ان وحدة الناطقين بالضاد قضية معروفة عند العرب من عهد عهيد . ومن شواهد ذلك ما رواه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في البيان والتبيين (٣ : ١٤٥) من أن الخواصّ الخلص من النزارية يرون ان اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام بعث نبياً مصلحاً للعرب كلها ، غير مختص بالحجاز وأهلها . فان هؤلاء الخواص من النزاريين قالوا : « ان العرب كلهم شيء واحد ، لأن الدار والجزيرة واحدة ، والأخلاق والشيم واحدة ، وبينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق في الأخلاق وفي الاعراق — من جهة الخؤولة المردَّدة ، والعمومة المشتبكة — ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة ، وطباع الهواء والماء . فهم من ذلك شيء واحد : في الطبيعة ، واللغة ، والشمائل ، والمراعي ، والراية ، والصناعة ، والشهوة . فاذا بعث الله عزّ وجل نبياً من العرب فقد بعثه الى جميع العرب ، وكلهم قومه . ولأنهم جميعاً يدٌ على العجم ، وعلى من حاربهم من الأمم ؛ لأن تناكحهم لا يعدوهم ، وتصاهرهم مقصور عليهم . قالوا : والمشاكلة من جهة الاتفاق في الطبيعة والعادة

(١) يشير ابو تمام رحمه الله الى حادثة تاريخية ، وهي أن حاجب بن زرارة التميمي وفد على كسرى في سنة جدب ، فشكا اليه محل الحجاز عامئذ ، وطلب منه حمل الف بعير برّاً على أن يعيد اليه قيمتها . فقال له كسرى :

— وما ترهنني على ذلك ؟

قال حاجب : — أرهنك قوسي !

فاستعظم كسرى همة حاجب بن زرارة وقال :

— قبلت !

وأعطاه حمل ألف بعير برّاً . ومات حاجب فأحضر بنوه المال بعد موته ، وطلبوا من كسرى قوس ابيهم . فافتخرت تميم بذلك ، وأشار أبو تمام ببيتيه الى هذه المفخرة

الحضارة الاسلامية ، ومدافعته الاغيارَ عن البيضة ؛ ان استقرار حال الدولة في هذه الأمور أو أكثرها مدة ملوك الأعاجم على ما كانت عليه الحال زمن الدولة العربية لما جعل الناطقين بالضاد في غير ما وجلٍ على مطمحهم القومي القائم على حرية الفرد واستقلال الدولة . واننا لا نعدو الصواب اذا قلنا ان دولة آل عثمان نفسها التي اتخذت لغة الترك رسمية في الدولة الاسلامية من دون لغة القرآن لم تتمسك بذلك الا في الانضول والقسطنطينية والبلاد الواقعة في غربها ، وأما في بلاد العرب فقد ظلت الاحكام بالعربية الى أواخر القرن الثالث عشر الهجري ، ويوم أسست مدارسها الرسمية في ديار الشام من أقصى حلب شمالاً الى أقصى فلسطين جنوباً (سنة ١٢٩٦هـ) كانت لغة التعليم في هذه المدارس عربية ، ولا تزال الكتب المدرسية التي ألفت بالعربية لطلاب تلك المدارس موجودة معروفة . فلما عزمت الدولة نهائياً على صبغ البلاد العربية بالصبغة التركية المحضة كان ذلك اليوم بداية عهد غير حميد ، وقد شاهدنا عواقبه مشاهدة المعاصر لحوادث عصره فلا حاجة الى بسطها

﴿ نحن ولغتنا اليوم ﴾

قلتُ في صدر هذا المقال إن لغة امة من الامم هي المرآة التي تنطبع فيها صورتها الحقيقية . وما عليك إذا أردتَ أن تتأكد صِحّةَ هذه القضية ـ أو اذا صدَّقتها وأردتَ ان تعرف حقيقة الناطقين بالضاد من النظر في لغتهم باعتبار انها مرآتهم ـ إلاّ ان تقف تُجاه المعجم العربي وقفةَ مفكّر معتبر

إن هذه الوقفة لتوحي الى صاحبها من المعاني ما يستحقُّ ان نُفرِدَ له مقالاً مستقلاًّ ، بل هو من الاهمية بالمنزلة التي تستحقُّ من علمائنا عناية أخرى غير تحبير المقالات

نجدهم ظلوا متمسكين بأهداب الحرية للفرد ، فهي أثمن ذخائرهم وأعزّها عليهم ؛ وفي تاريخهم من شواهد ذلك العجب العجاب . أما نظرهم الى الدولة فكان وليدَ رأيهم القديم في القبيلة ؛ وقد علمنا مما كتبه الدكتور دوزي أن إمارة القبيلة لم تكن الامر المهم في حياة العرب الاجتماعية بل أعباء الامارة هي الأمر ذو البال

لذلك رأينا الأمة العربية ــ بعد غلطة العباسيين الكبرى في اصطناع الموالي وتقليدهم زمام أمر الدولة ــ قد أرضاها بعضَ الرضى سلوكُ مَن ملك البلاد من الأعاجم مسلك الدول العربية في اتخاذ لغة القرآن لغة رسمية للدولة ؛ فلا آل بويه ، ولا آل سلجوق ، ولا بنو أيوب ، ولا حكومات المماليك والطوائف ، ولا أي ملك من ملوك الأعاجم في البلاد العربية حدّثوا أنفسهم باضطهاد لغة العرب وآدابها ، بل ان كثيرين منهم كانوا حاملي لوائها ومؤيدي علومها . وكل من حكم بلاد العرب من الملوك الأعاجم انما وصل الى مراتب الحكم لدخوله في دين الاسلام ومواصلته خدمة حضارته . وقد ظهر من بينهم ملوك أتقياء عقلاء عادلون ــ مثل نور الدين وصلاح الدين ــ كانت الأمة تطمئن اليهم وتمتلىء قلوب أفرادها حباً لهم وثقة بفضائلهم وتقواهم ، فكانت سيرتهم الطيبة في الأمة بلسماً لجراحها السياسية ، ومسكّناً لآلامها القومية والوطنية ، في ظروف حرجة كانت تنتابها بين حين وآخر : كالحروب الصليبية ، والغارات التترية وما الى ذلك

وأنت ترى مما تقدم أن الناطقين بالضاد كانوا يرمون في مطمحهم السياسي الى أمرين اثنين : حرية الفرد ، واستقلال الدولة ذات الحضارة العربية . وكلا الأمرين توارثوا جرثومتهما عن حياتهم الأولى في القبيلة . وكلاهما كانا متوفرين في الدول التي كانت العربية لسانها الرسميّ ، فكان الشعب لا يشعر بشيء من التغيير في حياته السياسية غير الأصل الذي ينتمي اليه الحاكم الأعجمي ، وكثيراً ما ينسى الشعب ذلك اذا نظر الى تأدُّب حاكمه بالأدب العربي ، ومماشاته لسلسلة

الشفق

وعلاقته ببعض أوقات الصلاة

الفجر والشفق مشهدان من مشاهد الاطانة في الملكوت طالما ابتهج بنو آدم بمراقبتهما ، وما برح جمالهما مصدرا من مصادر الالهام لقلوب الشعراء وأهل البصيرة . وهما – فوق ذلك – ظاهرتان من الظواهر السماوية التي يهم قراءنا تحقيقها ، لاهميتهما في ذاتهما ، ولعلاقتهما بالشرع الاسلامي في تعيين وقت فريضتي الصبح والعشاء ووقت الامساك في رمضان

وقد التمست (الزهراء) من حضرة صاحب السماحة السيد عبد الحميد البكري أن يتحف قراءها بتحقيق هذا البحث من الوجهة الفلكية مع المقارنة بالنصوص المأثورة عن علماء الفقه الاسلامي ، فتفضل بالمقال التالي :

الشفق ظاهرة سماوية سببها انكسار أشعة الشمس وانعكاس ضوئها عن طبقات الجو المحيط بالكرة الأرضية . وهو الحد الفاصل بين ضوء النهار إذا تجلى وظلمة الليل إذا يغشى

والشفق شفقان : شفق شروق وشفق غروب . فشفق الشروق ذلك الخيط الأبيض الذي يعترض فى الفضاء عند ماتكون الشمس تحت دائرة الأفق وقبل أن تشرق ، ويأخذ هذا الخيط بالانتشار فى طبقات الجو كلما اقتربت من الأفق الشرقى حتى يتم طلوعها فينجلى النهار . وأما شفق الغروب فهو ذلك الضوء الأحمر الذي ينتشر فى الفضاء على الأفق الغربى عند ما تحتجب الشمس تحت دائرته ثم يأخذ فى التلاشى شيئاً فشيئاً كلما انحطت حتى إذا بلغ انحطاطها نهايته وتلاشى تماماً يسود الظلام ويسدل الليل أستاره

والشفق إما عرفى وإما فلكى : فالعرفى يبتدئ من غروب الشمس الى الوقت الذى ترى فيه النجوم من القدر الأول بالعين المجردة حيث تكون الشمس تحت

الشعوب العربية الحاضرة تشبه المعجم العربيّ من كل الوجوه : ففي معجمنا المادة الغزيرة الفياضة التي تحسدنا عليها أمم كثيرة ؛ ولكن هذه المادة تحتاج الى تنظيم علمي تتسلسل فيه مشتقات الكلمة الواحدة تسلسلاً تاريخياً - بقدر الامكان - يراعى فيه تقديم الاصول على ما تفرّع منها ؛ ثم ان هذه الاصول والفروع تحتاج الى تحديد دقيق يستعان فيه بما تفرّق في غير المعاجم من أقوال علماء اللغة ، وتحتاج بعد ذلك الى التخصيص الذي تقتضيه حاجة العصر ، يتولاه مجمع علمي مسموع الكلمة لا يتردد الكاتبون في النزول على حكمه ؛ وتحتاج أيضاً الى أن يكون مؤلفو المعاجم ذوي كفاءة تامة في اختيار مادة كل معجم بالترجيح الذي يقتضيه حجم المعجم : الأهمّ فالاهم ، لان من عيوب معاجمنا أن نجد في أحدها الكلمة الحوشية التي قد لا يحتاج اليها المطالع مرة في السنة وتهمل الكلمة التي تمس حاجة الناس الى مراجعتها في كل وقت

ان لغتنا مثل امتنا لغة استقلالية ربما كانت أغنى من كل لغة اخرى عن الاحتياج الى غيرها ، ولكنها مع غنائها هذا العجيب قد خذلها علماؤها اليوم فلم يكوّنوا لانفسهم مجمعا جدّياً يكون المرجعَ الاعلى لامثاله في كل قطر عربي ، ويكون فيه العلماء الاخصائيون الذين بنوا علمهم على الاسس المتينة التي وضعها لنا أئمة هذه اللغة من عهد الخليل وسيبويه الى يومنا هذا

فاللغة العربية - كالقومية العربية - أصيلة وغنية وقوية بطبعها ، ومصابة بالتشتت والاهمال والفوضى والتخاذل في حالتها الراهنة ؛ فهل لهما من رجالهما الابناء البررة ، الذين يسلكون للاصلاح طريقه ، ويدخلون اليه من بابه ؟

أظن انه قد آن الأوان للنهوض من نومة طال علينا ليلها ، والله الهادي

النهار من ههنا (وأشار الى الغرب) وأقبل الليل من ههنا (وأشار الى الشرق) فقد أفطر الصائم

إن ظهور الخط الأسود هذا الذى استكشفه العلامة لامبير فى الأفق الشرقى بعد الغروب يستلزم ظهور خط أبيض وقت السحر – حين تقرب الشمس من الأفق فتكون على (١٨° أو ١٩°) ثمانى عشرة درجة أو تسع عشرة درجة – يطرد الظلام إلى سمت الرأس ويبعده الى الأفق الغربى . وزمان ظهور هذا الخط الأبيض انما هو وقت إمساك الصائمين ولعله المراد من الخط الأبيض المذكور فى قوله تعالى «حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الاسود من الفجر»

ليس لنا بعد أن تكلمنا طويلا ملخصين صفوة ما قيل عن الشفق كظاهرة فلكية إلا أن نذكر بعض أقوال أهل الميقات والرصد فى هذه الظاهرة لعلاقتها المهمة فى تعيين الأوقات ذات الصلة ببعض الفروض الشرعية كصلاة الصبح والعشاء وإمساك الصائم . وقبل أن نأتى على ذكر ذلك نتقدم بخلاصة من أقوال الفقهاء توضح للقارىء مذاهبهم المختلفة فى هذا الصدد :

وقت الصبح

اتفق الفقهاء على ان أول وقت الصبح طلوع الفجر الصادق وآخره طلوع الشمس إلا ماروى عن ابن القاسم وعن بعض أصحاب الشافعى من أن آخر وقتها الإسفار . واختلفوا فى وقتها المختار فذهب الكوفيون وأبو حنيفة وأصحابه والثورى وأكثر العراقيين إلى أن الاسفار لهـا أفضل . وذهب مالك والشافعى وأصحابه وأحمد بن حنبل وأبو ثور وداود إلى أن التغليس لها أفضل

وقت العشاء

اختلف العلماء فى وقت العشاء الآخرة فى موضعين : أحدهما فى أوله والثانى

دائرة الأفق الغربى بست درجات . والفلكى يمتد زمنه إلى أن يبلغ انحطاط الشمس تحت دائرة الأفق الغربى تسع عشرة درجة على رأى علماء المسلمين من أهل الرصد والميقات وثمانى عشرة درجة فى قول علماء الرصد من أهل الغرب

ومدة كل من الشفقين ليست واحدة ويتراوح الفرق بينهما من ٢° إلى ٤° لأن شفق الشروق يدوم زمناً أطول من شفق الغروب بقدر الفرق بينهما

وميل الشمس له تأثير كبير فى طول مدة الشفق وقصرها . فانه كلما كان ميلها أقل ـ أى كلما بعدت فى حركتها السنوية عن أحد المدارين واقتربت إلى خط الاستواء ـ قصرت مدة الشفق ، وبالعكس كلما بعدت عن خط الاستواء واقتربت من أحد المدارين أعنى زاد ميلها تطول مدته . وتختلف أيضاً مدة الشفق باختلاف عروض البلدان ومواقعها من سطح الأرض : فالبلاد ذات العروض الكبيرة أى البعيدة عن خط الاستواء شمالاً أو جنوباً تطول فيها مدة الشفق بينما غيرها من البلدان القريبة من خط الاستواء شمالاً أو جنوباً أى ذات العروض الصغيرة تقصر فيها مدته . وتتناهى مدة الشفق فى القصر فى البلاد الواقعة على خط الاستواء تماماً حيث لا تزيد عن ١٦° أى ساعة واحدة وأربع دقائق زمنية . وهناك عوامل أخرى ذات تأثير فى حالة الشفق ومدته وان كانت تجىء فى الدرجة الثانية إلا انها على كل حال لها أثرها : فمنها حالة الجو من الصفاء والاكفهرار ورطوبة الهواء وجفافه وظهور القمر فى التربيع الأول والأخير أعنى فى أوائل الشهر القمرى وأواخره

وقد استكشف العلامة لامبير الفلكى الشهير خطاً أسود يتولد فى الأفق الشرقى بعد غروب الشمس وان الشمس كلما انحطت تحت الأفق الغربى يصعد ذلك الخط من الشرق الى جهة سمت الرأس وتتسع منطقة الظلام الواقعة بين الخط المذكور والأفق الشرقى فتغطى وجه السماء وحينئذ يغيب الشفق . ولعل هـذا الخط هو الذى أشير اليه فى الحديث النبوى فى قوله صلى الله عليه وسلم : إذا أدبر

وشذت فرقة فقالوا هو الفجر الأحمر الذى يكون بعد الأبيض وهو نظير الشفق الأحمر . وهذا القول روى عن حذيفة وابن مسعود

هذه خلاصة من أقوال أئمة الشريعة الاسلامية ملخصة من كتبهم دون التعرض إلى ذكر أسباب اختلافهم التى لايتسع لها هذا المقام على ان أغلبها يرجع الى تعدد الآثار واختلافها فى السند والرواية . ونريد الآن أن نُتبع ذلك ـ كما وعدنا آنفاً ـ بأقوال أهل الميقات وما قرروه فى تعيين زمن هـذه الأوقات الشرعية :

قال بعض المتقدمين من علماء الميقات والرصد : يغيب الشفق متى كانت الشمس تحت الأفق الغربى بقدر ١٨° ثمانى عشرة درجة . ويبتدىء الفجر حينما تـكون الشمس تحت الأفق الشرقى بقدر ١٨° ثمانى عشرة درجة أيضاً

وقال أبو الحسن على المراكشى ومن تابعه من المتأخرين : يغيب الشفق متى كانت الشمس تحت الافق الغربى بقدر ١٦° ست عشرة درجة . ويبتدىء الفجر حينما تـكون الشمس تحت الأفق الشرقى بقدر ٢٠° عشرين درجة

وقال علاء الدين الشهير بابن الشاطر وغيره من أئمة الرصد والهيئة كنصير الدين الطوسى وأبى الريحان البيرونى : ان وقت أكثر اللمعان (الإسفار) يكون عند ما تـكون الشمس تحت الأفق بقدر ١٨° ثمانى عشرة درجة . ووقت أقل اللمعان (الغلس) يكون عند ماتـكون الشمس على ٢٠° عشرين درجة تحت دائرة الافق على ان ذلك يختلف باختلاف عرض المـكان وصفاء الهواء ووجود القمر وعدم ظهوره

وقال العلامة الشيخ شمس الدين بن العتروبى وابن الطاهر : يكون مغيب الشفق فى ١٨° ثمانى عشرة درجة وظهور الفجر فى ١٩° تسع عشرة درجة

فى آخره . أما الاول فذهب مالك والشافعى وجماعة إلى أنه مُغيب الحمرة . وذهب أبو حنيفة إلى أنه مغيب البياض الذى يكون بعـد الحمرة . وسبب اختلافهم فى هذه المسألة اشتراك اسم الشفق فى لسان العرب فانه كما ان الفجر فى لسانهم فجران كذلك الشفق شفقان : أحمر وأبيض . ومغيب الشفق الأبيض يلزم أن يكون بعده فى أول الليل : إما بعد الفجر المستدق من آخر الليل أعنى الفجر الـكاذب ، وإما بعد الفجر الابيض المستطير . فالطوالع إذاً أربعة : الفجر الـكاذب والفجر الصادق والأحمر والشمس

ولا خلاف بينهم انه قد ثبت فى حديث بريدة وحديث امامة جبريل انه صلى العشاء فى اليوم الأول حين غاب الشفق . وقد رجح الجمهور مذهبهم بما ثبت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى العشاء عند مغيب القمر فى الليلة الثانية ورجح أبو حنيفة مذهبه بما ورد فى تأخير العشاء واستحباب تأخيره وقوله : لولا أن أشق على أمتى لأخرت هذه الصلاة إلى نصف الليل . وأما آخر وقتها فاختلفوا فيه على ثلاثة أقوال : قول انه ثلث الليل ، وقول انه نصف الليل ، وقول انه إلى طلوع الفجر . وبالأول ــ أعنى ثلث الليل ــ قال الشافعى وأبو حنيفة وهو المشهور من مذهب مالك . وروى عن مالك القول الثانى أعنى نصف الليل . أما الثالث فقول داود

وقت الامساك

اتفق الأئمة على ان آخر زمن الامساك هو غيبوبة الشمس لقوله تعالى « ثم أتموا الصيام إلى الليل » واختلفوا فى أوله فقال الجمهور : هو طلوع الفجر الثانى المستطير الأبيض لثبوت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعنى حده بالمستطير ولظاهر قوله تعالى : « حتى يتبين لـكم الخيط الأبيض . . . الآية »

ويذهب أصحاب التقاويم الفلكية من علماء الميقات إلى أبعد من هذا فى تقدير مدة الشفق التى لها صلة بالأوقات الشرعية فيتبعون من أجل ذلك الطرق الرياضية المألوفة فى تحرير الزمن وضبطه حسب اختلاف مطالع البلد التى يراعى فيها ميل الشمس وعرض البلد وطوله فيضعون الجداول الدقيقة للأوقات يوماً يوماً بالساعة والدقيقة والثانية

هذا ما تهيأ لى أيها الصديق الكريم أن أجيب به على سؤالك لى عن « الشفق وعلاقته ببعض أوقات الصلاة » ولعلى أن أكون قد بلغت من الجواب مايقوم بالغاية من السؤال . وفوق كل ذى علم عليم

الخرنفش فى ٢٦ المحرم سنة ١٣٤٣

ع . ح . البكرى

﴿ ساعةُ ابنِ مُزَلِّق ﴾

حدثني شيخنا الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله قال :

كان ابن مُزَلِّق من تجار دمشق . وقد ورد عنه في رحلة لأحد أدباء المغاربة الى الشام في القرن الثامن الهجري انه صنع ساعة آليَّةً كبيرة كانت موجودة عند المدرسة الصابونية في دمشق بين جامع السنانية والباب الصغير . وكانت هذه الساعة أعجب ما وجد من نوعها يومئذ ، ولها اشارات خاصة عند الزوال وسائر الأوقات الخمسة

وهذه الرحلة مخطوطة كانت عند أحد المغاربة في دمشق وأعيرت للأمير طاهر الجزائري ففقدت ، ولا تُعرف منها نسخة في مكان آخر . وقد اطلع عليها شيخنا رحمه قبل أن تفقد

يتبين مما تقدم أن الخلاف بين المتقدمين والمتأخرين من علماء الميقات كبير يتراوح بين ١٦° الى ٢٠° وهـذا الفرق لا يقل حسب تقدير الزمن عن ست عشرة دقيقة زمانية أى أربع درجات قوسية وهو كاف لفوات وقت المغرب أو وقت الفجر كما لايخفى فضلا عن وقت الامساك . ولقد ذهب بعض المتقدمين الى القول بالتساوى فى ظهور الشفق وغيابه سواء كان شفقَ شروق أوشفق غروب وهذا لا يسلم به كثير من المتأخرين كابن الشاطر و نصير الدين الطوسى وأبى الريحان البيرونى وغيرهم . وإذا كان من بين أقوال من سبق تلخيص أقوالهم من العلماء المتأخرين ماهو أقرب إلى ما أجمع عليه علماء الميقات وإجماعهم ولا ريب لا يمكن أن يعدوَ الصوابَ فهو قول العلامة المحقق الشيخ شمس الدين بن المتروبى لأنه أقرب الأقوال الى الرأى الذى أقره أجلة علماء الرصد والميقات وهو : ان الشمس اذا انحطت عن أفق المغرب ١٧° سبع عشرة درجة غاب الشفق . وإذا صار بينها وبين أفق المشرق ١٩° تسع عشرة درجة طلع الفجر وانقضى الليل . وان وقت الامساك هو عند ما تصل الشمس تحت دائرة الأفق الشرقى الى ٣٠َ ٢١° إحدى وعشرين درجة وثلاثين دقيقة ولما كان الفجر يبتدىء فى ١٩° تسع عشرة درجة يكون الامساك متقدماً عليه بدرجتين ونصف أعنى عشر دقائق زمانية

وخلاصة هـذا الرأى أن صلاة الصبح تجب عند ما تـكون الشمس تحت دائرة أفق الشرق بتسع عشرة درجة أعنى ساعة وست عشرة دقيقة زمانية قبل الشروق . والامساك يحل وقته عند ما تـكون الشمس تحت الأفق الشرقى باحدى وعشرين درجة وثلاثين دقيقة أعنى ساعة واحدة وسـتة وعشرين دقيقة زمانية قبل الشروق . ويجب وقت العشاء الأول عند ما تـكون الشمس تحت الأفق الغربى بسبع عشرة درجة أعنى ساعة واحدة وثمانى دقائق زمانية بعد الغروب

قد أبدعوا حتى أرَوْ نا (جابرَ العثَرات) آبا
حيًّا كما لقيَ النعيم بعزّةٍ لقيَ العذابا
لا تستبينُ به سرورا إن نظرتَ ولا اكتئابا
ما أن يبالي حادثاً من حادثات الدهر نابا
يقضي الرغائب باذلاً فيها نفائسه الرّغابا
يخفي مبرّته ويجبر أن يبوح بها فيابى
لا ينثني يوماً عن الاحسا ن لو ساء انقلابا
وتحوّلت يده الى أحشائه ظفراً ونابا

***

هنّ الخلائق قد يكنّ بطونَ خبْت أو هضابا
والنفسُ حيث جعلتها فابانْ اذا شئتَ السحابا
أو جارِ في أمن خشاشَ الأرض تنسحبْ انسحابا
كن جوهراً مما يمحّصُ باللظى أو كن ترابا
ليسا سواء: منقضٍ هبواً ومنقضّ شهابا
البينُ محتومٌ وآلمَه اذا ما المرء هابا
والطبعُ ان روّضته ذلّتَ بالطبع الصعابا
لا تؤخذُ الدنيا اجتداء تؤخذُ الدنيا غِلابا
راجعْ ضميرَك ما استطعتَ ولا تُهادنْه عِتابا
طوبى لمن لم يمضِ في غيٍّ تبيّنه فتابا
الوِزرُ مغفورٌ وقد صدقَ المفرّط إذ انابا

***

تؤخذ الدنيا غلابا

— تحيةٌ للشبيبة الاسلامية البيروتية —

مثلت الشبيبة الاسلامية في بيروت رواية (جابر عثرات الكرام) التي ألفها الكاتب الناهض السيد رائف الفاخوري ، فأتى الشاعر الكبير خليل بك مطران ليلتئذ هذه القصيدة العصماء :

حيِّ العزيمة والشبابا والفتية النضرَ الصلّابا
التاركينَ لغيرهم نَزَقَ الطفولةِ والدّعابا
الناعلي بيروتَ — وهي الثغرُ — للعلياء بابا
الطالبين من المظنا تِ الحقيقةَ والصوابا
البائعين زُهى القشورِ المشترين به اللبابا
آدابهم تأبى بغير التمّ فيها أن تعابا
أخلاقهم من جوهرٍ صافٍ تنزَّه أن يُشابا
نيّاتهم نيّاتُ صِدْقٍ تأنفُ المجدَ الكذابا
آراؤهم آراءُ أشياخٍ وان كانوا شبابا
مهما يلوا من منصبِ الأعمال يُوفُوه النّصابا
والمتقنُ الجوادُ يُرضي اللهَ عنه والصحابا
أنظرْ الى تمثيلهم أفما ترى العَجب العجابا
فاقوا به المتوفقين وأدركوا منه الحبابا
أسمعتَ حُسنَ أدائهم إما سؤالاً أو جوابا
أشهدتَ من إيمائهم ما يجعل البُعدَ اقترابا
أشجتكَ رنّاتٌ بها نبَروا وقد فصلوا الخطابا

إنا — ومطلبُنا أقلُّ الحق لا نغلو طِلابا
ندعو الوفيَّ الى الحِفا ظ ونُكبِرُ التقصيرَ عابا
ونقول: كن نصلاً به تسطو الحميةُ لا قِرابا
ونقول: دع فخراً يكا دُ صداه يوسِعُنا سبابا
آباؤنا كانوا... وإنّا أشرفُ الأمم انتسابا
هل ذاك مُغنينا اذا لم نكمِلِ المجدَ اكتسابا

* * *

يا نخبةً ملكوا التجـ ـلّة في فؤادي والحِبابا
ورأوا كرأيي أمثل الخطط التآلف والرِّبابا
لله فيكم من دَعا للصالحات ومن أجابا

خليل مطران

العاميَّة والفُصحى

قال خليل بك مطران في مقدمة ترجمته لرواية عُطيل تأليف شكسبير:

« تالله لو ملكتُ العامية لقتلتها بلا أسف، ولم أكن بقتلي إيّاها إلاّ منتقماً لمجد فوق كل مجد، نزَلتْ من هيكله الذهبيّ الخالص الرّنّان منزلةَ الرِّجلين الخزفيتين القذرتين؛ فهو فوقهما مُتداعٍ، وبهما مشوَّه

« منتقماً لأمة كَسرت العاميةُ وحدتَها، وكانت عليها أكبر معوانٍ للتصاريف التي مزّقتها في الشرق والغرب كلَّ ممزّق

« منتقماً للفصاحة نفسِها؛ وأيُّ فصاحة في خُشارة لا تصيب فيها تبرالاصل الا وقد تلوّثت بذريرات لا تحصى من أوضار الرطانات بأنواعها »

يامُنشئاً هذي الروايةَ إن رأيكَ قد أصابا
باللفظ والمعنى لقد سالتْ مواردُها عِذابا
حقاً أجدْتَ وأنتَ أحرَى من أجاد بأن تُثابا
وأفدتَ فالمحمولُ فيها طاب والموضوعُ طابا
يكفيكَ فضلاً أن عمرْتَ بها من الذِّكرى خرابا
ياحُسنَ ما يُروَى إذا أروى مَعيناً لا سَرابا
أذْكرتَ مجداً لم تزل تحدُو به السِّيرُ الركابا
وعظائماً للشرق قد أعنَتْ من الغرب الرّقابا
خفضَ الجناحَ لها العِدى وعَلا الولاةُ بها جَنابا
مشّت على الأسناد فى الروم المطهمةَ العرابا
وبمُسرِجيها الفاتحينَ أضاقتِ الدنيا رحابا
آياتُ مجدٍ خلَّدتْ صحفُ الزمان لها كتابا

* * *

يا قوميَ التاريخُ لا يألو الذين مضوْا حسابا
ويظَلُّ قبلَ النشر يُوسِعُهم ثواباً أو عِقابا
من رابَه بعثٌ فهذا البعثُ لم يدَعِ ارتيابا
فاذا عُنينا بالحياة خلا الطعامَ أو الشرابا
واذا تبينّا المسيرةَ لا طريقاً بل عُبابا
لاننسَ من حقّ الحمى ما ليس يألوه ارتقابا
ويحَ امرىءٍ رجّاه موطنُه لمحمدةٍ فخابا
أعلى احتسابِ بذلُ من لبَّى ولم يبغِ احتسابا

فثارت طوائف زَناتة سنة ٤١١ و٤١٥ و٤٢٠ و٤٢٧ و٤٢٨ و٤٢٩ ه الى غيرها وآل حماد سنة ٤٣٢ ه ولكن الحظّ كان قرين المعز فهزمهم وأخمد ثورتهم وكفّ من غَرْبهم فهابته الطوائف . وتزلّفت اليه بالتحائف . ولم يبق بأمّهات بلاد إفريقيّة من يساجله فى الرئاسة . قال ابن خَلْدُون (٦ : ١٥٩) :

« وكانت بينه وبين زناتة حروب ووقائع كان له الغلب فى جميعها كما هو مذكور »

وكان [1] رقيقاً رفيقاً . سَمْحاً جواداً محبّاً للعلم وحامليه . متجنّباً لسفك الدماء . حليماً حسن الصحبة والعشرة . ليّن الجانب للأودّاء . خَشِنَه للأعداء . ملك من بَرقة الى فاس وسكّن الثوّار بإيناس منه وإبساس . وكان يخضع لأحكام الشرع كما يؤخذ من عدّة تراجم فى معالم الايمان (٣ : ١٧٦ و٢٠٩) ولم يكن من الفنون اللطيفة خِلواً وله شعر وإن لم نقِفْ عليه (الوفيات ٢ : ١٠٥)

ونقل صاحب البدائع من أبكار الأفكار لابن شرف أنه اقترح على شاعرَىْ حضرته أن يصفا شَعراً لطيفاً على أسْوُق بعض نسائه فكان مما قاله ابن رشيق :

بعيبون بلقيسيّة أن رأوا بها كما قد رأى من تلك من نَصَب الصَّرْحا

فانتقد المعز عليه بقوله « أوجدتَ لخصمها حُجّةً بأن بعض الناس عابَه » وهذا النقد الصائبُ دليل على ذهنه الثاقب

وكان المعزّ واسطة عِقْد آل زِيرى بل ملوكِ إفريقيّة وبيتَ قصيدهم قال ابن خَلْدون (٦ : ١٥٨) :

« كان أضخَم مَلِك عُرف للبربر بافريقيّة وأترفَه وأبذخَه »

واجتمع بحضرته من أفاضل الشعراء مالم يجتمع إلاّ بباب الصاحب اسماعيلَ

(١) ابن خلدون ٦ : ١٥٨ والكامل ١٠ : ٦ والوفيات ٢ : ١٠٥

المعزّ بن باديس والفاطميون

تتقدم (الزهراء) الى قرائها بهذا الفصل من محاضرة جليلة ألقاها باللغة الاوردية في جمعية الشرقيين بمدينة لاهور (الهند) حضرة العالم المحقق أبو البركات عبد العزيز الميمني الراجكوتي ـ الاستاذ بالكلية الشرقية في لاهور ـ وسيتلوه فصل آخر عن مملكة القيروان في عهد المعزّ بن باديس وحضارتها وعلائق المعز مع ابن رشيق . وكان القاء هذه المحاضرة بمناسبة اشتغال الاستاذ صاحبها بجمع أشعار ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين في كتاب سيصدر من مطبعتنا عما قريب باسم (النتف من اشعار ابن رشيق وابن شرف)

وقد اقترح منشيء (الزهراء) على حضرة الأستاذ صاحب المحاضرة أن ينقلها الى العربية بقلمه البليغ ، فتكرم حضرته بتلبية هذا الطلب تعميما لها بين الناطقين بالضاد

أوّليّة المعزّ

لما فتح جوهر قائد المعزّ الفاطمي مصر في بدء القرن الرابع الهجريّ دعا مولاه المعزّ ليتمكن على سرير مصر والشام . ففكّر المعزّ فيمن يولّيه بعده على إفريقية فلم ير له كفؤاً إلاّ بلكّين بن زيْري بن منّاد (١) الصنْهاجيّ ، وصنهاجة كانوا أعوان الفاطميّين . فاستخلفه ودعاه أبا الفتوح سيفَ الدولة يوسفَ . ثم توالى منصور وباديسُ الى أن توفّى هذا الأخير سنة ٤٠٦ هـ فَجْأةً وهو في معسكره نائم بين أصحابه . فبُويع المعزّ ابنه وهو إذ ذاك (٢) ابن ثمانية أعوام وقيل وستة أشهر وقيل بل ابن احدى عشرة سنةً

المُعزّ بن باديس

لم يُعرف له غير هذا الاسم . ولد سنة ٣٩٨ هـ بالمنصوريّة (صَبْرَةَ) وملك بعد وفاة أبيه بالمحمديّة (المَسيلة) . فقام بأعباء الملك أحسن قيام . وأفرغه في قالب النظام . وأراح نفسه من المدّعين للملك من عشيرته الأدنَيْن . إلاّ أن طوائف البربر لم تُخلّه ينعم بالاً عادتَهم بأسلافه . فكانت تخرج عليه وتنتهز الفُرَصَ .

(١) كذا في صبح الاعشى ٥ : ١٢٤ وفي غيره ابن مناد
(٢) راجع ابن خلكان والكامل وابن خلدون

وتزلفت له الملوك بالهدايا والتُحَف ابتغاء مهادنته . فمن ذلك هدية أتت من مصر على ما قال ابن رشيق [(١)] أو من السودان على ما قال صاحب البساط [(٢)] أو هذه غير تلك وفيها زَرافةٌ وصفها ابن رشيق فى همزيّةّ (وهى فى النُتَف) . ووفود [(٣)] أرسلها ملاك الروم سنة ٤٢٦ هـ معها هديّة خطيرة فقبلها بقصره فى صَبْرَةَ وردّها بما يناسب حالها وحاله . وفى الكامل [(٤)] أنه أرسل الى جزائر القسطنطينيَّة أسطولا وجهّزها فرجعت منصورةً غانمةً . الى غير ذلك من الأخبار ولم نتعرّض لها إذ لم يكن الإكثار من غرضنا فى الباب

غُلوّ الفاطميّين فى بَثّ دعوتهم

اعلم أن القاضى أسد بن الفرات فاتح صِقِلِيَّة والامام سحنونا لمّا صنّفا الأسدية والمدوّنة كان المذهب الحنفى بعدُ ناشراً لواءه ومادّاً خباءه على تلك الأرجاء إلا أن خطوته جعلت تتقهقر بعد تصنيفهما الى وراء ونباهته الى انزواء . ثم انّ الفاطميّين بثّوا دعوتهم ونشروا كلمتهم ولم يكتفوا بالجائز حتى جاوزوا الحد وارتكبوا كل فظيعة شنيعة . وأظهروا أن ليس غرضهم الا ردّ الامر الى أهل البيت والولاء لهم والتفانى فى اصطفائهم الا أنّهم أضمروا ما يباينه فجعلوا يخدعون العوامّ والسُذّج ويستخفّون بالشريعة وأحكامها وعلمائها وكبار رجالها ويسبّون الصحابة جهاراً ولا يخافون لومةَ لائم ولا نَهْىَ ناهٍ ويتصرّفون فى أوامر الشريعة ونواهيها فعلَ عزيز مقتدر ويُسْتَهْتَرون بالمعاصى ويؤذون علماءَ الدين وخيرة العالمين . ثم أعادوا أعمالهم الشنيعة بمصر والشام وأصرّوا على الآصار والآثام . إلا أن أهل هاتين المملكتين لم يكن عندهما بَلاءٌ ولا غَناء ولا مِراس ولا لقاء فلم يصابوا فتيلةً ولا رُزِئوا شيئاً . ولكن أهل إفريقيَّة والمغرب كانوا بعكسهم

(١) العمدة ٢ : ٢٢٨ (٢) ٤٣ (٣) البساط ٤٤ (٤) ٩ : ٢٢٥

ابن عبّاد وكانوا يُنيفون على مائة شاعر على ما زعم صاحب البساط (ص ٥١) وذكر أكثرَهم ابنُ رشيق فى (أنموذج الزمان فى شعراء قيروان) وسيمرّ بك سَرْد أسماء من عثرنا على ترجمته منهم

وهاك بعضَ أمثلة شهامته وبُعد صيته . قال ابن الأثير [١] :

وهب مرة مائة الف درهم للمستنصر الزناتى وكان عنده وقد جاءه هذا المال فاستكثره وأمر به فأُفرغ بين يديه ثم وهبه له . فقيل له لِمَ أمرتَ بإخراجه من أوعيته . قال لئلا يقال لو رآه ماسمحتْ نفسه به

وقال ابن خلدون :

نقل ابن الرقيق من أحوالهم فى الولائم والهدايا والخبائز [٢] والأعطيات ما يشهد بذلك . مثل ماذكر أن عطية صندل [٣] عامل باغانة مائة حمل من المال. وأن بعض توابيت الكبراء منهم كان العودَ الهندى بمسامير الذهب . وأن باديس أعطى فلفول بن مسعود الزناتى ثلثين حملاً من المال وثمانين تختاً . وأن أعشار بعض أعمال الساحل بناحية صَفاقُسَ كان خمسين الف قفيز

وقال أيضاً قبله بقليل :

ووصل زاوى بن زيرى (صاحب غرناطة) من الاندلس سنةعشروأربعمائة كما ذكرناه فى خبره فتلقّاه المعز أعظم لقاء وسلَّم عليه راجلاً وفُرشت القصور لنُزُله ووَصَلَه بأعظم الصلات وأرفعها

وقال ابن خلكان [٤] :

وكان الحاكم صاحب مصر قد لقَّبه شرف الدولة وسير له تشريفاً وسِجلاً يتضمن اللقب المذكور وذلك فى ذي الحجة سنة سبع وأربعمائة

(١) ١٠ : ٦ (٢) كذا ونسخة ابن خلدون (٦ : ١٥٨) مصحفة ولعل صوابه « الجنائز » (٣) كذا وانظر (٤) ٢ : ١٠٤ والبساط ٤٢

لما اجتاز موكب المعز بالقيروان سنة ٤٠٧ هـ رأى دهماء الناس مجتمعين فسأل عن سبب اجتماعهم فقالوا للعن أبي بكر وعمر (رض) فأجاب « رضى الله عنهما » . فكأن ترضيته هذه كانت أمراً للعوامّ فضربوهم حيث وجدوا اه . وقال ابن خلدون (١) ما لفظه : « وكان المعزّ منحرفاً عن مذاهب الرافضة ومنتحلاً للسُّنّة فأعلن بمذهبه لأول ولايته ولعن الرافضة ثم صار الى قتل من وجد منهم . وكبا به فرسه ذات يوم فنادى مستغيثاً باسم أبي بكر وعمر فسمعته العامة فثاروا لحينهم بالشيعة وقتلوهم أبرح قتل وقتل دُعاة الرافضة يومئذ اه . وقال ابن ناجى (٢) ماملخصه : ان المعزّ لما قسم القيروان بعد موت أبيه واستفتاح ولايته عام ٤٠٧ قتلت العامة الرافضة أقبح قتل وحرّقوهم وانتهبوا أموالهم وهدموا ديارهم وقتلوا نساءهم وصبيانهم وجرحوهم بالأرجال وكانت صيحةً من الله سلّطها عليهم وخرج الأمر من القيروان الى المهدية وسائر بلادهم فقتلوا حيث وُجدوا الى آخر ماسرده من أنواع القتال والمثلة» ثم قال وماتقدم من قولنا « خرج الأمر من القيروان الى المهدية وسائر بلادهم » خلاف ما كان يقول شيخنا أبو الفضل البرزالى أن الوقت الذى قام عليهم فيه أهل القيروان قام كل شيخ على من فى بلده كالشيخ مُحْرِز على أهل تونس من غير أن يكون اتفاق منهم على ذلك بل هي كرامة فى حق جميعهم اه يريد ان قتل أهل كل بلدة من فيها من الشيعة فى آن واحد لم يكن عن تواطؤ منهم على ذلك سابق بل هو كشف . أقول وهكذا يقول العوامّ فى ثورة الهند الشهيرة سنة ١٨٥٧ م وما أشدّ وَلَعَ المتأخرين بالمكاشفات والخوارق ومدّعى المتصوّفة فانّ سلفهم ـ والتاريخ شاهد على ما أقول ـ لم يكونوا كذلك ولانبذوا الاسباب والعِلل الكونية نَبْذَ هؤلاء الغُواة . ولم يكونوا أقل منهم رعايةً للدين ولاخشيةً لله . وأهل المغرب أولعهم بالطلّسمات والعُوَذ والرُقَى والشيوخ الكاذبين

(١) ٦ : ١٥٩ (٢) المعالم ٣ : ١٩٢

من النجدة والبأس وقوّة المراس وشدّة الشكيمة . آنفين من الضيْم والهضيمة •
نقل الدباغ [١] فى سبب قتل عروس المؤذن المتعبّد الشهيد أنه كان يؤذّن فى مسجد عباس الفقيه صاحب سحنون فشهد عليه بعض المشارقة [٢] أنه لم يقل فى أذانه « حيّ على خير العمل » فقطع لسانه [٣] وسُمل بين عينيه وطيف به القيروانَ ثم قتل بالمرضاخ . وكذلك نقل [٤] أيضاً (وأنكر ابن ناجى وجوده فى المعالم) ما وقع فى عهد أبى المعزّ قال انهم بعد فتحهم مصر والشام « بعثوا دُعاتهم إلى إفريقية يدعون الناس الى مذهبهم الفاسد ويُجبرونهم عليه فلم يُجبهم أحد الى ذلك من أهل القيروان وأنه قدم مرّة [٥] داعٍ لهم فى أيام باديس بن المنصور وأخذ الناسَ بالعُنف والغلظة . وانهم ظفروا ببعض رُسل هـذا الداعى فقتلوه اهـ • فهـذا وأمثاله أثار العوامّ عليهم . وبغّضهم لهم . إذ لم يكونوا كهمَل النَعام . ولا بهيمة الأنعام . يسير بها الراعى العُبيديّ حيث يشاء . ويسومهم خُطّة العَسف وسفك الدماء . فانتقموا منهم فى دولة المعزّ وأبيه وأصابوا الثأرَ المُنيمَ بل أسرفوا وما سَدّدوا ولا قاربوا فقتلوهم اشنع قتلة وفتكوا بهم فتكة البَرّاض ولم يُراعوا حدود الله ولا وقفوا دونها فقُتل بعضهم وانجلى آخرون الى صقلّية

المُعزّ والمشارقة (الفاطميّون)

لم يكن فى المعزّ من التآليف والملاطفة والمداهنة والمتاركة ما كان فى أسلافه فكان يجمجم بذمّهم تارة ويصرّح أخرى ويتبرّأ منهم الى العوامّ وعلماء الدين وكانوا بحيث ذكرنا ينطوون منهم على دِمْنة كامنة ودِخْلة مُزعجة فعدّوا كلّ هذا غُنما ووسيلة الى قلع غَرْسهم واستئصال شأفتهم . قال ابن الأثير [٦] مامعناه :

(١) معالم الايمان ٣ : ٢ (٢) كان أهل المغرب يدعون الفاطميين بالمشارقه لان عبيد الله الشيعى مؤسّس دعوتهم أتاهم من المشرق (٣) وفى الاصل وحمل كذا ؟
(٤) المعالم ١ : ٢٤ (٥) وفى الاصل مدة (٦) ٩ : ١٢٢

من عبد الله ووليّه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين الى الملك الأوحد ثِقة الاسلام وشرف الامام وعمدة الأنام ناصر دين الله قاهر أعداء الله مؤيّد سنّة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أبي تميم المعز بن باديس بن منصور وَلِيّ أمير المؤمنين بولاية جميع المغرب وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين . الخ

والعجب من تخليط ابن الأثير حيث قال فى موضع آخر [1] ان ذلك جرى سنة ٤٤٠ هـ فانظر فبأىّ قولَيه نأخذ وعلى أيّهما نعوِّل . وان كان هذا الأخير له شاهدٌ فى المعالم [2] ولفظه فى ترجمة محمد بن جعفر الكوفى قاضى صَبْرةَ « كان فصيحاً لَسِناً سُنّيّاً مبايناً لأهل البدع شديداً عليهم ولمّا أمر المعزّ بن باديس بلعنة عبيد الله فى الخُطَب وذلك فى يوم عيد الفطر من سنة أربعين وأربعمائة خطب هذا القاضى فقال بعد ذكر ماجرت العادة به فى خُطبة الفطر: اللهم والعن الفَسَقة الكفّار المُرائين الفُجّار أعداء الدين وأنصار الشياطين المخالفين لأمرك والناقضين لعهدك المتبعين غير سبيلك والمبدّلين لكتابك الخ . فأمر السلطان خطيب جامع القيروان أن يفعل مثل ذلك على المنبر فى الجُمَع فى كل خطبة » اهـ . أقول ولم يصرّح باسم عبيد الله أو خلفائه فليُعْلَمْ

وجملة القول أن الحاكم المتودّد له كان قد تُوُفّى وخَلَفَه المستنصر وكان أبيّ الضيم والهَضْم فتمعّر وجهه وامتضّ وتحرّق وكتب الى المعزّ يُوْعِده فأجابه المعز بمثل كتابه وأظهر انكم لم تنالوا ما نلتم من الملك الا بمعونة آبائى. وان كانت جملته هذه لم تُجانب الصوابَ لأن عبيد الله كان أتى من المشرق وكان أنصاره قبائل صِنْهاجة من البربر وهم إخوان المعزّ وعشيرته إلا أنهـا لم تخرج عن قلب عَقول ولسان شكور ونظر فى عواقب الأمور. والذى زاد ضِغْثاً على إبّاله والطينَ بَلّةً أنه

(١) الكامل ٩ : ٢٣٥ (٢) ٣ : ٢٤٣

الغاصبين هدانا الله وإياهم الى سواء الصراط . وهذه بعض كرامات سردها ابن ناجى [١] فى ترجمة أبى يوسف الدهمانى : إخباره بالمغيبات مراراً ، طيرانه فى الهواء ، إقامته مُقعَداً ، دَوَران البيت ، أمره بطرح القمح فى البحر مع أنهم لمَّا فتَّشوا عنه وجدوه وافياً لم ينقص حَبَّةً ، جعل الماء حيتاناً ، جعل الرَّمْل ذَهَباً . الى غير ذلك من الهوسات ، والدعاوى الكاذبات . عصم الله عباده عن حبائل هؤلاء الاغمار القائدي المسلمين الى البوار

ومع هذا كله وصلته من الحاكم الفاطمى فى هـذا العام الهدايا الثمينة . كأنه لو اكتفى بما فعل لم يَهِجْ كامن حقد الفاطميين ولم يُثِرْ دواعي الانتقام . والحقّ أن فتوح المعزّ المتواليـة وانتصاراته المتواترة ثبّطت من عزائم أعدائه وكفّت من غَرْبهم سواء كانوا من داخل البلاد أو خارجها فأخذوا يستعطفونه ويستميلونه ودلفوا له بالتحائف الخطيرة . فكان هذا من إحدى البواعث على انحراف طبعه وغريزته . ونبذه الفكر فى العواقب وراءه ظِهرِيًّا كما سيأتى

قال ابن خلكان [٢] وفي سنة تسع [٣] قُطع اسمه (المستنصر) واسم آبائه من الحرمين الشريفين وذُكر اسم المقتدى خليفة بغداد . فكان هذا وأمثالُه من الأمور داعياً له على أخذ الثأر منهم والاستبداد . فقطع الدعاء لهم وكان جارياً من أيام المهدىّ عبيد الله بافريقية سنة ٤٣٥ كما قال ابن الأثير ومؤرخو القيروان أو سنة ٤٤٠ هـ كما قال ابن خلدون (إلا أن إحدى سنى ابن خلكان أعنى سنة ٤٤٣ لا أجد له وجهاً) وأحرق بنود المستنصر ومحا اسمه من الطُرُر والسِكَّة ودعا للقائم ابن القادر ووافاه خِطابه وكتابُ عهدِه صحبةَ داعيته أبى الفضل الدارمىّ الوزير وسيأتى ذكره مع خِلَع سنيّة وجوائز بهيَّة وسيف مرصّع وعدّة أعلام . وهذه صورة التولية [٤] :

(١) ٣ : ٢٦٥ — ٢٧٠ (٢) ٢ : ١٠٣ (٣) وفى العبارة ما يوهم بأن يكون وقوع هذا سنة ٤١٩ هـ راجع ابن خلكان (٤) الكامل ٩ : ٢١٧

ذهاب هذا الاسطول مما أضعف المعزّ بن باديس وقوّى العربَ عليه حتى أخذوا البلاد منه اهـ » . وإني لأعجب من ابن الأثير كيف خلط بين الحادثتين قال في حوادث سنة ٤١٦ [1] أن المعزّ جهّز اسطولا الى صقليّة لاستنقاذها من أيدى الروم ولكنها غرقت بما فيها قرب جزيرة قوصرة بعد كيت وذيت .ثم قال بعده بكثير [2] وأخذ في بَدْء تاريخ مسلمي صقليّة تحت حوادث سنة ٤٨٤ هـ أن ابن الحواس (أو الجواس) صاحب صقلية لما هزم عساكر ابن الثمنة (الخارج عليه) سار هذا الى رجّار يستنجده ليملكه عليها فسار في رجب ٤٤٤ بجنوده وقبض على أكثر البلاد وهزم ابن الحواس وسار جماعة من أهل صقليّة الى المعزّ بن باديس وذكروا له ما الناس فيه بالجزيرة من الخُلف وغلبة الفرنج الى آخر قول ابن فضل الله حتى أخذوا البلاد منه حرفاً حرفاً . وهل هذا إلا تناقض شنيع وتخليط قبيح ولقد صدق من قال المِكثار مِهْزار . فكان هذا وأمثاله على ما صرّح به العُمَريّ وابن الأثير مما أضعف قوى المعزّ وجرّأ عَرَبَ مصر وشُذّاذ الخوارج عليه وهدم صرحَ مجده الرفيع ، وعِزّه المنيع . فصار خرابُ القيروان مُعْدِياً الى سائر إفريقيّة وصقليّة بل إلى المغرب بأسره

من وصايا الكندي الفيلسوف :

العاقل يظن أن فوق علمه علماً ، فهو أبداً يتواضع لتلك الزيادة والجاهل يظن أنه قد تناهى فتمقته النفوس لذلك

ومن شعره :

وعند مليكك فابغ العلوّ   وبالوحدة اليوم فاستأنس
وان الغنى في قلوب الرجال   وان التعزز بالأنفس
وكائن ترى من أخي عسرة   غني وذي ثروة مفلس

(١) الكامل ٩ : ١٤٥ (٢) ١٠ : ٨١

نام نومةَ عَبُّود ولم يجهز العُدّة أو العديد ولا استمالهم أو استقالهم . وأما المستنصر فانه استوزر الحسن البازوريّ وكان جاهلاً غُمراً ، يحمل من المعزّ بين ضلوعه غِمْراً . وكان المعزّ يخاطب الوزراء الماضين « بعبده » فكتب اليه « صنيعته » فاغتاظ واستاء ودَبَّر له مكايدَ الأسواء وقوّى عزيمة المستنصر على الايقاع به والزَحْف اليه على ما سيأتى

ضعف قوة المعزّ

قال النويرى فى نهاية الأرب (١) « سار جماعة من أهل صِقِلّيَّة الى المعز بن باديس وأعلموه بما حلّ بهم وقالوا نحب أن نكون فى طاعتك وإلا سلّمنا الجزيرة الى الروم وذلك فى سنة سبع وعشرين وأربعمائة . فوجّه المعز ولده عبد الله الى صقلّية بعسكر عدته ثلاثة آلاف فارس ومثلهم رجال فسار الى الجزيرة ووقعت بينه وبين الاكحل (أحمد صاحب صقلّيّة) حروب وحاصره فى قصره بالخالصة ثم اختلف أهل صقلية وأراد بعضهم نصرة الاكحل فقتله الذين أحضروا عبد الله بن المعز غدراً . ثم رجع بعض الصقلّيّين عن (كذا) بعض وندموا على إدخال عبد الله الى الجزيرة واجتمعوا على حربه وقاتلوه فانهزم عسكر عبد الله وقُتِل منهم نحو ثلثمائة رجل ورجعوا فى المراكب الى إفريقية اه . وقال بعده بنحو صفحتين بعد ما ذكر تغلب رجّار الإفرنجيّ صاحب مالطة على عامّة مدائن صقلية « ففارق الجزيرةَ كثير من العلماء والصالحين وسار جماعة من أهل صقلية الى المعز بن باديس وذكروا له ما الناسُ فيه بالجزيرة من الخُلْف وغلبة الفرنج على كثير منها فعمّر أسطولاً كثيراً (٢) (كذا ولعله كبيراً) وشحنه بالرجال والعُدَد وكان الزمان شتاء فساروا الى قوصرة فهاج البحر عليهم فغَرِق أكثرهم ولم ينجُ الاَّ القليل وكان

(١) مجموعة أمارى فى تواريخ صقلية ص ٤٤٥
(٢) كان فيها اربع مائة مركب على قول ابن الاثير

استدراك

على مقال « التعقية عند العرب »

ورد في مقال « التعقية » المنشور في العدد الماضي من (الزهراء) بيتٌ نقلتُه من تاج العروس للزبيدي (مادة عقّ) منسوباً للاشعر الجُعفي . وقد وقعتُ من ذلك النقل في خطأ وفي احتمال خطأ . أما الخطأ المقطوع به فهو أن اسم الشاعر ورد في ذلك الموضع من التاج « الاشعر » بالشين المعجمة وصوابه « الاسْعَر » بالسين المهملة ، وقد ورد صحيحاً في موضع آخر من التاج (مادة سعر) قال : والأسعر لقب مَرثد بن أبي حُمران الجُعفي الشاعر ، سمي بذلك لقوله :

فلا تدعُني الاقوامُ من آل مالك　　إذا أنا لم أسعر عليهم وأثقب

وكذلك ورد هذا الاسم في كتب الأئمة ، ومنهم الاصمعي في مختاراته (الاصمعيات) المطبوعة في ليبسيغ عام ١٩٠٢ م

واحتمال الخطأ وارد على البيت الذي نقلناه عن التاج هكذا :

عقوا بسهم ثم قالوا : صالحوا　　ياليتني في القوم اذ مسحوا اللحى

فانه من مقصورة الاسعر التي هي فاتحه الاصمعيات وروايته فيها :

مسحوا الحاهم ثم قالوا ثم قالوا : سالموا　　ياليتني في القوم اذ مسحوا اللحى

وأنت ترى صدر البيت على ماجاء في التاج مخالفاً لما في الاصمعيات ، ولا أستطيع أن أجزم بالصحة لاحدى الروايتين دون الاخرى الا اذا وقفت على ما يقضي بالترجيح

اللغة العربية

والمتسرعون في الانتقاد

كتب العلامة الجليل الاستاذ جبر ضومط ـ استاذ اللغة العربية في الجامعة الاميركية ببيروت وصاحب المصنفات الممتعة ـ كتاباً الى مجلة الحرية في بغداد قال فيه :

« . . . أصبح كل من ينظم بيتاً من الشعر ، أو يكتب مقالةً في الأدب والعلم ، يتصدَّى لانتقاد اللغة ، وليس له من رأس مال إلاَّ : وَرَدَ ، ولم يَرِد . . .

انتقاد اللغة يُعنَى به انتقادُ العقل البشريّ — لا عقل زيد أو عمرو — في الماضي والحال والمستقبل . والذي أراه أهلاً لأن ينتقد اللغة ، التي اسوء لحظها كثر نقادها الآن ، ينبغي ان يكون قد تخصَّص لدرس كيف يبين العقل عن نفسه في اللغة ، وينبغي أن يكون أقلَّ ما عرفه وأتقنه السنين الطوال معرفةُ الحقيقة وأنواع المجاز والاستعارات والكنايات والبديع المعنوي ، وما هي علاقتهُ — أي البديع المعنوي — بأنواع المجاز والاستعارات ، وان يعرف الفرق بين رأي سيبويهِ ويونس ، وما بين رأيهما وما يرويانه عن العرب

ان من يتصدَّى لنقد اللغة ينبغي ان يكون قد أتقن علم الفيلولوجيا (١) Phylology فضلاً عن علمي الصرف والنحو ، لا كما زعم فيهما البصريون ، بل ينبغي أن يكون واقفا على ما زعمه الكوفيون أيضا . وفوق ذلك أن يكون يعلم بداهة أو تعلّماً ، أن الضوابط والقواعد التي يضعها الصرفيون والنحاة ينبغي ان تبنى على اللغة ، وان اللغة اكبر وأعظم من ان تبنى على ضوابط وقواعد وضعها فلان أوفلان ممن وصلتنا تعليلاتهم التي بدأنا الآن نشعر بسخافتها شيئا »

---

(١) فقه اللغة

الانقروية : أحدهما من مجلة دينية وهي (سبيل الرشاد) ، والثاني من جريدة (توحيد أفكار) التي لا تزال ترى أن سياسة العداء للاسلام مضرة بالترك

قالت (توحيد افكار) : ان الاساس الذي وضعه وزير المعارف لا يمكن أن يقام عليه بناء سياسة المعارف ولا أي شيء آخر. وليس صواباً قول الوزير ان الترك كانوا مستعبَدين لثقافة العرب وحضارتهم ، فالترك لم يُرغَموا على انتحال الاسلام ارغاماً بحدّ السيف كما أرغم عليه العرب (١) والفُرس والبربر ، بل دانوا به لأنهم وجدوه ملائماً لطبعهم القومي وموافقاً لتقاليدهم التاريخية ، فهم لم يضحّوا بتقاليدهم وسجاياهم في سبيل الاسلام

وأشارت مجلة (سبيل الرشاد) الى ملائمة الاسلام لطباع الترك وقالت : ان الترك بطبعهم من أنصار الوحدة ، وأوضاعُهم قائمة على أساس الولاية العامة ، ولما وجدوا في الاسلام مثل هذه القواعد مالوا اليه. وهم بفطرتهم جنود ، ورأوا الجهاد من أركان الاسلام فدخلوا فيه . والعرب لما اهتدوا بالاسلام الى فكرة الدولة والى قاعدة الوحدة استطاعوا أن يصلوا بالاسلام الى أعماق فارس وصحاري أفريقية وحزون الاندلس . ولما نسي العرب ذلك بما عادوا اليه من عصبية القبائل ، وكان الفُرس يستعملون أقصى ما فيهم من قوى الدهاء لخنق الاسلام بالاساطير الفارسية تجديداً لسلطان الكسروية الساسانية المنقرضة ، كما كانت العقلية الانورية والبيزنطية والمصرية ينخر سوسها في فطرة الاسلام ؛ يومئذ اربدَّ في العرب نورُ تلك السجايا التي أيقظها الاسلام الحقيقي. وان السجايا التي أيقظها الاسلام في العرب ايقظ مثلها في الترك فهذبهم بمبادئه العلوية الصافية . ولا ريب

(١) ان الذين دعوا العرب الى الاسلام هم العرب أنفسهم ، فكان منهم الهداة ومنهم المهديون . ولم يكن السيف أداة الدعوة في الاسلام بل كان يحمي الدعوة من الواقفين في طريقها المعتدين على حريتها ، وقد كان ذلك في بلاد الترك فيما وراء النهر كما كان في الاقطار الأخرى

الجمهورية التركية ـ وحضارة الاسلام

عقد المعلمون والمعلمات في تركيا مؤتمراً لهم أواخر المحرم في مدينة أنقرة ، فألقى عليهم واصف بك وزير المعارف العمومية خطبة مطولة دامت اكثر من ساعة بين لهم فيها سياسة المعارف التي ينبغي للآخذين على عاتقهم مهمة تكوين النشء التركي الجديد أن يتبعوها في التربية والتعليم . ونحن نكتفي بالاشارة الى الغايات التي رمى اليها وزير المعارف التركية في خطبته لأن المجال في (الزهراء) لايتسع لايراد نصها ، والتعليق عليها . ومثل خطبة واصف بك لايضيرها التلخيص ، ولا يخل بما تضمنه من المقاصد ، لانها صريحة في بابها

قال وزير المعارف في الجمهورية التركية : ان الترك انصرفوا حتى الآن عن مشاعرهم القومية ، التي كان يجب أن تكون روحَ الثَّقافة عنـدهم ، وحياةَ شخصيتهم الاجتماعية ، واستُعبِدوا لثقافة العرب وحضارتهم

ولم يكتم الوزير غرضه من « ثقافة العرب وحضارتهم » فقال : ان الدين الاسلامي كان عقبةً في سبيل اندفاعنا نحو الحياة الجديدة ، وقد استخفّ الترك بقوميتهم وألحقوا بها الاهانة والتحقير منذ أذعنوا للتهذيب العربي الأجنبي عنهم

قال : ولما وضعت الحرب العظمى أوزارها نشبت حرب أخرى بين القومية التركية وثقافة العرب وحضارتهم ، فقوّض الترك ما في ديارهم من معالم ثقافة العرب ، وبذلك ساروا شوطاً ابتدأوه لهدم المدنية الاسلامية التي استعبدت وطنهم وحالت بينهم وبين ترقيته . وما على المعلمين والمعلمات في الجمهورية التركية الا أن يواصلوا السير في هذا الطريق الجديد لتعليم النشء الجديد ، بانين سياسة المعارف على هذا الأساس

* * *

هذا هو صوت الدولة الرسمي الذي صدر في تركيا من رئيس الى مرءوسين وضعت الأمة التركية بين أيديهم رجال المستقبل ليكوّنوهم بالشكل الذي يريدونه .

وقد سمعنا من القسطنطينية صوتين ـ غير رسميين ـ يعارضان خطة وزير المعارف

بعد أن طُبع هذا الكتاب في القسطنطينية مدة سلطنته لأن أحد غُلاة الترك قال له ان وجود هذا الكتاب في الايدي معرّة علينا لدلالته على سبق العرب الى تدوين قواعد لغتنا ، فأمر بازالته من الوجود . ثم لما نالت طريقة المستشرقين في نشر الكتب القديمة الاعجابَ والاستحسان عند الترك عادوا في مدّة الاتحاديين الى نشر مثل هذه الكتب ومنها كتاب (حِلية الانسان وحَلبة اللسان) للشريف جمال الدين احمد بن مهنّا صاحب كتاب (عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب) . وكتاب حلية الانسان هذا من أجود ما ألفه العرب في لغة الفرس والترك والمغول

قالت (توحيد افكار) : ويذكر الوزير أن حرباً نشبت بعد الحرب العظمى بين الأمة التركية وثقافة العرب التي هي دين الاسلام . ونحن قد شهدنا الزمن الذي أشار اليه الوزير ولم يكن لنا علم بهذه الحرب ، والذي علمناه أن الحرب كانت قائمة بين ارادة الأمة التركية وبين مطامع السلطنة ، فتغلبت الاولى على الأخرى . وكان هذا القيام حقاً من حقوق الأمة فتمخَّض عن الحكم الجمهوريّ

* * *

وبعد فهذه هي المرامي التي رمى اليها وزير المعارف الانقروية في مؤتمر علمي عُقد في عاصمة الجمهورية ، مرشداً المعلمين والمعلمات — وكلاهما كانا من سامعي خطبته — الى سياسة التعليم التي يراد السير عليها في تلك الديار

وقد نُشرت خطبة الوزير في صحف أنقرة يوم القائها ، وطيَّرت شركة برقيات الانضول ـ لسان حال الحكومة ـ خلاصتها الى أنحاء المملكة ، فأقرتها الحكومة بسكوتها عليها ، وقابلها الحزب الاسلامي بالمقالين اللذين أشرنا إليهما . وان الخطبة والمقالين مرآة صادقة لموقف تركيا اليوم تجاه العرب والاسلام

أن ما ظهر في الترك من فضائل انما هو أثر من آثار الاسلام . فسقوط الترك وانحلالهم لم يكن ناشئاً عن دخولهم في الاسلام بل عن ابتعادهم عنه

وقالت (توحيد أفكار) : ان ثقافة العرب وحضارتهم قد حفظت للترك قوميتهم ، بدليل أن الأمم التي ترجع الى أصل تركي لم يبق منها محتفظاً بقوميته الا الشعوب التي دخلت في الاسلام ، أما الشعوب التركية الأخرى فقد ذابت في الأمم التي دخلت في دياناتها

قال كوبريلي زاده فؤاد بك في تاريخ تركيا (١ : ١٥) : ورد في الاحصاءات الروسية أن ٥٢ر٨٩ في المائة من الترك في روسيا مسلمون و ٠٥/١٠ نصارى ارثوذكس وسائر الترك وثنيون من أهل المذهب الشاماني ، وهو دين الجاهلية التركية . وفي الانضول فئة من الترك انتحلت الارثوذكسية فانسلخت عن التركية بدعاية اليونان ، كما انسلخ عنها نصارى الترك ووثنيوهم في روسيا بدعاية الروس

ثم قالت (توحيد أفكار) : هذا من جهة الجنسية التركية مدة اتصالها بالاسلام ، وأما من جهة اللغة فان الترك كانوا – حتى في الوسط الذي يغلب فيه سلطان العربية – محافظين على لغتهم يتكلمون بها مع معرفتهم العربية والفارسية ، بل ان بعض الترك كان يفتخر بجهله هاتين اللغتين . ذلك بأن الاسلام جاء مخففاً من حدّة العصبية القومية فكان من دواعي البقاء للغة الترك وقوميتهم

قلتُ : ولو أنصف القوم لذكروا للعرب فضلهم على اللغة التركية بما سبقوا اليه غيرهم من وضع القواعد لها وتأليف الكتب في صرفها ونحوها . ولكن الذي نعلمه أن ذلك صعبٌ على نفوس كثيرين منهم ، حتى أن السلطان عبد الحميد أمر بجمع كتاب (الادراك الى لسان الاتراك) الذي ألّفه أبو حيان الاندلسي

كان باهر الادب : يشير عليك موهما أنه يستشيرك ، ويدلك على الرأى وكأنه يستدلُّ بك عليه ، ويريك مَقطعَ الحقّ ويدع لك أن تقطع من دونه ، ولو رأيتَه وقد مَثَل بين يديه مستفيد لحسبته بين يدى المستفيد ماثلا ، أو سمعته وهو يجيب مسئولا لحسبته سائلا

كان أملَكَ ما يكون لنفسه إذا رضى ، ولحلمه إذا غضب ، ولجِدّه إذا لعب ، ولوقاره إذا طرب

كان طويلَ الصمت كأن بلسانه عِوَجا ، فاذا نطق استقام على نهجٍ من البيان تتراءى فيه حِكَم تأخذ المرء قبل أن يأخذها

كان قليلا ما يكتب ، ولقد مضى عن كتاب فكان الكتاب من يدك إلى عقلك إلى روحك كالوردة الناضرة تراها نسيجاً فى أناملك حريرُه ، ثم تعرفها طِيباً فى أنفك عَبيرُه ، ثم تدركها شِعراً في نفسك وحُيه وتعبيرُه

كذلك كان صاحبى ، ولبعض تلك الخلال يُكبِرُ الرجلُ الرجلَ ، وقد ضرب الدهر بيننا ، فمضى وبقيتُ ، وقد :

صَفِرتْ كفى منه ومضى وقد امتلأتْ مني يدُهُ

محمد صادق عنبر

﴿ في يوم ذي قار ﴾

في أمالي القالي (١ : ١٧١) عن أبي عبيدة قال :

قال هانيء بن قَبِيصة الشَّيباني لقومه يومَ ذي قار وهو يحرّضُهم : « يامعشرَ بكر ! هالكٌ معذور ، خيرٌ من ناجٍ فَرُور . ان الحَذَر ، لاينجي من القدَر . وإن الصبر من أسباب الظفر . المنية ، ولا الدنية . استقبال الموت خيرٌ من استدباره . الطعن في ثُغَر النحور ، أكرم منه في الاعجاز والظهور . يا آل بكر قاتلوا ، فما للمنايا من بُدّ . . .

ذكرى صديق راحل

إني مخبركم عن صاحب لى ملأتُ منه يدى ، وطويتُ على حُبه نفسى ، وجعلته ضِنى من بين صحبى ، « وكان رأس ما أكبرَه في عيني صِغَرُ الدنيا في عينه »

كان بصيرا بورد الأمور وصدرها : يعرف من مَطلع كل أمر ما يكون مَقطعه ، وتقوم أدنى فراسة منه مقام البيّنة ، ويصيب بالظن ما يخطىء غيرُه بالعيان

كان أكتمَ ما يكون للسرّ اذا باحتِ الألسنةُ من الأسرار بمصونها ، وانفرجت صدور الثقات من مكنونها

كان أبيًّا : لو خُطبتْ له إمارةٌ على أن يكون مَهرَها ذُلُّ ساعة ، لآثر أن يُزفَّ الى قبره (١) ، على أن تُزَف اليه الامارة

كان صُلْب العود على النُّوَب : إذا رماه الدهر بخَطْب يبلوه ، بُلِيَ منه الخطبُ بالنفس المرَّة ، والخُلُقِ الوَعر ، والصدر الذي تضلُّ في ساحة صبره كل نائبة

كان متورّعا : لايقوم مَقاماً يقع عليه ظِلُّ رِيبة ، ولا يقفُ موقفا تسحب فيه ذيلَها شبهة ، ولا يقول قولةً أو ينظرُ نظرة تعقبها ظنّة

كان كريماً جَمَّ الايثار : يطوِى بطنه عن جاره ، ولا يملك من ماله أكثرَ مما يملك منه اخوانه

كان يقنع بالقليل : فما أكل فبلغ الشبع ، ولا شرب الا دون الرّى ، ولا لبس مُنَمنما ولا مُعْلَما ، وكان فيه عِزَّة الملك وعليه سِمات الزاهدين

كان فتيًّا : ولكن همَّته كانت ترمى به وراء سِنِّه ، وهو يرمى بهمته حيث أشار اليه السؤدد

---

(١) زف الرجل يزف (بكسر الزاي) : اسرع فى سيره

فيهم « ويعبدونَ من دُون الله ما لا يضُرُّهم ولا ينفعُهم ويقولون هؤلاء شُفَعاؤُنا عندَ الله »

ومنهم طائفة تعبُد الأصنام وتُقسم بها ويزعُمون أنها هي الضارّة النافعة ، كما ذكر الله عزّ وجلّ في قصة ابراهيم عليه السلام وقومه

فالطائفة الأولى تُقسِم بالله تعالى ، والقَسَمُ به عندهم أعظم الأَيمان . ولذلك قال النابغةُ :

حلفتُ فلم أتركْ لنفسِك ريبةً   وليس وراءَ الله للمرء مذهبُ (١)

وأخبر اللهُ تعالى فيهم بذلك فقال « وأقسَموا بالله جَهْدَ أَيمانهم »

ويقولون « والله » فانها تملأُ الفم ، وترقيُ الدم . أي تبريُ الظنين بالدم من الدم ، فيرقأ دمه أي يسكن محقوناً في مسكه فلا يراق

ومنه قولهم « لا تسبُّوا الابل فان فيها رُقُوءَ الدم (٢) » أي انها تعقل في الديات فترقأ بها الدماء المحقونة بالاراقة

ومنه قولهم « لا رقأت [عَبْرتُه (٣)] » أي لا هدأت

وبعضهم يقول « وتقطع الدم » أي يبرأ بها الرجل من الدم فيرقأ دمه

(١) يخاطب النعمان بن المنذر في قصيدة بعث بها اليه من الشام مدة اقامته في ضيافة ملوك غسان ، يتنصل مما رمي به عنده ، ويعتذر من مدحه لآل غسان ، ومطلعها :

أتاني – أبيت اللعن – أنك لمتني   وتلك التي أهتم منها وأنصب

(٢) تنسب هذه الكلمة الى أكثم بن صيفي أحد حكماء العرب وخطبائها وحكامها وهو صحابي أو تابعي . ونسبت الى قيس بن عاصم المنقري الحكيم الصحابي رضي الله عنه في وصية كتب بها الى طيء وهي « لا تسبوا الابل ، فانها رقوء الدم ، ومهر الكريمة ، وبألبانها يتحف الكبير ويغذى الصغير ، ولو ان الابل كلفت الطحن لطحنته » نقله الزبيدي في التاج عن شروح الفصيح . وقال المفضل الضبي :

من اللائي يزدن العيش طيباً   وترقأ في معاقلها الدماء

ووردت الكلمة في أكثر كتب اللغة والادب

(٣) الزيادة من التيمورية

أيمان العرب في الجاهلية

صِناعةُ أبي إسحاقَ إبراهيمَ بن عبدِ الله النجيرَميّ الكاتب رحمه الله تعالى

من رجال اللغة والادب في دولة كافور الاخشيدي في مصر

نقلاً عن نسخة الخزانة التيمورية (٣٦٢ لغة) ونسخة دار الكتب المصرية (٢٣٤ مجاميع)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو أسحاقَ ابراهيمُ بنُ عبدِ الله النَّجيرَمي الكاتبُ :

كانت العرب في الجاهلية على مذاهبَ : فكان معظمهم ممن يدين اللهَ(١) (تعالى ذكرُه) ، ويتمسَّك بإرثٍ من ملَّة ابراهيم (صلى الله عليه وسلم) ، ويحجُّ ويتألَّه ويعظِّم الحرَم ، والأشهر الحرُم ، ويضع فيها أوزارَ الحرب ، وان ظفِر بعدوِّه فيها لم يمسسْه بسوء

وكانوا في ذلك أخيافاً(٢) : فكان منهم مَن يستحلُّ في الحرَم المُحَلَّ والمُحَرَّم ، ومنهم من يُحْرِم عن المُحَلّ والمحرَّم ، ومنهم من يُحِلُّ عن المحرَّم ويحرم عن المحَلِّ

قال أبو اسحاقَ : وكان عمرو بن كلثوم التغلبي من المحلِّين

قال : وفي كل العرب خصائص تفعل هذا ماخلا طَيِّئاً وخَثْعَمَ ، فانهم كانوا لا يحرمون عن مُحَلّ ولا محرَّم

ومنها طائفة تعبد الأصنام وتزعم أنها تقرِّبهم الى الله عزَّ وجلَّ ، كما ذكر الله عزَّ وجلَّ في قوله « ما نعبدُهم إلاَّ ليُقرِّبُونا إلى الله زُلْفَى » وكما قال أيضاً

---

(١) في النسخة التيمورية « معظمهم من يدين »

(٢) الخيف (بالتحريك) : ان تكون احدى العينين زرقاء والاخرى كحلاء . ثم قيل : اخوة أخياف لبني الام الواحدة اذا اختلفت آباؤهم ، ثم قيل للمختلفين في أي أمر من الامور : هم أخياف ، ومنه هذا الذي نحن بصدده . الواحد أخيف والانثى خيفاء

من شجر ، أو جبل ، أو حائط ، أو غير ذلك [(١)]

ومنها أيضاً « لا والذي لا يُتَّقَى بوجاح » أي لا يستتر منه وجاح فيتقى به . والوجاح كل ما حال بينك وبين شيء من ستر أو ثوب أو حائط أو غير ذلك . ومنه « ثوب موجَّح » أي صفيق جداً

ومنها أيضاً « لا والذي لا أتقيه إلا بمقتلِه [(٢)] » أي كيف رمت أن أتقيه فهناك المقتل

ومنها « لا والذي أخرج العَـذق من الجَريمة ، والنار من الوَثيمة [(٣)] » العَذق النخلة والجريمة التمرة المجرومة أي المصرومة وأراد النواة ، [[(٤)] والوثيمة فلقة أي قطعة من حجر تثمه أي تكسره من قولك وثم يثم وثماً أي كسر . ومنه قول عنترة : تَطِسُ الإِكامَ بوقع خُفٍّ مِيثَمِ [(٥)]

---

(١) ومنه سميت الاجمة ذات الشجر المتكاثف غابة لانها تغيب ما فيها

(٢) في التيمورية « بمقلته » ، وفي نسخة دار الكتب المصرية « بمقتله » وكذلك في المزهر (٢ : ١٦٨) عن كتاب المثنى لابن السكيت وفي المخصص (١٣ : ١١٨) . وأورد القالي (٣ : ٥١) روايتين احداهما « بمقتله » أي كل شيء مني مقتل من حيث شاء قتلني ، وهي رواية ابن الاعرابي في النوادر . والاخرى « لا والذي لا اتقيه الا بمقلتة » من القلت وهو الموت أي الموت في عنقي فكل شيء حتف

(٣) ورد في النهاية لابن الاثير (عذق ووثم) وفي تاج العروس في المادتين ونقل القالي في أماليه (١ : ١٠٢) وصاحب لسان العرب (وثم) والزبيدي في التاج عن محمد بن السائب الكلبي ان الاوس بن حارثة عاش دهراً وليس له ولد الامالك ، وكان لاخيه الخزرج بن حارثة خمسة اولاد ـ عمرو وعوف وجشم والحارث وكعب ـ فلما حضره الموت قال له قومه :

— قد كنا نأمرك بالتزويج في شبابك ، فلم تزوج حتى حضرك الموت ...

فقال الاوس : ـ لم يهلك هالك ، ترك مثل مالك . وان كان الخزرج ذا عدد ، وليس لمالك ولد ؛ فلعل الذي استخرج العذق من الجريمة ، والنار من الوثيمة ؛ أن يجعل لمالك نسلا ، ورجالا بسلا ... الخ

(٤) النسخة التيمورية ناقصة من هذا الموضع الى موضع الاشارة في ص١٠٩

(٥) هو من المعلقة ، وصدره :

« خطارة غبّ السرى زيافة »

ويروى « بذات خف » والوطس: الضرب الشديد . وخف ميثم : أي شديد الوطء

وقد قيل : ان القوم اذا اصطلحوا بعد حرب وتحالفوا بالله الأجلّ رقأت دماؤهم أي هدأت

ومن أيمانهم « لا والذي يراني من فوق سبعة أرقعة » أي من فوق سبع سماوات . ثم خصوا السماء الدنيا بهذا الاسم . والرقيع مذكر . وقيل يسمى رقيعاً لأنه رقع بالنجوم . وتقول العرب « لا أفعل ذاك ولو نزوتُ في الرقيع » كقولهم « ولو نزوت في اللوح » و « لا نزوت في الشكالة » . وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لسعد [بن مُعاذ لما حكم في بني قُريظة « لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة] [١] أرقعة»

ومن أيمان هؤلاء « لا والذي شقّ الرجالَ للخيل ، والجبالَ للسيل [٢] » . والمعنى : لا والذي خلق الرجال على هذه الخلقة . هذا معنى « شق » هاهنا . وهو كتسميتهم خروق البدن شقوقاً

وعلى هذا المذهب انما قولهم « لا والذي شقهنّ خمساً من واحدة [٢] » يعني أصابع يده إذا حلف فرفع يده وفرّق أصابعه

ومن أيمان هؤلاء أيضاً « لا والذي وجهي زَمَم بيته [٢] » أي نحو بيته ومواجه بيته . ويقال « مُرَّ بهن على زمم طريقك » كأنه مزموم نحوه

ومنها أيضاً « لا والذي لا يواريني منه خَمَر » . فالخمر ما واراك من شجر . المعنى : لا يواريني منه شيء . وانما ذكر الخمر لأن من شأنهم التواري في الخمر

ومثله « لا والذي لا يواريني منه غيب » والغيب كل ما واراك من شيء :

(١) الزيادة من نسخة دار الكتب المصرية . وورد الحديث في النهاية لابن الاثير (مادة رقع)

(٢) ورد في المزهر (٢ : ١٦٨ الطبعة الثانية) عن كتاب المثنى لابن السكيت وفي ذيل الامالي والنوادر لابي علي القالي (ص ٥١) وفى المخصص (١٣ : ١١٨)

وبعضهم يقول « لا ومُقَطِّع القَطر [1] » لأنه ينزل [2]

« لا ومميت الرياح [3] » لأنهم يقولون باماتة الريح

« لا ومُجري البحر »

« لا ومنشيء السحاب »

« لا والذي دَحَى الأرض » أي مدّها وبسطها

« لا ومميت الرياح [4] » لانهم يقولون ماتت الريح اذا سكنت. قال الراجز :

إني لأرجو أن تموتَ الريحُ
فأقعـد اليوم وأسـتريحُ

« لا والذي سجد له النجم والشجر » النجم من النبات ما نَجَمَ منه وانفرش على وجه الارض ولم يرتفع عنها بساق

« لا والذي حجت له العمائر » جمع عمارة وهي الحيّ الـكبير

« لاوالذي ذابت له الشعور »

« لا وفاطر الأشباح » يريد جمع شَبَح وهو الشخص

« لا والذي يرصـدني أنى سلـكت » من قوله عزّ وجل « إن ربكَ لبالمِرْصاد »

« لا وربّ الشمس والقمر »] [5]

« لا وربّ البيت والحَجَر [6] »

(١) في أمالي القالي (٣ : ٥١) . وفي المخصص (١٣ : ١١٨) القطرة

(٢) أظن هنا كلمة أو كلمات سقطت من الاصل

(٣) في المزهر عن ابن السكيت

(٤) ورد في الاصل هكذا مرة ثانية ، وقد تقدم آنفا

(٥) آخر الناقص من نسخة الخزانة التيمورية أوله في ص ١٠٧

(٦) البيت : الـكعبة ، بيت الله الحرام . والحجر : الحجر الاسود في الركن الشرقي من أركان الـكعبة

يصف خف ناقته أي مدق مكسرها

ومنها أيضاً « لا والذي فلق الحبَّة ، وبرأ النَّسمة [١] » فلق الحبة أي شقها في الارض حتى تنبت ، ثم أثمرت فكان منها حبٌ كثير. وكل شيء شققته باثنين فقد فلقته . قال : والنسمة كل نفس ذات نفَس فهي نسمة . وسميت نسمة لتنسمها الهواء

ومنها أيضاً « لا والذي سَمَكَ السماء »

ومنها أيضاً « لا والذي يراني من حيث ما نظر [٢] »

ومنها أيضاً « لا وفالق الاَصباح [٣] ، وباعث الارواح » يريد جمع روح

« لا ومُجري الرياح »

و « لا [و] مجري الالاهة » وبعضهم يقول « الاهة » يجعلها معرفة علماً وهي اسم الشمس التي تعبدها [٤] ولذلك سموا (عبد شمس) و (عبد الشارق) كما سموا (عبد الله) و (عبد الرحمن)

ومنها أيضاً « لا يأتمر له جُدولي » . قال : الجدول الأعضاء واحدها جَدِل ومعنى هذا : ان أعضائي كلها جند لله تعالى عليّ

ومنها أيضاً « لا ومُنزل القَطر »

---

(١) أورده الراغب في محاضرات الادباء (١ : ٣٠٠ الطبعة الاولى) وابن الاثير في النهاية (نسم وفلق) وقالا : كان من حلف أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه

(٢) نسخة دار الكتب المصرية « ما نظرت » وصححته من أمالي القالي (٢ : ٥٢) ومما جاء في المزهر (٢ : ١٦٨) عن ابن السكيت في كتاب المثنى ومن المخصص (١٣ : ١١٨)

(٣) في امالي القالي وفي المزهر والمخصص

(٤) في تاج العروس : والالاهة الشمس غير مصروف بلا الف ولا لام وربما صرفوا وأدخلوا فيه الالف واللام وقالوا الالاهة . قال الجوهري وأنشد أبو علي :

فأعجلنا الالاهة أن تؤوبا

أي ينقصه الرحل شيئاً بعد شيء ، فكأنه له بمنزلة القوت حتى يأتي عليه

قال : وبعضهم يقول « لا وقائت نَفَسي القصيرِ[١] » يريد قصر العمر

ومنها قولهم « يمين الله لقد كان كذا » و « أيمن الله » قال نُصيب :

وقال فريق أيمن الله ما ندري

و « أيم الله . . » و « أيم الله . . » و« م الله لقد كان ذاك ». وقال يونس النحوي : أهل اليمامة يقولون « أمُ الله » وقال آخرون« أيمُن الله ، وأيمُن الكعبة » كأنه جمع يمين

ومنها « عمرك الله هل ذاك ؟ » والمعنى عمرتك الله، أي سألت الله تعميرك ، وهو معنى قول العامة « بالذي يعمرك » . قال ابن الاعرابي عمرُك الله بالرفع ، والنصب الوجه ، وعليه رواة أهل العربية . وقال آخرون « عمر الله »

ومنها أيضاً «قعِدَك الله » و« قَعِيدَك الله[٢] » وقالوا أيضاً « قعدك لاأفعل ذاك » و « قعيدك . . . » قال متمم بن نُوَيرة :

قعيدَكِ أن لا تسمعيني مَلامةً   فلا تنكإي قَرح الفؤاد فييجعا

ومعناها أخصب الله بلادك حتى تكون مقيما فيها قاعداً غير منتجع

ومنها « لا ورافعها بغير عمد ، لا وسامكها ، لاوباسطها ـ يعني الارض ـ لا وماهدها ، وداحيها » يعني الارض

« لا والذي أمدّ اليه بيد قصيرة[٣] »أي بسعي قصير ومنه « اليد العليا خير من اليد السفلى »

---

(١) كذا في الموضعين من أمالي القالي والمزهر وفى المخصص (١٣ : ١١٨) . قال القالي : القائت من القوت يعطيه قليلا قليلا . وفى تاج العروس (قات) « لاوقائت نفسي البصير » وفى النسخة التيمورية : لاوقابتي نفسي القصير . وفي نسخة دار الكتب المصرية : لاولايتي نفسي القصير (٢) المزهر (٢ : ١٦٨) عن ديوان الادب للفارابي والمخصص (١٣ : ١١٧) عن أبي عبيد (٣) القالي (٣ : ٥٢) والمزهر والمخصص

« لا والذي أخرج الماء من الحجر ، والنار من الشجر »

« لا ورازق الأنام »

« لا ورب النور والظلام »

« لا ورب الحلّ والحرام » قال مُهلهِل :

قتلوا كُليباً ثم قالوا ألا اربعوا كذبوا ورب الحِلِّ والاحرام

« لا والذي أمْنَه من كل أوب » أمنه يعني الابل ، أضمرها ولم يجر له ذِكر ، وهذا على عادتهم في مثله . من كل أوب أي من كل مسلك ومن كل طريق يأوب منه الآيبون

« لا والراقصات ببطن مَرّ [1] » يعني الراقصات بركبانهنّ

« لا والذي رقصن ببطحائه [2] » رقص وأرقص لغتان . والابطح والبطحاء ما انبطح واتسع من بطن الوادي وهو خير

« لا والراقصات ببطن جَمْع [3] »

لا والذي نادى الحجيج له [2]

« لا وقائتي نفسي [4] » أي الذي جعل نفسي قُوتاً لمدة حياتي. قال : ويقتاته يذهب به شيئاً بعد شيء ، كما قال طفيل :

يقتاتُ فضلَ سَنامها الرَّحْلُ

(١) بطن مر : من نواحي مكة على ليلتين منها ، قال ياقوت : فيه عيون كثيرة ونخل وجيز ، ويقال له (مر الظهران) وفيه يجتمع واديا نخلة الشامية من منازل هذيل فيصيران واديا واحداً

(٢) أورده القالي (٣ : ٥٢) والسيوطي في المزهر (٢ : ١٦٨) عن ابن السكيت ، وابن سيده في المخصص (١٣ : ١١٨)

(٣) جمع : هي المزدلفة ـ بين عرفات ومنى ـ يجتمع الناس فيها ليلة الافاضة من عرفات ، ثم يستأنفون السير الى منى في الصباح . وقد ورد هذا اليمين في أمالي القالي والمزهر والمخصص

(٤) في أمالي القالي وفي المزهر عن ابن السكيت وكذلك في المخصص (١٣ : ١١٨) « لا والذي يقوتني نفسي » وفي تاج العروس (قات) : لاوقائت نفسي

تحتسي من مراشف العلم خمراً وبشعر كلفظها تتغنى
هاك يا هذه حشاي كِناساً وفؤادي لسيف لحظيك جَفنا
لا تلمها على دلال وغنج أوَ تجني العُلى ولا تتجنى

***

أنا أبغي الزواج ، لاذات حسن تفضح البدر وهي أصغر سنا
انما اطلب الجمال مزيناً بكمالٍ والحسنَ زِين بحسنى
فالشقيُّ الشقي إن قارنته ذات علم كان السعيدَ المُهنا
والسعيد السعيد إن قارنته ذات جهل كان الشقي المعنَّى

***

انما الأمهات دار فنونٍ بين افنائها بناتٌ وابنا
فاذا أسهلت ترى العيش سهلاً واذا أحزنت ترى العيش حزنا
ليس من مذهبي السفور ولا أن تهجر العلمَ أو ترى الجهل خدنا
فحجاب وعفة وكمالٌ وجمال في مذهبي الحقّ سنّا
رب قول إن التعلم للمرأ ة ذات الحجاب لا يتسنى
وهو ـ لو أنصف المحكّمُ ـ زورٌ ضل شاذٍ بلفظه يتغنى
ما عليها أن تدرس العلم عمّن درست مثلها وتحجب عنا
حيّ عني مغانياً سحبت فيـ ـها ذيل العفاف مغنى فمغنى
وخدوراً تُجنّ منها وجوهاً خفق الصون فوقها فاطمأنا

***

قل لذات السفور لانحن منها ما تراءت لنا ولا هي منا
انما نحن للحجاب رجالٌ ان حيينا يحيي وان نفنَ يفنى
أنا ياربة الحجاب أسيرٌ لك إن تُحجبي عفافاً وصونا
لا تقولي مهضومة أو دعوني من حَضيض الاسار والذل سجنا
لستِ والخدر ضمّ شخصك إلا جوهراً في خزائن الفضل كُنّا

(جبل عامل) (الحوماني)

« لا والذي نادى الحجيج [له] »(١) أي من أجله ، أي دعوه

« لا والذي كل الشعوب تدين له » ويقال أيضاً تدينه (٢)

« لا والذي يراني ولا أراه » (٣)

أبو زيد : قال العقيليون « حرام الله » كقولهم يمين الله (٣)

أو تجني العلى ولا تتجنى

علموها الفنون فناً ففنا   هي أولى بالعلم منكم ومنا
لا اختيالا في مرقص اللهو تمشي   وبكفي قرينها تتثنى
خلقت زهرة لنا ، ليس إلا   من رياض العفاف والصون تجنى

* * *

يا ذوات السوار إرحمن صبًّا   بهواه أنَّى توجه أنَّا
كلما عنَّ منكِ سربٌ أتاه   ناشداً لبه فعاد معنى
دعن جر الذيول واسحبن للعلم   على أشرف الكواكب ردنا
حسبُ الحافظك أحوارٌ وغنجٌ   قد فتنتِ بها الغزالَ الاغنَّا
فاكحُليها بالسهد تجني ثماراً   ليس تجنى الا اذا الليل جنا
انما العز بارتياد مجالي   صحف هن للفضائل مجنى
فانسجي بالعلوم برد سعود   تُلبسيه من الشقاء مجنًّا
فاذا شف عن كمال جمالٌ   فيك فهو الجمال لفظاً ومعنى
واذا الحسن ذانه حسنُ خلقٍ   وطباعٍ فقد تضمن حسنا

* * *

يا بنفسي فريدة لم يخامر   مقلتيها الكرى فتغمض جفنا

(١) تقدم (٢) والثانية رواية وردت في أمالي القالي والمزهر والمخصص
(٣) المزهر والقالي والمخصص

واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط لم يكونوا يهوداً ولا نصارى لانهم كانوا قبل نزول التوراة والانجيل ، وانما جاء ابراهيم بالحنيفية التي كان يدين بها الموحدون من العرب ولاسيما في الحجاز . وليس في كلام القاضي البيضاوي ما فهمه الكاتب

وقال : ان الطوفان كان خاصاً بما بين النهرين ، وابناء نوح هم بعض البشر ، فالتورانيون كالآريين هم فريق آخر غير الساميين أبناء نوح

ثم قال : وآباء ابراهيم لا تشابه اسماؤهم الأسماء السامية ، فاسم (تارح) محرّف عن (تاراج) بالجيم ! وهو احد أجداد التركمان . واسم (عدنان) من سلالة اسماعيل اصله (سادنان) وهو اسم أحد التركمان الاقدمين . و (آذر) الذي سمي به ابو ابراهيم في القرآن هو اسم تركي بمعنى العالي ومنه (آذربيجان) المؤلفة من كلمة آذر بمعنى الاكمة العالية وبيكان بمعنى العظماء

وقال : واسم (ابرام) الذي كان يسمى به (ابراهيم) من مصدر (بارمق) ومنه (بارسام) ويحرّفونها بلفظ (بارام) ومن عادة الترك ان يزيدوا الفاً على أول بعض الكلمات كما فعلوا باسم شهر رجب فقالوا (ارجب) وكذلك قالوا في بارام (ابرام)

أما سبب هجرة تارح الى حران فاما لانها العاصمة الثانية لعبادة القمر وكان الترك يتخذونه الها ، أو لانها من مدائن الحثيين الذين كانوا من الجنس التركي ، والرعاة (الهيكسوس) الذين حكموا مصر هم أيضا من الترك منضماً اليهم أقوام آخرون ، فهجرة تاراح الى حران انما دعاه اليها مجاورة بني قومه ودينه

وصفوة مقاله ان ابراهيم ليس من الساميين . ولا يمكن القول بأنه من الآريين ، لان الفرس كانوا في الجانب الشرقي من أرض العيلاميين والكوشيين الذين انقرضوا قبل ذلك بكثير ، فأحفاد ابراهيم اذن من الامم التورانية . . .

* * *

ولما أرسل اسماعيل حقي بك صوته يستنجد المشتغلين بالابحاث التورانية من من بني قومه أجابه يوسف ضيا بك الاستاذ في جامعة القسطنطينية ، فكتب في

ابراهيم عليه السلام تركي !

كتبت هذه المقالة للعدد الماضي من (الزهراء) باسهاب ، فضاق نطاقه عنها . وقد اكتفيت بتلخيصها في هذا العدد

نشرت صحيفة (توحيد افكار) التركية الاسلامية مقالتين في باب «التحقيقات العلمية والقومية» عنوانهما «ابراهيم عليه السلام تركي» بقلم اسماعيل حقي بك ـ وهو امير ألاى من اركان الحرب ـ قال فيهما انه ما برح منذ سبعة اشهر يبحث ويحقق في جنسية سيدنا ابراهيم الخليل حتى توصل الى القول بانه من اصل تركي . واستنجد المشتغلين بتاريخ القومية التركية من افاضل القوم ـ وسماهم باسمائهم واحداً واحداً ـ ليساعدوه في اتمام هذا البحث وفي تحصيل البراهين الايجابية على صحته حتى يصبح حقاً لامرية فيه

وهذه براهين اسماعيل حقي بك على تركيّة أبينا ابراهيم :

ان ابراهيم ولد فى (أور) وهي من بلاد السومريين وهم من أصل تركي (١) ومعنى «أور» القلعة والخندق ومنها (أورخان) بمعنى أمير القلعة

جاء في القرآن الحكيم «أم تقولون إن ابراهيم واسماعيلَ واسحاقَ ويعقوبَ والاسباطَ كانوا هُوداً أو نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله» وهي تنفي انتساب اليهود الى ابراهيم من جهة القومية . وقد علم اسماعيل حقي بك ان البيضاوى فسر الآية بمعنى القومية العبرانية لا بمعنى الدين اليهودي . وما دام ابراهيم ليس من قوم اليهود الذين هم ساميون فهذا دليل على انه تركي

قلت : هذه الآية هي الآية ١٤٠ من سورة البقرة وهي تدل على ان ابراهيم

---

(١) كون السومريين أو الاكاديين من أصل توراني قضية اختلف فيها العلماء . قال السيد يوسف داود مطران دمشق على السريان في هامش مقدمة كتابه (اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية) المطبوع في الموصل : قام من بين علماء أوربا أنفسهم من فند هذا المذهب ... ومن جملتهم رينان الشهير بالعلوم السامية حيث ضحك على زعمهم ... الخ

أمير ومن يدخل على الملك بلا استئذان . وفي جهات بخارى وسمرقند الآن قبيلة (تارخان) وكانت عماد تيمورلنك في غزواته . و (تارغان) في تاريخ مصر القديم بمعنى الرئيس والامير ، وفي تاريخ الاثوريين بمعنى قائد الجيش ، فهي مأخوذة من لغة السومريين

فاذا كان ابراهيم من بلدة (اور) السومرية وجده الاعلى (ئه به ر) وجده الادنى (ساروغ) واسم ابيه (تارخ) وهو نفسه غير ساميّ فنتيجة ذلك ظاهرة

كان المصريون يسمون سوريا قبل الكنعانيين باسم خارو ، والبلاد الممتدة من مديا وئه لام (يريد عيلام) تلفظ القاف خاء وكان أحد ملوك ئه لام (عيلام) يدعى (خارا خارداش) أي قره قرداش . وعلى ذلك فلفظ خارو أو قارو معناه بلاد القاريين وهم من الترك وكانوا في جنوب ازمير وفي فلسطين وجبال الكرد

ومن القبائل الكنعانية الآمو والشاسو والاموريون (العموريون) والقرغز والقازاق[1] والاروادبين وغيرهم . ان هذه القبائل كلها تورانية . وجميع بلاد الشام كان يسكنها التورانيون الذين يسمون كنعانيين . وجميع الاماكن في سورية وفلسطين ولبنان مسماة باسماء تركية . وقد توقف ابراهيم في طريقه عند (قيريات أربا) ومعناها الشعير القصير ، وأقام بعد ذلك في بتيل وآي[2]

ذابت هذه الامم التركية بعد ذلك في الامم السامية لانها كانت بين امبراطوريات مصر وبابل وآثور وخطاي التي كانت تتطاحن ، وكانت الاقوام التورانية نفسها أيضا في نزاع مستمر فيما بينها

* * *

هذا وقد كتب غير هذين الكاتبين في هذا الموضوع ، وكان في مقالة

(١) لعلّ الكاتب التركي حرّف اسماء (القينيين) و (القنزّيين) و (القدمونيين) المذكورين في التوراة (تكوين ١٥ : ١٩)

(٢) هما بيت ايل وعاي ، وقد حرفهما الكاتب التركي لان آي بالتركية معناها القمر

(توحيد أفكار) مقالاً استدل فيه على تركية أبينا ابراهيم ببراهين أخرى

فابتدأ براهينه بتحريف اسم (عابر) جد ابراهيم فجعله « ئه به ر » وقال ليس بين الاقوام السامية قوم بهذا الاسم ، ولا بد ان يكون « ئه به ر » هو جد الشعب التوراني الذي يدعى (ايبر)

ثم عمد الى اسم (سروج) من أجداد ابراهيم فجعله « سه روغ » وقال ان هذه اللفظة غير سامية وهي اسم طير اتخذه أحد الشعوب التورانية عنواناً له

ونقل بعد ذلك عن كتاب في الفينيقيين للمسيو اوتران أنهم ليسوا ساميين ولا آريين ، وان اسم ابراهيم أيضاً ليس سامياً ولعل أصله « ايبراموس » أو « ييبراموس » . قال و « ايبراموش » بالتركية بمعنى الشيخ . وان اسم العبرانيين أنفسهم لا معنى له باللغة العبرية ، وما فسروه به من أنه بمعنى « القادم من بعيد » تفسير لا يصلح لاسم أمة . قال : وعندي انه من اسم « ايبر » أحد الشعوب التورانية . وكلمة « توراة » مأخوذة من « توره » بالتركية بمعنى القانون

ثم حرّف اسم (تارح) الى (تارخ) وقال ان هذه الكلمة أهم ما في الموضوع ، فقد استعملتها أقوام كانت لها السيادة على سواحل البحر الابيض قديماً وقامت بوظيفة التمدين وتركت هذه الكلمة علامة عليها في كل مكان . قال : وأنا قد برهنت في كتاب أؤلفه الآن على ان ما كان عند هذه الاقوام من نظام الاسرة والطبقات والاوضاع المدنية والدينية هو مما اختص به التورانيون . وهذه الاقوام تدعى في الكتابات المصرية باسم (تارغان) وفي الكتابات الاثورية باسم (تارتان) وفي ايطاليا باسم (تارخانا ، تارخينا ، تاركينا) وفي اسبانيا باسم (تارخانا ، تاركينا) أيضا . وقد سميت خطأ باسم (الحثيين) وتحقق الآن أنها من أمم الخَطا . وهي نفسها تستعمل في لسانها كلمة (تارخون ، تارخا) وبها سمت أحد ملوكها (تارخوند اموش) . ومعنى « تارخان » بالتركية

حركة النشر والتأليف

﴿ شرح القصائد العشر — للخطيب التبريزي ﴾

المطبعة السلفية ومكتبتها ، ودار الطباعة المنيرية * ٣١٢ صفحة بقطع الزهراء * ثمنه ١٠ قروش

لأبي زكريا يحيى بن علي الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي ـ شارح حماسة أبي تمام ، وسقط الزند ، وديوان المتنبي — كتابٌ شرح به المعلقات السبع وقصيدة النابغة الذبياني الدالية وقصيدة الأعشى اللامية وقصيدة عَبيد البائية . وشروح المعلقات لا يُغني بعضُها عن بعض ، لامتياز كل واحد بما لا يوجد في غيره

وكان مستر تْشالس جيمس لَيَل قد طبع هذا الشرح قبل ثلاثين عاماً في مدينة كلكته (الهند) ، نقلاً عن مخطوطات كمبريج ولندن وليدن ، فنفدت نسخه لقلة ما طبع منها ولبعد العهد ، فتعذّرت الاستفادة منه . لذلك انبرى الاستاذ الشيخ محمد منير الدمشقي لطبعه في مطبعتنا معارَضاً بنسخة خطية خاصة محفوظة عنده . وعلق عليه حضرة العالم الفاضل الاستاذ السيد محمد الخضر التونسي تعليقات جليلة مبسوطة زادت في قيمة هذا الشرح ، وهو مطبوع على ورق جيد مصححاً متعنى به

﴿ ياليل الصب — ومعارضاتها ﴾

المطبعة العربية * ٥٦ ص جاير * ثمنها قرشان

أعاد السيد محيي الدين رضا طبع قصيدة ياليل الصب لأبي الحسن الحصري القيرواني واستقصى معارضاتها للشعراء السالفين والمعاصرين ، فجاءت مجموعة أدب حافلة جيدة الطبع صقيلة الورق لا يستغني عنها الأديب

اسماعيل حقي بك تعريض يتعلق بقرابة سارة من ابراهيم فانبرت للرد عليه مجلة (سبيل الرشاد) ومجلة (محفل) التركيتان الاسلاميتان

وما لخصناه من الآراء العلمية مشحون بالمغالطات والتخريف ، وانما أردنا بتلخيصه ان نبين مرامي القوم ، وما يغرسونه في نفوس ناشئتهم منذ اليوم

﴿ الأميرة غالية ﴾

بمناسبة هجوم الوهابية الاخير على الطائف

قال المرحوم محمود باشا فهمى المهندس فى كتابه البحر الزاخر (١ : ١٨٣) واصفاً بطولة امرأة عربية فى حرب الوهابيين سنة ١٢٢٨ ه :

« لم يحصل من قبائل العرب مقاومة أشد مما أجراه عرب أبي جوم فى (ترَبة) وكان قد لجأ اليها معظم عساكر الشريف غالب ، وصارت تجمع كل الوهابيين الموجودين فى الجنوب كما ان (الدّرعية) تجمعهم فى الشمال

وكان قائد هؤلاء العربان فى هـذا الوقت أرملة اسمها (غالية) كان زوجها أشهر رجال هـذه الجهة ، وكانت هى على غاية من الغنى والثروة ، ففرّقت جميع أموالها على فقراء العشائر الذين يرغبون فى محاربة الترك

ففى أوائل نوفمبر سنة ١٨١٣ (ذى الحجة ١٢٢٨) سافر طوسون باشا من الطائف ومعه ٢٠٠٠ نفس للغـارة على ترَبة فأمر عساكره بالهجوم وكان العرب محافظين على أسوار المدينة بشجاعة ، ومستبشرين بوجود (غالية) معهم وهى المقدمة عليهم فصدوا طوسون وعساكره . وفى اليوم الثانى شرع طوسون وعساكره فى التقهقر ، فاضطروا الى ترك خيامهم وسلاحهم . وكانت النتيجة المنتظرة لهذا الفشل ان يموت جميع العساكر لولا ان (توماس كيث) مع شرذمة من الخيالة استردوا مدفعا وحفظوا به خط الرجعة . وتعطلت بعد ذلك الاجراءات الحربية ثمانية عشر شهرا

﴿ العصبية عند العرب ﴾

للدكتور علي مظهر

مطبعة معصر * المكتبة السلفية * ص ٨٣ جاير * ثمنه ٦ قروش

وضع الدكتور علي مظهر — الحاصل على اجازة الآداب والفلسفة من الجامعة المصرية — رسالة باللغة الالمانية عنوانها (العصبية عند العرب فى الجاهلية والاسلام حتى زوال بني امية من المشرق — بالاشارة الى شعرهم على وجه خاص) وقدمها في العام الماضي الى جامعة فينة فحصل بها على اجازة العالمية من كلية الفلسفة فى تلك الجامعة . وقد رأى حتماً عليه أن يطلع قومه على ما كتبه فى تلك الرسالة باللغة الالمانية فنقلها الى العربية وهي مأخوذة من مصادر عربية وافرنجية كثيرة العدد

﴿ الحضارة المصرية ﴾

للعلامة الحكيم غوستاف لوبون

المطبعة العصرية * المكتبة السلفية * ١٥٨ ص بقطع الزهراء * ثمنه ١٠ قروش

كتاب الحضارات الاولى ـ Les Premières Civilisations للدكتور غوستاف لوبون من أجل الكتب التي ألفها هذا العلامة الحكيم لأنه تضمن نظرياته المشهورة في أسرار الاجتماع مع تطبيقها العملي على التاريخ ، وقد ألفه سنة ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩ بعد تأليفه كتاب حضارة العرب بخمس سنوات . وهو يشتمل على مقدمة في مباديء التاريخ القديم وأصوله والقواعد التي بني عليها ـ كما فعل ابن خلدون في مقدمته بالنسبة الى التاريخ الاسلامي ـ وبعدها كتاب في الحضارة المصرية وآخر في الحضارة الأثورية ثم الحضارة الفينيقية وغيرها

وقد نشرت مطبعتنا منذ عهد قريب مقدمة هذا الكتاب العظيم مترجمة بقلم الفاضل محمد صادق رستم أفندي محرر جريدة البلاغ ، ثم صدر الآن من المطبعة العصرية كتاب الحضارة المصرية بقلم المترجم نفسه ، مزيناً بالصور الكثيرة . وفيه الكلام على بيئة المصريين وجنسيتهم ومصادر تاريخهم ، وعلي لغتهم وكتابتهم

﴿ تهذيب الاخلاق ﴾

ليحيى بن عدي ، أو لابن عربي ، أو لأبي عثمان الجاحظ

المطبعة البطريركية بدمشق * المكتبة السلفية بالقاهرة * ٦٠ ص بالقطع الكامل * ثمنه ٥ قروش

من المخطوطات التي دخلت خزانة المجمع العلمي العربي في دمشق السنةَ الماضية مجموع في جملته (كتاب تهذيب الاخلاق للجاحظ) فبادر الاستاذ العلامة السيد محمد كرد علي رئيس المجمع الى نشره ضناً بكتاب للجاحظ ان يبقى منزويا في الخزائن ، غير منشور في أيدي المعجَبين ببلاغة هذا الامام الكبير . وبعد المضيّ في طبعه تبيّن أن الكتاب هو الذي نشر في القاهرة مرتين سنة ١٨٧٢ و ١٩١٣ م منسوباً الى يحيى بن عدي من علماء النصارى اليعقوبيين المتوفى سنة ٣٦٤ ه ونشر في القاهرة أيضا مرتين أخريين سنة ١٩٠٧ م و ١٣٣٢ ه منسوباً الى ابن عربي المتوفَّى سنة ٦٣٨ ه . فنشر الاستاذ كرد علي استدراكا في آخر الكتاب ذكر فيه ما وقف عليه في هذا الباب ودعا الى زيادة التحقيق في هذا الامر

وهذه الطبعة بلغت حد العناية والجودة والاتقان في تصحيحها وطبعها وورقها . فنشكر للمجمع العلمي العربي عنايته بعلوم العرب وآدابها ونتمنى ان يكثر عدد الكتب التي تنشر بعنايته لتظهر بمظهر الكمال والجمال

﴿ ألفية ابن مالك ﴾

ادارة الطباعة المنيرية * المكتبة السلفية * ٦٨ ص جاير * ثمنها قرشان ونصف

أعادت ادارة الطباعة المنيرية طبع متن الالفية لجمال الدين محمد بن مالك الاندلسي المتوفى في دمشق عام ٦٧٢ مشكولة مصححة حسنة الطبع جيدة الورق وهي وشروحها وحواشيها تكاد تكون عمدة الاقطار العربية في تعليم النحو

﴿ الثورة الفرنساوية — وروح الثورات ﴾

مطبعة الشرق بدمشق * المكتبة السلفية بالقاهرة * ٣٣٠ ص * ثمنه ١٥ قرشا

قال الدكتور غوستاف لوبون : انا لم أضع هذا الكتاب لأمدح فيه الثورة الفرنسوية أو لأذمها ، بل لأفسرها بالسنن النفسية التى ذكرتها في كتاب (الآراء والمعتقدات) . وقد أتى فيه المؤلف على ذكر العناصر النفسية للحركات الثورية ، وصفات الثورات ، ومظاهر النفسية السائدة أيام الثورات . ثم تكلم على مصادر الثورة الفرنسوية ، وتأثير العقل والعاطفة والتدين والاجتماع في خلالها ، والنزاع بين المؤثرات الموروثة والمبادىء الثورية وتطوّر المبادىء الثورية فى الوقت الحاضر . قال المؤلف : وقد يجادل بعضهم فيقيمة الشروح التيذكرتها فى هذا الكتاب ، ولكن من الصعب بعد الآن أن يكتب تاريخ الثورة الفرنسوية دون ملاحظة تلك الشروح . وقد عرّب هذا الكتاب السيد محمد عادل زعيتر من أفاضل الناشئة السورية التي تعلمت في اوروبا فجاء من خير ما ترجم بالعربية من كتب التاريخ وعلله الاجتماعية والفلسفية

﴿ تاييس ـ تأليف أناتول فرانس ﴾

المطبعة العصرية * المكتبة السلفية * ٢٧٦ ص جاير * ثمنه ١٠ قروش

عمّت البلوى فى هذا القطر بالروايات الجنائية والقصص البوليسية التى تبدّد وقت الجمهور وتفسد عليه طرائق التفكير المنطقى . فلا غَرْوَ اذا انصرف بعض المترجمين عن ذلك الى نقل القصص التى ألفها كبار الادباء ، ورموا بها الى مغزى من الحكمة ، أو إلى ترقيق الشعور ، وتحبيب الفنّ الى القرّاء ، ومن ذلك رواية (تاييس) التى ألفها الكاتب الفرنسوى الكبير اناتول فرانس واقتبسها من تاريخ مصر ايام البطالسة فهى من أبدع الروايات التى كتبها هذا المؤلف . وقد ترجمها الكاتب الفاضل أحمد افندي الصاوي محمد وطبعتها المطبعة العصرية على أجود ورق وبأجمل وضع يدل على ذوق فى الطباعة الحديثة

ومعتقداتهم ونظمهم وأخلاقهم وعلومهم وصناعاتهم وآدابهم ومؤلفاتهم وفن العمارة المصرية والحفر . فنلفت نظر الذين قرأوا (مقدمة الحضارة الاولى) الى ظهور كتاب (الحضارة المصرية) وجدير بمن لم يطلع عليهما من المشتغلين بالتاريخ وأسراره أن يقرأهما بروية وإمعان

﴿ تذكرة الموضوعات — وقانون الموضوعات والضعفاء ﴾

لمؤلف « مجمع بحار الانوار » في لغة الحديث

دار الطباعة المنيرية * المكتبة السلفية * ٣٢٠ ص بقطع الزهراء * ثمنه ١٥ قرشاً

محمد طاهر بن علي الصديقي الفَتَّني الهندي (٩١٤—٩٨٦ هـ) كان رأس المحدّثين في الهند ، وقد أخذ عن كبار العلماء فيها وفي الحجاز ، ومنهم ابن حجر المكي وعلي بن حسام الدين المتقي صاحب كنز العمال . واشتهر بكتابه « مجمع بحار الانوار » في غريب الحديث طبع في الهند وهو مع التكملة بأربع مجلدات ، وله المغني في ضبط أسماء الرجال ، وشرح الشافية لابن الحاجب

وقد طبع له الشيخ شرف الدين صاحب المكتبة القيمة في الهند كتابين من مؤلفاته في مجلد واحد أحدهما (تذكرة الموضوعات) قال في مقدمته : وأنا أورد بعض ما في مختصر الفيروز آبادي وفي المقاصد الحسنة واللآليء وذيلها والوجيز وموضوعات الصغاني وموضوعات المصابيح للقزويني ومؤلفات علي بن ابراهيم العطار فأجمعُ أقوال العلماء في كل حديث كي يتضح لك الحقيق بالقبول . وهذا الكتاب في ٢٢٩ صفحة

والثاني (القانون في ضبط الأخبار الموضوعة والرجال الضعفاء) ذكر فيه الضعفاء من الرواة الكذابين والوُضَّاع والمفترين مرتبة أسماؤهم على حروف المعجم في تسعين صفحة . وهو مكمل للكتاب الاول . وكلاهما من الضروريات للمشتغلين بعلم السنّة

في العالم العربي

أنباء علمية أدبية اجتماعية

في ريف المغرب الأقصى

تمكن الامير عبد الكريم الخطابي من تسجيل اسمه فى تاريخ الاسلام والعرب بما قام به من جمع الكلمة وتوحيد القوة فى ريف المغرب الأقصى لاخراج الاسبانيين من تلك الربوع . وقد كانت خطته الحربية الاخيرة موضع الاعجاب فى الشرق والغرب ، فقد استدرج الاسبانيين حتى وزعوا جانباً كبيراً من قواهم من تطوان الى ششوان بين أودية وهضاب وآكام وشعاب فى خط يبلغ طوله خمسين ميلا ، ثم أطبق عليهم وقطع أكثر خطوط مواصلاتهم وما بينهم من أسلاك البرق والهاتف (التلفون) فباتوا بين قتيل أو أسير أو معتصم بجبل بلا زاد . ولا ريب أن موقف الاسبانيين اليوم معه من أحرج المواقف

ادارة التعليم في فلسطين

تبدي فلسطين رغبتها فى فصل ادارة التعليم عن الادارة الرسمية العامة وجعله في يد هيئات وطنية محضة عارفة بما تحتاج اليه البلاد من صنوف المعارف وطرائقه

العرب والفرس

أخذ الفرس يفقدون روح العطف عليهم في كثير من الاقطار لما يحاولونه من الدعوة الى عصبية غير حميدة فى العراق ابتغاء بسط سلطانهم على بلاد منه بدعوى أنها كانت لهم فى عهد المجوسية وانتزعت منهم فى الفتح الاسلامي. وكان المرجوّ من شبانها القائمين بالحكم فيها الآن أن يكونوا بعيدي النظر فى فهم موقف الشرق الحاضر، وان لهم فى بلادهم غناء لو أحسنوا حكمها وسهروا على اصلاحها وتهذيب شعبها

سكة الحجاز الحديدية

ازداد عدد القطارات التى تروح وتجيء من حين الى آخر بين المدينة المنوّرة وبلاد الشام

في مصر

أنباء علمية أدبية اجتماعية

﴿ الاستقلال المالي ﴾

افتتح اليومَ (١٥ صفر) فرع لبنك مصر في المحلة الكبرى وهي مدينة مصرية امتازت بالتوازن بين الانتاج الصناعي والانتاج الزراعي ، وهذا دليل على رواج الصناعة في هذه المدينة بينما المملكة المصرية قد غلب فيها الانتاج الزراعي حتى بلغ العاملون فيه نحو ثمانية أضعاف العاملين في الصناعة ، ولذلك لا تستفيد مصر من موادها الأولية الفائدة التي هي في حاجة اليها . وسيكون هذا الفرع لبنك مصر عوناً للمحلة الكبرى في نهضتها الاقتصادية

﴿ اللغة العربية في الوزارات ﴾

كان كثير من دواوين الحكومة — ولاسيما التي يشغل مراكزها العليا موظفون من الاجانب — تصدر عنها التقارير والنشرات بالانكليزية أو بالافرنسية ، فأذاع وزير المالية مذكرة على الوزارات لفت بها نظرهن الى هذا الامر، وذكرهن بضرورة وضع التقارير والنشرات الدورية وغير الدورية باللغة العربية لانها لغة البلاد، ولسان حكومتها الرسمي ، وليستطيع نواب الامة الوقوف على ما يجري في دواوين الحكومة، ويناقشوا الوزراء فيما جاء فيها

وكانت الرسائل التي تصدر من ادارة مسرح الاوبرا الملكية الى وزارة الاشغال ترد باللغة الافرنسية فأمر وزير الاشغال بأن تكون هذه الرسائل بعد الآن باللغة العربية

﴿ حماية الصناعة المصرية ﴾

تسعى الجمعية الصناعية لحمل الدولة المصرية على جعل تعريفتها الجمركية قائمة على أساس حماية الصناعة الوطنية فتخفض الرسوم الجمركية عن الآلات والمواد التي تساعد في ارتقاء صناعة مصر وزراعتها ، وتزيدها على المواد التي تزاحم امثالها مما يصنع أو ينتج في البلاد المصرية

في العالم الاسلامي

أنباء علمية أدبية اجتماعية

﴿ القيشاني الشرقي ﴾

حضر الى تركيا الأستاذ فوغل الالمانى لدرس المادة التي كان يصنع منها القيشانى في الشرق وطريقة صناعته. وبعد وصوله الى الاستانة سافر الى بروصة لهذا الغرض. والاستاذ فوغل هو زميل الاستاذ ينك في القاء محاضرات عن الجغرافيا في جامعة برلين

﴿ جمعية للامم الاسلامية ﴾

كتبت جريدة (فتى العرب) الدمشقية مقالا افتتاحيا قالت فيه: ان جمعية الامم الغربية هى التي منعت الايطاليين من الاشتباك مع اليوغسلافيين من أجل مدينة فيوم، وهي التي لطّفت من حدّة الخلاف بين المانيا وفرنسا فصانت الحضارة المسيحية الغربية بما أخمدت من روح مطامع الاقوام رغم حماستها. فماذا نفعل نحن معاشر المسلمين من أجل صون حضارتنا الشرقية الاسلامية، وهذه الحرب بين نجد والحجاز، وهذه غارة الادريسيين على حدود اليمن، واندلاع لهيب الثورة في الافغان. ان السبيل الموصل الى حقن الدماء قائم بانشاء جمعية امم إسلامية ينتخب أعضاؤها من جميع شعوب الاسلام فيكون فيها الهندي والفارسي والمصري والمغربي والعربي والتركي، على شاكلة الامم الغربية. وليس فى انشاء هذه الجمعية صعوبة، فان التجانس موجود فى ميول الشعوب الاسلامية، وهى غنية بآدابها وحضارتها وثروتها. ان طائفة صغيرة من أغنياء اليهود استطاعت ان توجد فلسطين يهوديةً فى قلب فلسطين العربية، أفلا يستطيع أحد اقيال الهند — كأمير حيدر أباد — ان يحذو حذو روتشلد المثري اليهودي فيتكفل بالانفاق على جمعية الامم الاسلامية الشرقية؟

﴿ دمشق والشركات الاجنبية ﴾

توفّقت دمشق الى نتيجة ربما كانت الاولى من نوعها فى الشرق ، وهى الثبات فى مقاطعة شركة الترام والكهرباء البلجيكية مقاطعةً دامت خمسة وسبعين يوماً حتى ألجأوها الى النزول على ارادتهم والرضوخ لمطالبهم . فان هذه الشركة التى كانت تلقى عوناً من السلطات فى أكثر الادوار بما يعارض مصلحة الشعب خالفت شروط امتيازها واستبدت بجمهور الاهالي ، ولم يجد هؤلاء من الحكومة عملاً لرد الشركة عن استبدادها . فاعتمدوا على أنفسهم وتضامنوا فى مقاطعتها ، ولم تنجح كل الوسائل التى اتخذتها الشركة لالحاق الفشل بالمقاطعة ، ثم انتهى الامر فى هذين اليومين باجابة الشركة مطالب الاهالي بحذافيرها وهى عشرة مطالب ، فأعلنت لجنةُ المقاطعة للشعب جواز العودة الى معاملة هذه الشركة

﴿ نجد والعالم الاسلامي ﴾

انتهجت نجد منذ بضعة أشهر منهجاً كان موضع استحسان العالم الاسلامى وهو محاولتها الاتصال بالخارج اتصالاً أدبياً يدل على كياسة وبعد نظر ، فانها فضلاً عن استعانتها بالمتعلمين من شباب مصر والشام والعراق أخذ ولي عهد سلطنتها ينشر المنشورات فى الموضوعات العامة ، وأعلن أعيانها عزمهم على الانضمام الى مؤتمر الخلافة فى مصر ، ويعد هذا تطورا اجتماعياً بعد التزام نجد العزلة عن الناس عصوراً طوالاً

﴿ سوريا وجمعية حقوق الانسان ﴾

نشرت جريدة (الكوتديان) الفرنسوية التي تنطق بلسان المسيو هريو رئيس الوزارة في عددها ٥٥٧ الصادر يوم ١٩ اغسطس بلاغ جمعية حقوق الانسان في نقد طريقة الحكم الحالي في سوريا ، كخضوع القضاء الوطني لمراقبة المحاكم الفرنسوية ، وتعطيل الصحف الاستقلالية ، وتعدد حوادث الاعتقال والنفي . ونصحت جمعية حقوق الانسان للحكومة الفرنسوية بأن تعهد بادارة الانتداب في سوريا الى موظف مدني يسترشد بمبادىء الحق

﴿ الشجر في فلسطين ﴾

غرسوا فى فلسطين بين سنتي ١٩٢٠ و ١٩٢٤ ثلاثة ملايين شجرة وستة وسبعين ألف كرمة عنب

﴿ مؤتمر المعلمين المسلمين في بلغاريا ﴾

عقد في بلدة (عثمان بازار) من أعمال بلغاريا مؤتمر لأساتذة المدارس الاسلامية في الشهر الماضي ، حضره مندوبون عن كل مدينة فيها مدارس اسلامية . وكان هؤلاء المندوبون ذوي نزعات اجتماعية مختلفة : ففيهم أنصار الاصلاح الاسلامي والجامدون ودعاة الشيوعية . وقد دارت أبحاث المؤتمر حول برامج التعليم والتعديل الذي يجب ادخاله عليها ، وحول طرق التهذيب المختلفة الجديرة بأن يقتبس منها أصحاب المدارس الاسلامية في بلغاريا ما يلائم حالة البلاد. وتذاكروا أيضاً في وسائل تحسين حالة المعلمين في هذه المدارس ليستطيعوا القيام بالمهمة التي عهد بها اليهم

﴿ الترك ويوم كربلاء ﴾

كتب علي حيدر أمير بك ـ الكاتب التركي المشهور ـ مقالة ضافية في جريدة (وقت) التركية يوم ٢٣ المحرم عنوانها « الامة التركية ووقعة كربلاء » قال فيها ان رجال البكتاشية الترك مابرحوا يبكون في المحرم واقعة كربلاء ، مع ان هذه الحادثة تتعلق بالعرب وحدهم لانها مبنية على تنازع السلطان بين هاشم وأمية ، وكان أولى بنا وقد تركنا في ميادين القتال في الحرب العظمى ربع عدد الامة التركية بلا قبور ولا شاهد أن نبكي رجالنا وشهداءنا

﴿ القاضيات ﴾

نشرت جريدة (وقت) التركية في عددها الصادر يوم ١٧ المحرّم برقية تلقتها من مراسلها فى أنقرة بأن ابنة احمد بك آغايف عضو المجلس الوطني الكبير حصلت على شهادة الحقوق وطلبت من وزارة الحقانية تعيينها (قاضية) فوعدتها الوزارة بأنها ستعينها في أول منصب قضائي يكون خالياً . وبهذه المناسبة نشرت جريدة (وقت) صورة الآنسات التركيات: ثريا وملاحت وبديعة اللاتي تخرجن هذا العام فى مدرسة الحقوق وسيناط بهن وظائف القضاء المدني أو الجنائي

﴿ اليهود في القسطنطينية ﴾

انشأ احمد جودت بك صاحب جريدة (إقدام) التركية مقالة افتتاحية قال فيها ان ثروة اليهود فى القسطنطينية بلغت الآن عشرة أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب

مطبوعات

المطبعة السلفية - ومكتبتها

مليم

- ١٢ اصلاح المساجد للقاسمي
- ٢٠ عدة الصابرين لابن القيم
- ٣ أربعون حديثاً لشيخ الاسلام ابن تيمية
- ٥٠ الموافقات للشاطبي ٤ أجزاء
- ٨ مقدمة الحضارات الاولى لغوستاف لوبون
- ٨ مذكرات غليوم الثاني
- ٥ الحديقة (مجموعة أدب وحكمة)
- ٥ قبس من نار الخالدة أديب
- ١ر٥ نشيد سعد باشا زغلول
- ٨ مجموعة النشاشيبي (مختارات عربية)
- ٣ البستان (محفوظات) للنشاشيبي
- ٨ دون كيخوتي فكاهي بالصور
- ٦ كمال البلاغة (رسائل الامير قابوس)
- ١٢ أدب الكتاب للصولي
- ١٥ الضرائر الشعرية للآلوسي
- ١٢ الأدب المصري في العراق أول
- ١٠ « « « (ثان)
- ١٠ نزهة الانام في محاسن الشام للبدري
- ٧ر٥ تاريخ العرب والاسلام (ثان)

(تحت الطبع : الميسر والقداح لابن قتيبة)

- ٤ طريقة تعليم الف با لساطع بك
- ٣ مبادئ القراءة الخلدونية « «
- ١٢ دروس التهذيب التاريخية
- ٢٥ تاريخ الموصل للقس سليمان صائغ
- ٤ المغني عن الحفظ والكتاب
- ١٥ الاقتصاد التجاري
- ٢ كتيب في الدستور المصري
- ٢٠ السودان المصري ومطامع الانكليز
- ١٢ تذكار الحجاز
- ١ قلب عربي وعقل أوروبي
- ٨ رسائل الأحزان للرافعي
- ٢ النزلات المعدية المعوية عند الاطفال
- ٢ الحميات الطفحية « «
- ٢ الحميات التيفودية والانفلونزا عند الاطفال
- ٢ مذكرة بحياة الطفل
- ١٠ الصحائف للآنسة مي
- ١٠ شرح المعلقات للتبريزي
- ٥ أشهر الأمثال للشيخ طاهر
- ١٠ تهذيب أدب الكاتب «
- ١٠ التقريب في أصول التعريب «
- ١٠ التبيان في أقسام القرآن «
- ١٥ المجلة السلفية السنة الأولى
- ١٠ تقويم المجلة السلفية الاول والثاني
- ١٢ قانون حكام الصلح الموقت

الزهراء

مجلّة علميّة أدبية اجتماعية

تصدُر في القاهرة في مُنتصَف كل شهر عربيّ

لمُنشئها

محب الدين الخطيب

﴿ الاشتراك السنوي ﴾

خمسون قرشاً مصرياً في المملكة المصرية و ستون قرشاً في الخارج

وثمن الجزء ٥ قروش

سنة المجلة عشرة اشهر * وتقدم للمشتركين في آخر السنة كتاباً هدية

تنشرها ادارة

المطبعة السلفية - ومكتبتها

لصاحبيها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

شارع خيرت بالقاهرة رقم ٤٠ (بجوار المالية) * تليفون ١٥ - ٧٣ * تلغرافياً (القبول)

المغني عن الحفظ والكتاب

﴿ فيما لم يصح فيه شيء من الأحاديث ﴾

تأليف

الشيخ الامام الفقيه الحافظ الناقد

ابى حفص عمر بن بدر الموصلى الحنفى

امام المسجد الاقصى * المتوفى سنة ٦٢٣

عنيت بنشره

جمعية نشر الكتب العربية

بالقاهرة

ثمن النسخة ٤ قروش صاغ

يطلب من

المطبعة السلفية - بمصر

لصاحبيها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

فهرس

الزهراء

ج ٤ : م ١ — ١٥ ربيع الثاني ١٣٤٣

حياة ابن خلدون

ومُثل من فلسفته الاجتماعية

محاضرة القاها الاستاذ المحقّق السيد محمد الخضر

في الحفلة التى أقامتها جمعية تعاون جاليات افريقية الشمالية

مساء الجمعة ٥ صفر سنة ١٣٤٣

— ١ —

تأسست هذه الجمعية لتنهض بجاليات افريقيه الشمالية حتى يسيروا مع اخوانهم المصريين جنباً لجنب : يسايرونهم في أفكارهم ، في آدابهم ، في معارفهم ، في كل شأن من شؤون حياتهم الاجتماعية الراقية . وكذلك يجب على كل جالية تعيش بين قوم ناهضين . وكذلك يجب على كل جالية تعيش في بيئة هي أوسع من أوطانها حرّيةً واحتمالا للمشروعات الاصلاحية

وللدعوة الى المنافسة في الخير ، والمسابقة في حلبة الشرف والسعادة ، طرق شتى ؛ ومن أقربها مأخذاً ، وأبلغها أثراً ، إلقاء محاضرات تتمثل فيها سيَر رجال أدركوا بصفاء ألمعيتهم وكبر هممهم مكانة راسخة ، وسمعة فائقة . وقد بدا لنا

حياته ـ عدل عن مسلك السياسة وخدمة الدولة وآثر مدارسة العلم ومجالسة الادباء ، فأصبح معدوداً في زمرة العلماء ، ومشهودا له بالتقدم في فن الادب

نشأته في تونس

في هذا البيت ـ الذي تقلب رجاله في أطوار خطرة ، ثم بسط فيه العلم أشعةً باهرة ـ ولد أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون في غرة رمضان سنة ٧٣٢ فكانت نشأة ابن خلدون في اسرة امتطت ذرى الرياسة ، وخفق فيها روح العلم والادب ، مما ساعد ذكاءه الفطري على أن يشتعل بشدة ، وجعل نفسه الزكية بمقربة من الهمم الكبيرة

نشأ ابن خلدون وكانت رياض العلم في مدينة تونس زاهية ، وسوق الادب نافقه . فاستظهر بالقرآن ، وتلقى فن الادب عن والده . ثم أقبل يجتني ثمار العلوم بشغف ، ويتردد على مجالسة العلماء الراسخين ـ مثل قاضي القضاة محمد بن عبد السلام ، والرئيس أبي محمد الحضرمي ، والعلامة الابلي ـ ولم يكد يستوفي سن العشرين حتى تجلت عبقريته ، واستدعاه أبو محمد بن تافراكين المستبد وقتئذ الى كتابة العلامة عن السلطان أبي اسحاق وهي « الحمد لله والشكر لله » تكتب بالقلم الغليظ ما بين البسملة ومابعدها من مخاطبة أو مرسوم ، وهذا مبدأ دخول ابن خلدون في حياته السياسية

عزمه على الارتحال

تولى هذا العمل وهو يطوي ضميره على الرحلة من افريقية : لوحشة أثارها في نفسه ذهاب معظم شيوخه ، وانطواء مجالسَ كانت أنهارُ علومها دافقة ، وقطوف آدابها دانية . ويمكنك من هاهنا أن تعرف لابن خلدون وهو في شرخ شبابه مبدأ من مبادىء الفطرة السليمة ، والهمة الشامخة ، وهو الاستخفاف بالمقام

أن نفتتح محاضراتنا بذكرى الفيلسوف الاجتماعي أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون.

نسب ابن خلدون

هو وليّ الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن خَلدون الحضرمي (1). ويتصل هذا النسب الى وائل بن حجر الصحابي الذي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فبسط له رداءه وأجلسه عليه ودعا له

ذكر ابن خلدون نسبه على هذا النسق وقال : لا أذكر من نسبي الى خلدون غير هؤلاء العشرة

دخول سلفه الى الاندلس

كان خلدون المذكور قدم من المشرق في رهط من قومه أهل حضرموت ونزل إشبيلية ، وهي حمص التي يقول فيها صاحب مرثية الاندلس :

وأين حمصٌ وما تحويه من نُزَهٍ ونهرُها العذبُ فيّاضٌ وملآن

تفرّع آل خلدون في إشبيليه ، وكانت لهم فيها زعامة ورياسة . ثم رحل جده الحسن عقب فتنة خفقت ريحها في تلك البلاد فنزل سبتة ، ثم ارخى زمام مطيته متوجهاً الى مدينة (عنابة) لصلة كانت بين بعض أسلافه وبين صاحبها الامير زكرياء فلقيه الامير باحتفاء ، وأدخله في سلك رجال دولته ، وجرى ابنه محمدٌ على سَنَنه في خدمة الدولة وأدرك ما ناله والده من وجاهة واقبال . وانتهى أمر ابنه محمد ــ الذي هو الجد الادنى للفيلسوف ابن خلدون ــ الى السكنى بمدينة (تونس) والانتظام في هيأة الدولة ، وكان السلطان أبو يحيي إذا خرج من مدينة تونس يستعمله عليها ، ولكن ابنه محمداً ــ وهو والد الفيلسوف المتحدّث عن

(١) خلدون بفتح أوله كما نص عليه صاحب الحلل السندسية (مخطوط) ، وصاحب نيل الابتهاج (ص ١٦٩ هامش الديباج المذهب) . وأصل اسمه خالد وعرف بخلدون كما جاء في تاريخ المترجم به (٧ : ٣٨٠)

الحشا وسلبت الاجفان نومتها الهادئة ؛ وبالاحرى حيث لم تكن قضاياها ممـا يوكل الى اجتهاد محكمة عادلة ، وانما ينفرد بسماع بلاغها ويستبد بتقدير عقوبتها أحد الخصمين الذي هو الرئيس الاعلى

ابن خلدون في السجن

انطلت تلك التهمة على فكر ابى عنان فقبض على ابن خلدون والامير محمد وزجهما في السجن . وكانت هـذه النكبة أول ما لقيه ابن خلدون من بلاء السياسة وأيقن بها أن إقبال الدولة سرعان ما ينقلب إدباراً وان عزاً تبنيه للرجل صباحا قد يأتي عليه المساء ، فاذا هو الدرك الاسفل من الهوان

ثم ان السلطان أطلق سبيل الامير محمد ، وترك ابن خلدون يقاسي شدة الحبس ويتجرّع مرارة المحنة ، حتى التجأ في استعطافه وجلب مرضاته الى وسيلة الشعر والمديح وخاطبه بالقصيدة التي يقول في طالعها :

على أيّ حال لليالي أعاتبُ وأيَّ صروف للزمان أغالبُ

وقد تنجح شفاعة الشعر لدى الحاكم المطلق وتأتي بالاثر الذي تذهب الحجج الساطعة دونه عبثا . وما كان من أبي عنان إلا أن هش للقصيدة ـ وكان وقتئذ بتلمسان ـ ووعد بالافراج عن ابن خلدون عند حلوله بحاضرة فاس . ولـكنه لم يلبث بعد إيابه الى الحضرة الا خمس ليالي فطرقه الوجع ولقي أجله قبل ان يفي بوعده لابن خلدون

خروجه من السجن وولايته كتابة السر وخطة المظالم

وبعد مهلك السلطان بادر الوزير الحسن بن عمر الى اطلاق سراح ابن خلدون من الاعتقال ، وخلع عليه من الاكرام بُرداً ضافيا وأعاد اليه ما كان يتقلده من اعمال الدولة

الوجيه لدى الدولة ، وإيثار ما فيـه كمال نفسي ولذة روحية على مظاهر الابهة ومواطن الراحة والنعيم

رحلته الى بجاية

لبث ابن خلدون بعـد تقليده رسم العلامة أمداً غير بعيد حتى أمكنته الفرصة من أمنيته ، وغادر تونس سنة ٧٥٣ الى قفصة ثم الى بسكرة ونزل فيهـا ضيفا مكرماً لدى صاحبها يوسف بن مزني

ثم خرج منها قاصدا السلطان أبا عنان وهو يومئذ بتلمسان ، فلقيه على الطريق ابن ابي عمرو صاحب بجاية آيباً من تلمسان ، فصرفه عن قصد أبي عنان ، وحمله على المسير معه الى بجاية ليغتبط بصحبته ، وتزدهي بمثل ابن خلدون أيامُ دولته

ابن خلدون عند سلطان فاس

لم يكد ابن خلدون يقضي في كنف صاحب بجاية برهة حتى طار صيته ، وعبق ذكره في حضرة السلطان أبي عنان ، وقد جعل هذا السلطان بعد عوده الى فاس يؤلف من جلة العلماء مجلساً حافلاً ، فاستدعاه من بجاية سنة ٧٥٥ فأكمل به نظام مجلسه العلمي ، واختاره للكتابة والتوقيع بين يديه . قال ابن خلدون « فتحملت هذا العمل على كره مني ، اذ كنت لم أعهد مثله لسلفي »

اتهامه بالمؤامرة على السلطان

حظي ابن خلدون لدى أبي عنان وارتقى في دولته مكاناً عليًّا ، فأخذ حرُّ الحسد يلفح قلوب بعض منافسيه ، فأخذوا يبيّتون له المكايد ، وينصبون له شرك السعاية ، حتى استطاعوا أن يدخلوا الى افساد قلب السلطان عليه من باب السياسة اذْ رموه بالدخول في مؤامرة مع الامير محمد صاحب بجاية . ولتهمة الائتمار على

[illegible] أوهت العظم وقلقلت

ولما رأى ابن خلدون منه التنكر والاصرار على الاعراض عنه استأذنه في العود الى إفريقية ، فلم يجز له ذلك ، وشدد في منعه ، حتى دخل عليه يوم عيد الفطر وخاطبه بقصيدة يقول في طالعها :

هنيئا لعيد لاعداه قبولُ   وبشرى لعيد أنت فيه منيلُ

فحلت هذه القصيدة عقدة من إبائه ، واذن له في السفر ، على شرط ان لا يتخذ سبيله الى تلمسان ، كراهة ان يتصل بصاحبها أبي حمو ويشتد به أزر دولته

رحلة ابن خلدون الى الاندلس

احتمل ابن خلدون هـذا الشرط ، وولَّى وجهه شطر الاندلس وافداً على السلطان ابن الاحمر بغرناطة . ولما بات بمقربة منها وافته من وزيرها لسان الدين بن الخطيب رسالة يهنئه فيها بالقدوم ، ويعبر بها عن شدة ابتهاجه للقياه ووضع في صدر الرسالة أبياتا ـ على سنَّة من يجيد صناعتي الشعر والنثر ـ وهي :

حللتَ حلول الغيث في البلد المحلِ   على الطائر الميمون والرحب والسهلِ
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه   من الشيخ والطفل المعصب والكهل
لقد نشأت عندي للقياك غبطةٌ   تنسّي اغتباطي بالشبيبة والأهل

ارساله سفيرا الى ملك الاسبان

نزل ابن خلدون من السلطان ابن الاحمر منزلة الاحتفاء والانعام ، وندبه للسفارة بينه وبين ملك الاسبان ؛ فعرف الملك قيمته وأُعجب بكماله ومقدرته ، حتى دعاه الى الاقامة معه بدار ملكه (إشبيلية) ، ملتزماً له بان يرد عليه ما كان لسلفه من أملاك ؛ فرفض ابن خلدون هذه الدعوة ، ولم يكن ممن يشغفه المال حباً فيؤثره على المقام بين أمته التي يشرف بشرفها وينحط شأنه بانحطاط سمعتها

وعند ما استلم السلطان أبو سالم زمام الملك استعمل ابن خلدون على كتابة سره وألقى اليه الامر في انشاء مخاطباته ، فعدل بالانشاء عن طريقة التسجيع وأخذ به في طريق الترسل - ولم يكن في كتّاب الدولة لذلك العهد من يجيد صناعة الترسل - فكانت هذه المزية من أسباب تفوقه وإحرازه قصب السبق في حلبة البيان والتحرير

ولم تزل مكانته لدى ابى سالم راضية ، ولم تزحزحة سعاية ابن مرزوق - التي تناولت أكثر رجال الدولة - عما كان يتولاه من كتابة السر وانشاء المخاطبات ، بل لم تقف في سبيل تقليده خطةَ المظالم آخر عهد الدولة ، حتى ثار الوزير عمر بن عبد الله على السلطان ونبذ الناسُ بيعته من أعناقهم

ابن خلدون في دولة الوزير عمر بن عبد الله

وقع زمام الحكم في قبضة الوزير عمر بن عبد الله وكانت بينه وبين ابن خلدون قبل توليه أمر الدولة مودّة وصحبة ، فأقره على ما كان يتولاه من العمل وزاد في جرايته . وكان ابن خلدون يطمح بطغيان الشباب الى غاية اسمى مما يتولى من الاعمال ، وفي أمله ان عناية صديقه المقتدر لاتتريث في اسعافه ببغيته . ولما لاح له ان الوزير أخل بعهود الصحبة أخذه الاستياء من تقصيره الى ان انقطع عن دار السلطان وهجرها إدلالاً بسابق المودّة ، ولكن منصب الوزارة انسى عمر بن عبد الله أن من أساليب عتب الاصدقاء وتذكيرهم بحق أغمضوا عنه هجرَهم من غير جَفاء ، وصرف القدم عن زيارتهم لا عن ملل ؛ ولم يشأ منصبُ الوزارة إلا أن يفهمه أن تقاعد ابن خلدون عن مقر السلطان زَلّةٌ جرَّه اليها تعاظمه وقلة وفائه بما يستحق مقام الرياسة العليا من إكبار وخضوع ، فبدلا من أن يرعى الوزير مقام الصداقة ويجعله أرفع مكانا وأقوى سلطانا من مقام الرياسة ؛ أخذته نخوة السلطة ، وقابل هجر العتاب والادلال بهجر الجفاء والتقاطع

وجاء بعد هؤلاء أبو الحسن هلال بن المحسن بن ابراهيم بن هلال بن حسين الكاتب المعروف بابن الصابيء المتوفى سنة ٤٤٨ هـ فوضع كتابه المسمى (تاريخ الوزراء والامراء) وقد مثّل ما وجد منه للطبع المستشرق هـ . ف . آمدروز سنة ١٣٢٢ هـ في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت

وعمل أبو الحسن محمد بن عبد الملك الهمذاني المتوفى سنة ٥٢١ هـ كتابه (أخبار الوزراء) ، ولم نعلم عنه غير اسمه

وممن كتب في أخبار الوزراء نجم الدين ابو محمد عمارة بن أبي الحسن اليمني الفقيه المتوفى سنة ٥٦٩ هـ فقد اتى في كتابه (النكت العصرية ، في أخبار الوزراء المصرية) على ذكر طائفة صالحة من الوزراء الذين عاصرهم وعاشرهم . وقد طبع هذا الكتاب في شالون من مدن فرنسا سنة ١٣١٥ هـ بعناية المستشرق هرتويغ درنبرغ الذي نقله الى اللغة الافرنسية وطبع ترجمته في سنة ١٣٢٧ هـ

ومنهم خليل بن المحسن الذي لم نطلع على تاريخ وفاته ، والشيخ تاج الدين علي بن الحسين السنّي البغدادي المتوفى سنة ٦٧٤ هـ صاحب الذيل على كتاب الوزراء لابن محسن المذكور ، وتاج الدين أبو الحسن علي بن أنجب بن ساعي البغدادي المتوفى سنة ٦٧٤ هـ أيضاً مؤلف (تاريخ الوزراء) ، وخواند أمير غياث الدين — من لم نعلم تاريخ وفاته — وله (تاريخ الوزراء) . وهذه الكتب لا يزال أمرها مجهولا

وآخر ما اتصل بنا من الكتب التى جاءت على تراجم الوزراء (كتاب الفخري في الآداب السلطانية) لمحمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي الذي أتم كتابه سنة ٧٠١ هـ فقد ترجم فيه وزراء الدولة العباسية وطبع هذا الكتاب للمرة الاولى في غوطا سنة ١٢٧٧ هـ ثم في باريس سنة ١٣١٣ وفي مصر سنة ١٣١٧ وفيها أيضاً سنة ١٣٤٠

التأليف في أخبار الوزراء

قال الاستاذ السيد عبد الله مخلص في ص ٨ ـ ١٠ من التصدير الذي وضعه لكتاب (الاشارة الى من نال الوزارة لعلي ابن منجب الصيرفي[1]) :

أول من دوّن أخبار الوزراء ـ على ما اتصل بنا ـ هو أبو عبد الله محمد بن داود بن الجرّاح المتوفَّى سنة ٢٩٦ ه بتأليفه (كتاب الوزراء)

ثم تابعه على ذلك أحمد بن عبد الله الثقفي ـ المعروف بحمار العزير ـ المتوفى سنة ٣١٠ فألف (كتاب الزيادة في أخبار الوزراء)

ثم نسج على منوالهما أبو الحسن علي بن الفتح الكاتب المعروف بالمطوّق ، وانتهى فيه الى أيام الوزير أبي القاسم عبيد الله بن محمد الكَلْوَذاني الذي وَزَر للعباسيين سنة ٣١٩ ه وعاش لما بعد سنة ٣٣٦

وجاء على أثرهم ابراهيم بن محمد بن نفطويه المتوفى سنة ٣٢٣ فصنف كتاب الوزراء

ثم جاء بعدهم ابراهيم بن موسى الواسطي فعارض كتاب ابن داود

ثم ابو عبد الله محمد بن أحمد الفارسي ، وأبو الحسين علي بن محمد بن المشاطة ، وأبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري ـ الذين لم نتحقق سنيّ وفاتهم ـ وعقبهم أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولي المتوفى بين سنتي ٣٣٥ ـ ٣٣٦ ه فصنفوا كتباً في أخبار الوزراء

وصنع الصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عباد بن عباس الطالقاني المتوفى سنة ٣٨٥ ه كتاباً أسماه (أخبار الوزراء)

والّف علي بن محمد بن عباس المشهور بأبي حيان التوحيدي المتوفى بعد سنة ٤٠٠ ه (كتاب الوزيرين) وهما أبو الفضل العميد والصاحب بن عبَّاد

وجميع هذه الكتب لم تصل الينا

---

(١) انظر باب حركة النشر والتأليف من هذا الجزء

أيمان العرب في الجاهلية

صناعة أبي إسحاق إبراهيمَ بن عبد الله النجيرَميّ الكاتب

نقلاً عن نسختي الخزانة التيمورية (٣٦٢ لغة) ودار الكتب المصرية (٢٣٤ مجاميع)

﴿ باب آخر ﴾

وأما عبدة الاوثان فانهم كانوا يقسمون بها ، كقولهم « لا واللات والعُزَّى (١) ، لا ومَناة »

وربما أقسموا بما يعْتَر لها (٢) . وقد فرغ ابن الكلبي من أسماء الاصنام في كتاب الاصنام (٣) ، فأغنى ذكر ذلك ها هنا

وقد أقسمت العرب بالماء والسماء والنجوم . كقولهم « لا والسماء ، لا والماء ، لا والآيبات ، لا والطارقات ، لا والراكعات » وكقولهم « لا والسابحات » السابحات النجوم . ومنه قول الله تعالى « وكلٌ في فلك يسبحون » . والآيبات النجوم اذا تصوّبت للمغيب ، يقال منه آب النجم . والطارقات النجوم اذا طرقت أي طلعت . والراكعات اذا زالت عن كبد السماء

« لا ونفنف اللُّوح ، والماء المسفوح ، والفضاء المندوح ، والنور الموجوح » أي المحجوب . النفنف ها هنا ما بين السماء والارض وكل هواء بين رأس جبل الى أسفله فهو كذلك . واللُّوح الهواء بين السماء والارض ، وأضاف النفنف

(١) في صبح الاعشى (١٣ : ٢٠٣) ان اكثر حلف عرب الحجاز كان باللات والعزّى

(٢) قال ابن الاثير في النهاية : كان الرجل من العرب ينذر النذر يقول اذا كان كذا وكذا ، أو بلغ شاؤه كذا فعليه ان يذبح من كل عشرة منها في رجب كذا . وكانوا يسمونها العتائر وقد عتر يعتر عترا اذا ذبح العتيرة . وهكذا كان في صدر الاسلام وأوله ثم نسخ . قال الخطابي : العتيرة تفسيرها في الحديث أنها شاة تذبح في رجب . . وأما العتيرة التي كانت تعترها الجاهلية فهي الذبيحة التي كانت تذبح للاصنام فيصبّ دمها على رأسها

(٣) عني الاستاذ العلامة أحمد زكي باشا بتصحيح كتاب الاصنام لابن الكلبي وتحقيقه والتعليق عليه . وسيصدر قريبا من مطبعة دار الكتب المصرية

البيان

رَحيقُ النبيين [١] ، وإبريقُ العبْقريين [٢] ، وحظُّ المرْزوقين ، ونصيبُ المُوَفَّقين . وذَرا الجمال ، وذُرا الكمال [٣] ، والتوفيقُ الذي لا يُنال ، بسلطان ولا مال ، والخُلْدُ [٤] الذي يُؤخَذُ باليمين وغيره يُؤخَذُ بالشِّمال . صديقُ البشرية ، وعَدُوُّ الجَبَرية [٥] . حادي الإنسانية ، السائق بالمطية ، حتى تَبلُغ الطِّية [٦] . يمرُّ بها على الخيرِ ورُبوعِهِ ، والبِرِّ وينبوعِهِ . ويُقبِلُ بها على الحق وقبيله [٧] ، ويَعدِلُها الى العَدْلِ وسبيلِهِ . ويُلِمُّ بها على الجمال ومغناه ، وغُرَف لفْظِهِ تحت حُور معناه [٨] . ويلج بها على العَواطف ، حنايا الضلوع واللواطف [٩] . وهو الملك على كل اللُّغات ، قد انتظمَ سلطانُه أقطارَ البلاغات . إذا انتقل من لِسان الى لسان ، في أمانةٍ من الناقل وإحسان ، أسْرَع في مُضاهاتِهِ [١٠] وتمكن في جهاته ، تمكُّنَ اللسان من لهاته [١١] . فكأنه التغريدُ أو البغام [١٢] أو منطق الانغام ، ترجع له الامم وإن ذهبتْ كلُّ أمة بكلام

شوقي

(١) الرحيق الخمر ، شبه بها بلاغة الانبياء ، بجامع التأثير في كل : هذا في العقول وهذه في الأرواح

(٢) أي الابريق الذي يشرب منه العبقريون ، فيمطرون الناس روائع الحكمة وفصل الخطاب

(٣) الذرا (بالفتح) الملجأ . والذرا (بالضم) جمع ذروة وهي القمة

(٤) دوام البقاء والمقصود به هنا الذكر الخالد (٥) الجبروت

(٦) الجهة التي اليها تطوى البلاد (٧) القبيل الجماعة من أقوام شتى

(٨) يقال هذا البيت تحت ساكنه فلان ، وعلى هذا القياس يكون اللفظ تحت معناه

(٩) اللواطف من الأضلاع مادنا من الصدر

(١٠) أي أسرع في مشاكلة اللسان المنقول اليه

(١١) اللهاة اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم

(١٢) البغام صوت الظبية

﴿ باب ﴾

قال أبو عبيدة : « أوذَمَ فلان يميناً » اذا أوجب على نفسه يميناً . وأوذم فلان بالحج ، وأوذم بحجة كأنه ناط على نفسه بحجة كأنياط أوذام الدلو [١]

وكذلك « أبدعَ يميناً ، وأبدع بالحج ، وبحجة » أوجبها على نفسه

وقال ابن الاعرابى : « لاوالذى أكتعُ له » أى أحلف به . ومعنى أكتع أوكد لانه وكّد قوله باليمين من قولهم أجمعون اكتعون

أبو عبيدة « جيرِ [٢] » فى الايجاب بمعنى نعم وأجل . ويمين أيضاً . وقالوا « لاجير » بمعنى جير كما قالوا : لا أقسم

الكسائى : عَوْضَ وعَوْضُ [٢] . الامويّ : عوضَ ومن ذى عوضَ . وقال أبو عمرو عوض من اسماء الدهر ، فكثر فى كلامهم حتى حلفوا به

ومن أيمانهم « لا وجدِّك » أقسم بجده الذي هو حظه [٣] كما يقسم بعمره اذا قال « لعمركَ » وكما تقول « وعيشك » . فاذا قال « أجِدَّك » بمعنى أمُجِدٌّ أنت كانه قال أتجِدُّ جداً فى هذا القول ، فاضاف اليه الجِد وخرج عن باب اليمين

وقالوا « صبَره يميناً يصبرُه صبراً » والصبر الحبس ، كانه حبسه عنها [٤]

وقالوا « ألتَه يميناً يألته ألتاً » ومنه قول الله تعالى « لا يألتكم عن أعمالكم شيئاً » أى لا يحبس ولا يؤخر

وقالوا « حلف بالغَمُوس [٥] » أى بيمين تغمسه فى الاثم

(١) أوذم السقاء اذا شده بالوذمة وهو السير

(٢) المزهر ٢ : ١٦٨ والقالي ٣ : ٥٢ والمخصص ١٣ : ١١٦

(٣) المخصص ١٣ : ١١٦ . ولايزالون في دمشق يقسمون بالحظ فيقول احدهم «بحظي»

(٤) المخصص ١٣ . ١١٦

(٥) المخصص (١٣ : ١١٦) . وقال الخطيب الشربيني في تفسيره : اليمين الغموس هي ان يحلف على أمر ماض أنه كان ولم يكن . وفي محاضرات الراغب (١٠٨٩٢) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « اليمين الغموس تدع الديار بلاقع »

اليه . والمسفوح المصبوب .وعنى به البحر . والفضاء يعني الارض . والمندوح الموسع . وكانهم عظَّموا هذه الاشياء لأن بها قوام العالم

﴿ باب آخر ﴾

يقولون « قسَماً لأفعلنَّ ذاك ، ويميناً ، وأليةً ، ونحباً . وعهداً ، ونذراً ، وموثقاً ، وميثاقاً ، وحقاً (١) ، واحقَّاً ، وليميناً ، ولقسَماً » . وقال آخرون « لحقُّ لأفعل » يرفعون بغير تنوين مع اللام (٢) . والنحب النذر . وأنشد :

قضيتَ نحباً وجعلتَ نذرا (٣)

والإصر العهد . ومن أيمانهم « بإصر وأصر ليكوننَّ ذاك » وأنشد :

باصر يتركني الحي يوماً رهينة دارهم وهم سراعُ

ومعنى إصر : حَتْمٌ لازم . كما قال يلزم العهد وكما يلزم اصرة الرحم . ومنه الاصر الثقل لأن اللازم الواجب يثقل كأنه قال : حقاً ليتركني الحي . ومنه قوله : فان اكبر فلا بأطير اصر يفارق عاتقي ذكرٌ خشيبُ

أطيرٌ : فعيل من أطرَه ياطره أطراً إذا عطفه والمعنى ان عليَّ اصراً يعطفني على أن لا افارق هذا السيف . وهذا كقولك أقسمت انما وقع علي الفراق فصار الفراق منفياً

والالُّ : العهد ، وهو أيضاً من أسماء الله تعالى . وهو الرحم أيضاً . ويوشك أن يكون انما اشتمل على هذه المعاني الثلاثة ، لان العهد سبب منوط بسبب الله عز وجل ، ولأن الرحم شجنة من الله عزّ وجلّ . ومعنى شجنة من الله سبب منوط من الله عز وجل (٤)

(١) في الاصلين حنفاً ولم أجد له معنى وجيها (٢) المزهر ٢ : ١٦٨ والمخصص ١٣ : ١١٦ (٣) قولهم قضى نحبه كأنه ألزم نفسه أن يقاتل حتى يموت
(٤) الشجنة : الشعبة من كل شيء . يقال بينهما شجنة رحم ، كانها حبل من حبال صلته

وربما قالوا على سبيل الهزء منه

ويقال « حلف حلفاً ، وحلفة واحدة »

وقالوا « أقسم بالله » وأصله أنه وصل بالله تعالى الى قسم من الاقسام حلف به ، ثم كثر هـذا واتسع . والقسم مذكر ، يقولون « اقسم بالله قسَماً صادقاً ، وقسماً بارًّا »

وقالوا « آلى يؤلى ايلاء [1] »

وأصل « اليمين » أنهم كانوا اذا تحالفوا وتعاقدوا تصافقوا بأيمانهم ، ولذلك قيل « أعطاه صـفقة يمينه على هذا الامر [2] » ثم سموا الحلف يميناً على ذلك المعنى . وأنَّثوا اليمين على تأنيث اليد فقالوا « حلف يميناً برَّةً ، ويميناً فاجرة »

قال أبو عبيدة : كانوا فى الجاهلية الأولى اذا تحالفوا وتعاهدوا أوقدوا ناراً ودنوا منها حتى تكاد تحرقهم ، وعدَّدوا منافع النار ودعوا على ناقض تلك اليمين ، والناكث لذلك العهد ، بحرمان تلك المنافع ، ويتصافحون عندها ويقولون « الدم الدم ، والهدَم الهدم [3] » والمعنى دماؤنا دماؤكم وهدمنا هدمكم ، والهدم اسم البناء المهدوم ، أي فما هدم لكم من بناء أو شان فقد هدم لنا وما أريق لكم من دم فقد أريق لنا ، يلزمنا من نصرتكم ما يلزمنا من نصرة أنفسنا . وعبَروا على استعمال ذلك يتوارثونه الى ان أتى الله تعالى بالاسلام ، وكان الحلف بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين الانصار فقال صلوات الله وسلامه عليه لهم « الدم الدم والهدم الهدم »

وكانوا يقولون « عهدا لا يزيده طلوع الشمس إلا شدًّا ، وطول [4] الليالى إلا مدًّا »

---

(١) انظر ص ٢٤١ (٢) النهاية لابن الاثير (صفق)

(٣) النهاية لابن الاثير (هدم) والحيوان للجاحظ (٤ : ١٥٠) ولسان العرب (هدم)

(٤) في الاصل « وطلوع » وصححته من الحيوان (٤ : ١٥٠)

وقالوا « لا خير في يمين لا مَخارِم لها » أي لا مخارج لها . والمَخرِم منقطع أنف الجبل ، وهو الطريق فيه فشبَّهوا التأوُّل في المخلص من اليمين به . ويوشك ان يكون انما خصُّوا المخرم لانهم شبهوا اليمين بالجبل استثقالا لها فسمُّوا مجازها بمجاز الجبل

وقالوا « يمين جلواء ، وحلفة جلواء ، وبينة جلواء » أي ينجلي بها الحق وينكشف . وأنشد :

لكل أمر واقع أحناء شهادة أو حلفة جلواء
به تقوم الارض والسماء وكل شيء غير ذا عداء

وأحناء الامر أراد به أركانه ، أخذ من أحناء الرحْل ، الواحد حنو . والعداء الظلم . والمعنى ان كل شيء مرتفع فيه تنازع فهذه سبيله . قال زهير :

فان الحقَّ مقطعه ثلاث : يمينٌ أو نفار أو جلاء (١)

فاليمين معروفة ، والنفار المنافرة الى الحكام وهي المحاكمة اليهم ليفصلوا بالحق ، والجلاء البينة التي تجلو الشك والشبهة فتغني عن اليمين وعن التحاكم . واذا حلف الرجل قالوا له : جلا أبو فلان ، وتحلَّلْ ابا فلان (٢) أي استثن (٣) أي قل ان شاء الله . وربما قالوا ذلك على سبيل الاستعطاف للحالف والرفق به .

(١) كان عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه يعجب من حسن هذا التقسيم ويردد بيت زهير من التعجب . ورووا عنه أنه قال : لو ادركته لوليته القضاء لمعرفته بما تثبت به الحقوق . انظر البيان والتبيين ١ : ١٣٥ والصناعتين ٢٦٨ والعمدة ١ : ٣٠ وشرح بانت سعاد لابن هشام ١٦ (مصر سنة ١٣٢١) وغيرها

(٢) في الاصلين « وتحدل أبا فلان » وصححته من قول الراغب في المحاضرات (١ : ٣٠٠) : كانت العرب تسمى الاستثناء في اليمين « التحليل » . قال الشاعر :

تحلل أبيت اللعن في قول آثم

وقال : واذا حلفت مماريا فتحلل

وقال تعالى « تحلة أيمانكم »

(٣) ومن هنا سموها « المثنوية » المخصص (١٣ : ١١٥) . وفي محاضرات الراغب (١ : ٣٠٠) عن النابغة : حلفت يمينا غير ذي مثنوية

وانى لأرجو ملحها فى بطونكم وما بسطت من جلد أشعث أغبرا [1]

أي سمَّنتهم هذه الالبان بعد الهزال . وقال شتيم بن خُويلد :

لا يبعد الله رب العباد والملح ما ولدت خالده[1]

وأما كهان العرب فانهم كانوا يقسمون بالسماء والماء ، والارض والهواء ، والنور والضياء ، والظلمة ، وبغير ذلك مما هو موجود في أخبارهم ، كما أقسم سواد بن قارب الدَّوسى : « أقسمُ بالضياء والحَلَك ، والشروق والدَّلَكْ [2] » وهى كثيرة موجودة في كتب أخبارهم

﴿ باب ﴾

يقال آلى فلان يؤلي إيلاءً . قال : والاسم الاليَّة . فاذا قيل آلى يفعل ، وآليت أفعل ، فهو قسَم على ترك الفعل ، لأن اليمين بمنزلة النفى للفعل حتى يأتى باللام التى هى آلة للقسم ، كقولك آليت لافعلن . وكذلك قولك والله أفعل وأقسمت أفعل . وهذا مما يغالَط به ويجوز على كثير من الناس . وعلى هذا قول المتلمس :

آليت حَبَّ العراق الدهرَ أطعمه والحبُّ يأكله فى القرية السوسُ

هذا آخر ﴿ أيمان العرب ﴾

والحمد لله وحده ، وصلاته على خيرته من خلقه

سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا

(١) الحيوان للجاحظ (٤ : ١٥١) (٢) محاضرات الراغب (١ : ٣٠٢)

﴿ اليمين الرقيقة ﴾

قال عبدُ الله بن المعتزّ العباسي : بودّي لو أن لي بيتَ الخَثْعَمِيّ بألف بيت :

وآلت يميناً كالزُّجاج رقيقةً وما حلفتْ إلا لتحنَثَ من أجلي

و « ما بلَّ بحرٌ صُوفة [١] » و « ما أقام رَضْوَى [٢] »

وربما دنوا من النار حتى تكاد تمحشهم [٣] ، أو تكاد تحرقهم . ويهولون بها على من يستخف بحقوقها ، ويتوعَّدونه بحرمان منافعها ومرافقها [٤] ، وفى ذلك نكد العيش وحرمان الحيـاة

ويسمون الرجل القيم بأمر تلك النار « المهوِّل » [٥] وقد ذكرته الشعراء . قال الكميت :

كهولة ما أوقد المحلفون لدى الحالفين وما هوَّلوا [٦]

[و] قال أوس [بن حجر] وذكر عَيْراً قائماً فوق نشز :

اذا استقبلته الشمس صدَّ بوجهه كما صدَّ عن نار المهوِّل حالفُ [٧]

وكان من شأنهـم اذا تحالفوا أن يغمسوا أيديهم فى الدم ، وما زالوا على ذلك الى أن كان الحلف الواقع مشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حلف المطيَّبين وحديثه معروف [٨]

وكانوا ربما تعاقدوا وتعاهدوا على الملح . والملح عندهم شيئان : ملح الادام التى يتملح بها ، واللبن . وذلك أنه سواء عندهم [أن يجتمعوا على طعام وملح ، أو على شرب لبن . هـذا عندهم [٩]] مماحلة . ولذلك سموا اللبن ملحاً فقالوا من البابين جميعاً « بيننا ملح » وعلى هذا قال أبو الطمحان القيني :

(١) في تاج العروس : وصوفة البحر على شكل هذا الصوف الحيواني . ومن الابديات قولهم « لا آتيك مابل البحر صوفة » حكاه اللحياني

(٢) الحيوان ٤ : ١٥٠ . ورضوى جبل بين المدينة وينبع (٣) الحيوان (٤ : ١٥٠) والمخصص (٣ : ١١٥) والنهاية ولسان العرب وتاج العروس وغيرها

(٤) المخصص ١٣ : ١١٥ (٥) الحيوان ٤ : ١٥٠

(٦) محاضرات الراغب (١ : ٣٠٢) والبيان والتبيين (٣ : ١) والحيوان (٤ : ١٥٠)

(٧) البيان والتبيين (٣ : ١)

(٨) النهاية لابن الاثير (مادتا غمس ، وطيب) (٩) الزيادة من التيمورية

وانجاب كل حجاب كان منسدلا للغيب وانتفضت هام وأصداء
والانام دويّ في محافلهم والمزاعم في الارجاء ضوضاء
فارجع الى الفطرة المأمون جانبها فالوحي ابلج والالهام وضاء
قل للذين مشوا فوق الثرى مرحاً كم في الثرى أمم بادت واحياء
ما كان يطعمهم إلا ليأكلهم وليس تؤكل حتى تطعم الشاء

فؤاد الخطيب

السويس

بين الشرق والغرب

قال الشاعر الانجليزي كِپْلِنْغ « ان السويس هي آخر مراحل المدنية من الغرب » أو شيء من هذا . أي انك اذا كنت قادماً من أوربة ، تودّع المدنية ساعة تجتاز الترعة

وقد فات كپلنغ وهو شاعر ، وللشاعر شيء من النبوءة ، ان مصر ، وهي أم السويس ، ستنفي في المستقبل قوله ، أو ستصلحه ، فتكون السويس اذ ذاك أول مرحلة من مراحل المدنية في الشرق

وها هي ذي اليوم ، شقيقة العرب وشقيقة الهند تسير في تلك الجادة البيضاء التي ظنّ الشاعر أن الترعة آخرها ، فترفع للمدنية أعلاماً في الشرق الادنى ، وتفتح أبواباً للحرية والاستقلال ، تدخلها الشعوب العربية كلها إن شاء الله

أمين الريحاني

السويس في ١ نوفمبر سنة ١٩٢٤

نشيد الافول

يارائد القوم ان القوم أنضاء … والبيد طامسة و الريح هوجاء
فيم اختراقك للآفاق مقتحما … ضنك الحتوف ولم تحبسك وعثاء
اين الصديق ، واين المستعان به ؟ … هيهات ! قد ذهبت بالود عنقاء

***

هات الدموع وحسبي في البلاء بها … أن الدموع يدٌ لله بيضاء
فالغيث يوم تكون الارض مجدبةً … كالدمع يوم تمسُّ النفسَ ضرّاء
سلِ الترابَ فكم فى طيه اختبأت … عين يحدثنا عن دمعها الماء
وما الخرير سوى شجو يغص به … كما تغصّ بشجْوِ البين خرساء
ما انفك متصل الاسباب منسجما … في الارض منذ بكت في الارض حواء

***

ياساقي الراح صرفاً أو مشعشة … دعني ، فراحة تلك الراح إعياء
وكيف أنهض بالروحين في جسدٍ … مِن حَمل واحدة اودى به الداء
صفراء كالورس أو حمراء ساطعة … في الكأس صافية في الرأس كدراء
ان كنت تطمع فى صهباء تشربها … فسائغ الشعر للارواح صهباء
كم شاعر لمس الاقلام فاندفعت … شدواً كما صدح المزمار والناء
طوراً يئن واحيانا ينوح بها … كما تنوح على الارواح ورقاء
حكت مزاميرَ داود قصائدُه … كأنما هي من جبريل املاء
فطار بي في السماء الشعرُ منتقلا … فكان لى فى سماء الشعر إسراء

وقد ألقى السنيور يوا كين نافاسكوس Yoaquin Navascues مدير المتحف الاثري فى قرطبة محاضرة أتى فيها على بيانات مهمة جداً عن الحفريات الجارية الآن للعثور على آثار الزهراء . وان ما اكتشف منه حتى الآن جدير بالذكر وذو قيمة عظيمة فى نظر العلم الأثري . ويمكن التأكيد أن فِناء القصر كان مستطيلاً بين اضلاعه المتوازية زوايا قائمة ، وقد أصبحت آثاره ظاهرة تماماً . وأحد جدرانه ـ وهو الجدار المتوسط ـ يبلغ طوله ألفاً وخمسمائة متر . وكان فى هذا الفِناء غير الدار المسماة بالقصر عدد من الأبنية أعدت لكبار رجال الدولة . وهنالك ساحة لم يعثروا فيها على أثر للبناء ، والمظنون الآن أنها كانت حدائق

وقد استرشدت اللجنة القائمة بادارة الحفريات بوصف حفلة دفن الخليفة الناصر الذي تركه لنا مؤرخ من معاصريه فدلها ذلك الوصف على خطط الدار التي كانت تسمى (دار القباب) وفيها كانت تقطن حرم الخليفة ، وعلى خطط (دار المخطوبة) حيث كان يجلس رجل الدولة

وظهرت آثار كثيرة ومهمة فى خلال التنقيب المستمر منذ بضع سنين . ومما استخرجوه اعمدة وتجاويف جميلة من الرخام ، وتيجان اللاعمدة تخلب الانظار بمحاسنها ، وفسيفساء وأوان خزفية وزجاجية . وهذه الآثار معروضة الآن فى متحف صغير أنشيء فى مكان التنقيب الذي لا يزال مستمراً بهمة ، وربما جاءنا بمفاجئات لم تكن فى الحسبان

أندرِ مقيل

﴿ الزهراء ﴾ — سنأتي فى العدد الآتي على وصف مسهب لهذه المدينة التي كانت من أعظم مفاخر العرب فى الهندسة ودقة الذوق وإحكام الصنعة

مدينة الزهراء

ـ التي اختطها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٥ هـ ـ

والتنقيب الجاري الآن لاكتشافها

كتب المسيو اندْرِ مڤيل M. André Mévil في العدد ٣٠٠ من جريدة الديبا لسنتها ١٣٦ الصادر يوم ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٢٤ ما يأتي :

مابرح التنقيب جارياً منذ بضع سنوات ـ بمساعى دون ريكاردو ڤالاسكاز المهندس Don Ricardo Valasquez المكلف بتجديد جامع قرطبة ـ للكشف عن آثار القصر العربي الشهير الذي يذكّرنا بقصور ألف ليلة وليلة ، وأعني به قصر (الزهراء) الذي شيده بقرطبة الخليفة عبد الرحمن الناصر في القرن العاشر الميلادي اكراماً واجلالا لاحدى نسائه

ويؤخذ من أقوال كاتب عربي من أهل ذلك العصر أن الخليفة الناصر أشرف بشخصه على إنشاء (الزهراء) الذي استخدم فى تشييده عشرة آلاف عامل ، وكانت مواد البناء تنقل على ألف بغل وأربعمائة جمل ، ويؤتى في كل ثلاثة أيام بعشرة آلاف حمل من الكلس والجصّ

أما جدران الزهراء — التي يصحّ أن يقال إنها من صنعة الجنّ — فكانت قائمة على أربعة آلاف وثلاثمائة عمود من الرخام الابيض الذي جيء به من ايطاليا ، ومن الرخام الاخضر والوردى الذى جيء به من تونس وأماكن أخري . ودام البناء مدة خمس وعشرين سنة . وبلغ ما انفق عليه سبعة ملايين وخمسمائة الف دينار ذهباً . وبصرف النظر عن الخيال الشرقي فان هناك فى الواقع بناءً عظيم الاهمية جداً ، وهو فى أقصى غايات الجمال

بدون انقطاع ، فوقف زياد يوماً على المنبر يخطب فقال في خطبته :

« لآخذن المحسن بالمسيء ، والحاضر بالغائب ، والصحيح بالسقيم . . . »

فقام اليه أبو بلال مرداس بن حدير ـ أحد بني ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ـ وكان بالمسجد فقال :

ـ ما هكذا ذكر الله اذ يقول « وإبراهيمَ الذي وفّى ، ألاَّ تزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرَى ، وأنْ ليس للانسان إلاَّ ما سعى ، وأنّ سعيَه سوف يُرى ، ثم يُجْزاهُ الجزاءَ الاوفَى »

ثم ألحّ زياد في طلب الذين نقموا عليه أعماله ، فصار يقتل بالظنة ؛ ويخصّ من شاء بالفيء ؛ فأجمع أبو بلال هو وأصحابه أمرهم على الخروج ، فقال لاصحابه :

ـ ان الاقامة على الرضى بالجور لَذنب ، وإنَّ تجريد السيف واخافة الناس لَعظيم ؛ ولكن نسير في أرض الله ولا نجرّد سيفاً ؛ واذا أرادنا قومٌ بظلم امتنعنا منهم

فقالوا له : ـ أنت رئيس المسلمين وبقيتهم

فخرج فى ثلاثين من أصحابه ، فلقيه على جسر البصرة عبد الله بن رباح عامل عبيد الله بن زياد ـ وكان صديقاً لأبى بلال ، وكان فاضلا ـ فراودهم على الرجوع ، فأبوا . فأتوا الاهواز فأصابوا أموالا تحمل لابن زياد ، فأخذوا أعطيتهم منها وتركوا الباقى

ولما بلغ الأمر عبيدَ الله بن زياد وجه اليهم جيشاً فى ألفين عليه أسلم بن زرعة ، فاقتفى الجيش أثر أبي بلال وجماعته . ومرَّ ناس على أصحاب أبي بلال فسلموا عليهم فردوا عليهم التحية ، فقال لهم أصحاب أبى بلال :

ـ أمن هذا الجيش الذي يريد قتالنا ؟

صفحة من تاريخ الاباضية

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان عند الاباضية ، وقِسْمان عظيمان من أقسام الاسلام وجبا على كل شخص متى نيطت به عُهدة التكليف ، يستوي فى هذا الواجب الذكور والاناث كلٌّ فى جنسه ؛ لِما ورد فى الكتاب العزيز من الآيات الموجبة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمادحة لهما — كقوله سبحانه « ولْتَكُنْ منكم أُمَّةٌ . . . » الآية وقوله « والمؤمنون والمؤمنات بعضُهم أولياءُ بعض . . . » ، وآياتِ الوعيد على تركهما كقوله تعالى حكايةً عن بنى اسرائيل « كانوا لا يتناهَوْنَ عن مُنكَر فعلوه . . . » الآية — ولِما ورد فى السُّنَّة الصحيحة كقوله عليه الصلاة والسلام « لتامرُنَّ بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر أو ليسلطنّ اللهُ عليكم شِرارَكم فيدعو خيارُكم فلا يُستجابُ لهم » وأمثال ذلك

ولم تزل الاباضية هذه السيرة ، وفيهم هيئات دينية تقوم بهذا الواجب شبيهة بجماعة الأئمة العادلين تحرس الشعب من تطرُّق البدع اليه ، وربما أفردنا لها مقالاً بعدُ . وان العلماء يقومون بهذا الفرض فعلاً ، والعامة لساناً ؛ فاذا زاغ الامام أو ترك القيام بالحدود الشرعية وجب على جماعة المسلمين الأمر بالمعروف والنهي على المنكر بالقوة إن استطاعوها . لهذا كان الاباضية يقومون فى وجوه أئمة الجور ، والدليل الصحيح لهذا قوله صلى الله عليه وسلم « من عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو رَدّ[1] » وهذا الحديث معدود من أصول الاسلام وقاعدة من قواعد الدين

ولما اشتد الاضطراب في البصرة إذ تولّى حكمها رجال عتاةٌ لا يرقبون واجباً ، فازداد الامر ارتباكاً ، ووضعوا السيف فى الرقاب ؛ كانت القلاقل متوالية

(١) ورد في (المسند الصحيح) للربيع بن حبيب الفراهيدى البصرى

ثم أرسل اليهم ابنُ زياد عبّادَ بن أخضر فى أربعة آلاف مع من انضم اليهم ، فلما التقوا بأبى بلال قال لعبّاد :

ـ ما تريد ؟

قال له : ـ أردّكم الى ابن زياد

قال : ـ أتدعونا الى طاعة من يسفك الدماء ، ويأخذ المال الحرام ، ويعطل الحدود ، ويرتشي فى الحكم ، ويتسلط بالجبروت ، ويقتل بالظنة ، ويأخذ على التهمة ، لا يقيل عثرة ولا يقبل معذرة ؟

قال : ـ نعرف ما تقولون ، ولكن لهم مع ذلك الطاعة

وقيل انه قال : ـ كذبتم ، هو خير منكم ، وأنتم أولى بالضلال منه

وقدم القعقاع بن عطية الباهلي من خراسان يريد الحج ، فقال :

ـ ما هذا ؟

قيل له : ـ الشُّراة

فحمل عليهم . وانتشبت الحرب فى يوم جمعة وأبو بلال يتلو « من كان يريد حَرْثَ الآخرة نَزِدْ له فى حرثه . . » الآية . فأُسر القعقاع ، فقال لابى بلال :

ـ لست من اعدائك ، وانما خُدعتُ ولم أعلم

فأطلقه . ورجع يقاتله ، فحمل عليه رجلان من أصحاب أبى بلال يقال لهما حُريث وكهمس ، فأسراه وقتلاه . وكان وقت صلاة الجمعة ، فنادى أبو بلال :

ـ إنا فى يوم عظيم ، فدعونا حتى نصلي وتصلوا

فأجابوهم . فلما دخل في الصلاة هو وأصحابه كرّوا عليهم فقتلوهم بين راكع وساجد عن آخرهم

وأبو بلال ممن اشتهر بالورع والعلم والشجاعة ، وله وقائع اخرى

***

قالوا : — لا

فقال أبو بلال : سلمكم الله ، ابلغوا من لقيتم أنا لم نخرج لنفسد فى الارض ، ولا نقاتل إلا من اكرهنا على قتاله ، ولا نأخذ من الفيء إلا اعطيتنا

وبلغهم أسلم بن زرعة وهم في آسك من نواحي الاهواز بين أرجان ورامهرمز ، وكانوا فى أربعين رجلاً فقالوا لأسلم بن زرعة :

— اتق الله ، فانا لانريد قتالا ، فما تريد ؟

قال : — أردّكم الى ابن زياد

قالوا له : — يقتلنا ، فتشاركه فى دمائنا ؟

قال : — نعم ، دماؤكم حلال ، وهو محقّ

قالوا : — اللهم ان كان كاذباً فانصرنا عليه

فاقتتلوا ، فانتصر أبو بلال وأصحابه . فقال فى ذلك عيسى بن فاتك الخطّي — أحد بنى تيم الله بن ثعلبة — فى كلمة له :

فلما أصبحوا صلوا وقاموا الى الجُرد العتاق مسوّمينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم فظلّ ذوو الجعائل يُقتلونا
بقيةَ يومهم حتى أتاهم سوادُ الليل فيه يُراوغونا
يقول بصيرُهم لما أتاهم بأن القوم ولّوا هاربينا
أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا

وغضب عبيد الله بن زياد على أسلم ، فقال أسلم :

— لأن يذمني ابن زياد وأنا حي ، أحب اليّ من أن يمدحني وأنا ميت

ـ هٰـذه أطيب نفساً عن بقية الدنيا منك ، مامن ميتة أموتها أحبّ الىّ من ميتة البلجاء

وكان ابو بلال وأصحابه اذا اشتدت بهم الحاجة باعوا حلى سيوفهم ، ولا يأخذون شيئاً الا عطاءهم

* * *

وقام فى أوائل القرن الثانى (١٢٩ هـ) طالب الحق عبد الله بن يحيى بن عمر بن الاسود بن عبد الله بن الحارث بن معاوية بن الحارث الكندى ، وكان قاضياً لابراهيم بن جبلة عامل القويسم على حضرموت وهو عامل مروان بن محمد ، وأظهر القويسم الجور باليمن وحضرموت فنزع الناس الى عبد الله بن يحيى . فكتب الى أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة التميمى ـ الامام اذ ذاك بالبصرة بعد أبى الشعثاء وأنبغ من أخذ عنه ـ يستشيره فى الامر ويسترشده . فأجابه :

ـ ان استطعت فلا تمق يوماً واحداً

وأرسل اليه جماعة من الأبطال يعتمدهم فى أموره ومهماته ، ويتولون جيوشه . منهم أبو حمزة المختار بن عوف بن سليمان بن مالك بن فهر الازدي أحد بنى سلمة [1] ، فكتب اليه يصف أبا حمزة « انا بعثنا لك برجل قرآنه فى صدره » يعنى علمه بالقرآن . ومنهم بلج بن عقبة الازدى أحد بنى مسعود وكتب اليه « انا بعثنا لك اثنى عشر رجلا وألفاً » يعنى بالالف بلج بن عقبة وكان من الابطال المعدودين

ولما وصل هؤلاء الى عبد الله بن يحيى استولى على صنعاء ، وخلص له اليمن ، فقسم ماوجد من الاموال على فقراء صنعاء ، ولم يتبع مدبراً ولا أجهز على جريح ولا استحل شيئاً من الاموال وفر القويسم عامل مروان

(١) في كتاب الاشتقاق لابن دريد : أحد بنى سايمة بن مالك

وذكر عبيدُ الله بن زياد البلجاءَ الحزاميّة[1] من بني حزام بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، وكانت مشهورة بالعلم والورع والزهد والنسك . فلقى غيلانُ بن خرشة الضبي أبا بلال فأخبره بأن الامير يذكر البلجاء . فمضى أبو بلال اليها فقال لها :

— ان الله جعل لاهل الاسلام سَعةً في التقية ، فان هـذا الجبار المسرف ذَكرَكِ

قالت : — أكرهُ ان يصل الى أحد مكروهٌ بسببي ، فان أخذني فهو أشقى له

وأخذها فقال لها : إنك حرورية محلوقة الرأس

فقالت : ما أنا كذلك

قال : لأُرينّكم منها عجبا ، اكشفوا رأسها

فمنعتهم . فقال لأَكشفنَّ احسن بضعة منك

فقالت : لقد سترته حيث لم تستره أمك

قال : إيه ، ما تشهدين عليّ ؟

قالت : شهد الله عليك ثلاث شهادات بقوله « ومن لم يحكم بمـا أنزل الله فاولئك هم الـكافرون — و — الظالمون — و — الفاسقون » وشهدتَ على نفسك أن أولك لزينة وآخرك لدعوى

فمضّ على لحيته ، فقتلوها . فخرج أبو بلال فى جنازتها فقال :

— لو أعلم أنى أُبعث على ما تبعث عليه لعلمت أنى ابعث سويًا على صراط مستقيم

وروى أنه قطع يديها ورجليها وطرحها فى السوق فمرّ بها أبو بلال فقال :

---

(١) ويروى البثجاء

جميع ما فى عسكره من الاموال التى أخذها ، فسلمها لهم فأخذوا ما عرفوا . ثم أرسل اليه مروان أن يلتحق بالحج ليصلى بالناس ، فخرج فى نفر من أصحابه مبادراً الى الحج وجيشه خلفه ، فوافق رجلين من الاباضية أخوين يعرفان بابنى جمانة ، فظناه منهزماً ، فدخلا هما وأصحابهما عليه قرية بات فيها ، فقتلوه هو وأصحابه

وهنا انتهت سلطة الاباضية ـ أبى حمزة وطالب الحق ومن معهم ـ بالحرمين واليمن ، وانحصرت فى عُمان

ابو اسحاق : ابراهيم اطفيش

يا بلادي

أقيمت لخليل بك مطران حفلة تكريم فى (بستان الانشراح) بشفرحيفا وهو عائد الى مصر ، وألقى فى تلك الحفلة قصيدة منها هذه الابيات :

يا بلادي اليكِ يهفو فؤادي كلَّ آنٍ شوقاً ويلتاعُ وجدا
كلما اشتدتِ الصروفُ بأهليـــكِ نما ذلك الهوى واشتدّا
كيف لا توهب الحياة فدى شعـــبٍ كهذا الشعب العزيز المفدّى
وطني الباكي الحزين الذي نشـــرب فيه أسىً ونشرَق سُهدا
ان تُجزَّأ من وحدة لم يكن حدُّك في القلب غيرَ ما كان حدّا
كيف يبني ذاك المفرّق حسّا في بني الأمّ بين روحين سدّا
من ذُرى كرملٍ الى حلبٍ الـــسفيت قرباً ما كان يُحسب بعدا
وطني لو ببعدنا عنك يوماً بيع خلد النعيم لم نشرِ خلدا

خليل مطران

وفى موسم الحج وجّه عبدُ الله بن يحيى الى مكة أبا حمزة المختار بن عوف وبلج بن عقبة وابرهة بن على فى جيش لأداء فريضة الحج وتأمين السبل وإنقاذ الحرمين من الجور . فمشت السفراء بين أبى حمزة وعبد الواحد والي بنى أمية بأن يلتزم الفريقان السلام الى أن يتم للناس حجهم ، فبقى أبو حمزة محايداً ، وكان بلج بن عقبة يأتى الجمار مصحوباً بقوة من الخيل خوف الغدر به . فلما تم الحج وقضى الناس مناسكهم فرّ عبد الواحد ليلا الى المدينة . فاستولى أبو حمزة على مكة ، وخطب على منبرها ، وأقام فيها ما شاء الله

ثم قصد ابو حمزة المدينة فاستولى عليها ، وخطب خطبة وعتها القلوب لم تزل من متخيَّر القول ومن منتقيات الترسُّل عند أهل الادب . وكان من الذين حضروها وحفظوها مالك بن أنس اليحصبى عالم المدينة

وخرج أبو حمزة يريد الشام، فثار عليه أهل المدينة ، وكان قد وصلت جيوش الأمويين وعليها عبد الملك بن عطية فالتقى الفريقان . فقال أبو حمزة :

ـ ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ، فالى مَ تدعوننا انتم ؟

قالوا : — ندعوكم الى طاعة مروان

فاقتتلوا ، وكانت الواقعة بقديد ـ بين مكة والمدينه ـ انتصر فيها الامويون بعد أن خسروا من جيشهم نحو أربعة آلاف . فرجع أبو حمزة الى مكة وهم فى أثره حتى ادركوه ، فوقع بينه وبينهم (يوم مكة) وفيه قتل أبو حمزة وقتل معه أبو الحرّ على بن الحصين العنبرى وكان من خيار علماء المسلمين وفقهائهم بمكة ومن الاغنياء الاجواد المنفقين فى وجوه البرّ

ثم سار عبد الملك بن عطية الى اليمن فتغلب على عبد الله بن يحيى الكندي فقتله . وسار الى حضرموت فقاتله أهلها ، فتحصن منهم في قرية هناك ، فحاصروه أربعة وعشرين يوما ، حتى أعياه الامر فطلب منهم الصلح فصالحوه على أن يردّ

من الاسماء العربية المستعملة بكثرة فى ألقاب العائلات العربية الأصل المنتصبة بافريقية فى ذلك الزمان » اه بلفظه

أقول وهذا القول لا يصلح للالتفات إلا أننا نضيف الى ما مر عدة دلائل

(١) لا تكاد تعثر على أسماء أجداد الذين أسلموا كياقوت بن عبد الله الرومىّ — وهذا بعينه شأن ابن رشيق فان أحداً لم يذكر جدّه. فان الاسلام يَجُبّ ما قبله

(٢) ليس قولا لبعض أصحاب التراجم بل لجمهورهم

(٣) الرشيق معناه الحسَن القوام وهذه الصفة تصلح للغلمان لا الاحرار. فان الموالى كانوا يسمّونهم أفلح ورباحا ومَيْسَرة ورشيقاً الى غير ذلك نظراً الى فوائدهم هكذا قال علماء اللغة والاشتقاق ـ وإنى مع كل هذا أزيدك ثلاثة اسماء نقل ياقوت[١] فى ترجمة احمد بن رشيق الاندلسى عن الحميدى أن أباه كان من موالى بني شُهَيْد ـ ورشيق آخر[٢] غلام بَجور وآخر[٣] خادم الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان

وهذا اختراع له آخر قال فى البساط[٤]:

ومما نتيقّنه أن الحسن وُلد بالمحمدية نواحي سنة ٣٨٥ ولا صحّة لمن قال سنة ٣٩٠ وحسبنا شاهد (كذا) ما ذكره ابن رشيق فى أحد تآليفه عند ترجمته لبعض الشعراء الأندلسيين حيث قال: اجتمعت به بالمحمدية سنة ٤٠١ هـ. ولا يعقل أن يكون سنّ ابن رشيق إذ ذاك عشرة أعوام وهو يجالس الادباء المشاهير

أقول وهذه فِرْية بلا مِرْية كما ترى ـ وبحسبك قول ابن رشيق فى

(١) معجمه ١ : ١٢٧ (٢) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانيسي ٣٥ (٣) ابن تغرى بردي ليدن السنة ١٨٥٥ م ـ ٢ : ٣٨ (٤) ٥٦

ابن رشيق

— من محاضرة الاستاذ عبد العزيز الراجكوتي —

﴿ ولادته ﴾

وأيام تربيته بالمسيلة (المحمدية)

قال ابن بسام فى ذخيرته [١] « بلغني انه وُلد بالمسيلة وتأدّب بها قليلا ثم ارتحل الى القيروان سنة ست واربعمائة » وقال بنفسه [٢] فى آخر انموذجه « صاحب الكتاب هو حسن بن رشيق ، مولى من موالي الأزد . وُلد بالمحمدية سنة ٣٩٠ ه وتأدّب بها يسيراً وقدم الى الحضرة سنة ٤٠٦ ه وامتدح سيّدنا (المعزّ) سنة عشر » اه . قال ابن خلكان وقال غير ابن بسّام وُلد بالمهدية اه أقول والقول مردود بتصريح ابن رشيق على أن ابن فضل الله نسبه الى المسيلة وهذه النسبة لا تتأتى إلاّ بالولادة فان نشأه كان بالقيروان على الاتفاق . وكان أبوه رشيق مملوكاً رومياً كما يفهم من عبارة الانموذج المارّة وعلى ما صرّح نفسه [٣] فى الرد على ابن شَرَف بعد ذكره نسبَ ابن شَرَف . هو اسم امرأة نائحة « وأما أنافنظر الله فى وجهة (كذا) هذا الشيخ إليّ ، وأتمّ به النعمة عليَّ . فما أبغي به أبا ، ولا أرضى بمذهبه مذهبا . رضيت به روميا ، لادعيا ولا بدْعيا » وكان مولًى لأزديّ كما مر ـ وهكذا يعلم من الوفيات وإنباء الرواة [٤] والمسالك . إلا أن صاحب البساط ضرب في حديد بارد وأخذ فى الدعاوى وهاك ما قال [٥] :

> والذي تحقق لدينا بعد الفحص الطويل عن حياة و(كذا) أخبار هذا الفحل أنه لم يثبت بكيفية قطعية أن أصل أبيه مملوك رومي كما يزعمه بعض أهل التراجم بدليل أن اسم رشيق هو

(١) ابن خلكان ١ : ١٣٣ وأمارى عن مسالك الابصار ٦٥٠

(٢) معجم الادباء ٣ : ٧٠ (٣) ٣ : ٧٠ (٤) في مجموعة أماري (٥) ٥٦

وكان يطرح على تلامذته عويصات المسائل يَسْبُرُ غَوْرَهم فمن ذلك ما نقله صاحبنا فى عمدته[(١)] قال وحاجَى شيخنا أبو عبد الله بعض تلاميذه فقال له :

احاجيكَ عبّاد كزينب فى الورى ولم تُؤْتَ إلا من حميم وصاحب

فأجابه التلميذ بأن قال :

سأ كتم حتى ما تُحِسّ مدامعى بما انهلّ منها من دموع سواكب

فكان معكوس قول أبي عبد الله عباد كزينب [فى الورى] « سِرُّكَ ذائع » فقال الآخر سأ كتم فأجابه على الظاهر إجابة حسنة ومعكوس سأ كتم « منك أتيت » فكأنه قابل به قول الشيخ ولم تؤت الا من حميم وصاحب وهذا كله مليح اه فهذا يدلّ على فضل القزّاز وأنسه بطَلَبته وعلى اصابة التلميذ وما خُصّ به ذلك العهد من نَفاق سِلعة الادب ورواج سوقه . وتوفى سنة ٤١٢ ه وترجم له ياقوت وابن خلكان

أبو إسحق إبراهيم الحُصْرى صاحب زهر الآداب ذكره فى أنموذجه وقال انه توفى سنة ٤١٣ ه وقال ابن بسام سنة ٤٥٣ قال ابن خلكان[(٢)] وذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى كتاب الجنان أنه ألف زهر الآداب فى سنة ٤٥٠ وهذا يدل على صحة ما قاله ابن بَسام ه . أقول وهذا غريبٌ إذ يبعد أن يميت صاحبنا شيخه أو بلديه قبل موته الطبعى بـ ٤١ سنةً ــ وليس لدينا امارة على أنه شيخ لصاحبنا الا قول صاحب البساط وهو مجتهد لا يصيب الا قليلا . قال ابن رشيق[(٣)] وقد كان أخذ فى عمل طبقات الشعراء الخ راجع الحكاية فى الميم من النتف . وهذا يدل على انه لم يكن شيخا له اذ لا يمكن أن يسيء به الادب وهو استاذ له

أبو محمد عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي وقد أكثر[(٤)] من النقل عن كتاب

(١) ١ : ٢١١ ـ ومعجم الادباء ٦ : ٤٦٩ (٢) ١ : ١٤ـ (٣) معجم الادباء ١ : ٣٥٩
(٤) العمدة ١ : ٤٥، ٥٢، ٥٨، ٧١، ٧٢، ٩٤، ١٣٨، ١٦٥، ١٦٩، ١٨٨ـ ٢ : ٩٤، ١٩٢، ٢٢٨

نفسه أن مولده سنة ٣٩٠ ﻫ . ولا أدري لماذا خص السنة ٣٨٥ﻫ للولادة مع أن أحداً لم يقل به فيما أعلم . على أنه لم يسم كتاب ابن رشيق وهذا لا يجوز في مقام الاحتجاج وان كان لنا أن نقول انه يمكن لابن إحدى عشرة سنة أن يجتمع بالادباء وابن رشيق كان آية في الذكاء وغاية في قوة القريحة في صِباه كما يدلك عليه قوله في الحُصْريّ في الميم من النُتَف

وكان ابوه صائغاً كما في الكتب السابقة بلا خلاف لاجوهرياً كما قال محمد بن شنب الجزائري صاحب المقالة عليه في دائرة المعارف الاسلامية بالانكليزية . وعلمه أبوه صناعته مع شيء من العلم إلا أن قريحته الوقادة لم تجد ببليدة المسيلة مجالا فارتحل الى القيروان لتكميل العلوم سنة ٤٠٦ ﻫ

﴿ شيوخه ﴾

أبو عبد الله محمد بن جعفر القَزّاز القيرواني إمام اللغة بلامنازع صاحب الجامع في اللغة الذي يقارب تهذيب الأزهري كما قال ياقوت ترجمه صاحبنا (١) في أنموذجه فقال « فضح المتقدمين وقطع ألسنة المتأخرين وكان مَهيبا عند الملوك والأمراء وخاصةِ الناس محبوباً عند العامّة قليلَ الخوض الا في علم دين أو دنيا يملك لسانه ملكا شديداً » وزيّن عُمدته أيضاً (٢) بنقل اقواله وما جرى له في مجلسه متأدّبا ولم أجده مزيّفا لقول له أو ناقداً عليه ـ ويظهر أن كتب (٣) أئمة اللغة والأدب كأبي زيد وأبي حاتم والمبرّد وابن دُريد وصلته بهذا السند « أنشدنا أبو عبد الله محمد بن جعفر النحويّ (القزّاز) عن أبي على الحسين بن ابراهيم الآمديّ عن ابن دُرَيد عن أبي حاتم السجستاني عن أبي زيد الانصاريّ » وبهذا « أخبرنا القزاز عن الآمديّ المذكور عن عليّ بن سليمان الأخفش عن محمد بن يزيد المبرّد »

(١) ياقوت ٦ : ٤٦٩ والوفيات ١ : ٥١٥ (٢) ١ : ٦٨ ، ٨٥ ، ١٠٢ ، ١٢١ ـ ٢ : ٦٣ ، ١٥٠ ، ١٩١ وغيرها (٣) ١ : ١٢١ ـ ٢ : ١٩١ ، ١٥٠

ابو عبد الله عبد العزيز بن أبي سهل الخشني الضرير المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ذكره فى موضعين من عمدته مرة كناه أبا عبد الله[١] واخرى أبا محمد[٢] وهذه ترجمته فى الأنموذج[٣] «كان مشهوراً بالنحو واللغة جدّا مفتقَرا اليه فيهما بصيرا بغيرهما من العلوم ولم يُرَ قطّ ضرير أطيب منه نفسا ولا أكثر منه حياءً مع دين وعفّة وكان شاعراً مطبوعاً سلك طريق أبي العتاهية فى سهولة الطبع ولطائف (كذا) التركيب ولا غناء لأحد من الشعراء الحُذّاق عن العَرْض عليه والجلوس بين يديه مات سنة ستّ واربعمائة وقد زاد على السبعين»

الشيخ ابو عبد الله[٤] محمد بن ابراهيم بن السمين ذكره فى العمدة فى غير ما موضع وكان يعرض عليه مشكلات المسائل فيحلها له

القاضى ابو الفضل[٥] جعفر بن أحمد (أو محمد) النحوى ذكره فى موضعين من عمدته على ما أدى اليه نظرى . ويمكن أن يكون له من المشايخ غيرهم أيضا يذكرهم فى العمدة[٦] تارة بلفظ الشيوخ واخرى بلفظ بعض الشيوخ

﴿ تلامذته ﴾

من الأسف أنا لم نعثر فى هذا الفصل الاّ على قطرة من عدٍّ وها كها :

ابو محمد عبد الله بن يحيي بن حمود الُحزَيْمىّ (كذا) يروى عن ابن رشيق شعره فالله أعلم أيرويه عنه بواسطة أو بدونها فى جزء[٧] من شعره الموجود بمكتبة اسكوريال

ابو عبد الله الصفار[٨] (أو ابن الصَفَّار[٩]) الصقلىّ كان هاجر من صقليّة الى القيروان للاجتماع به ولسماع شعره حين تغلّب عليها الروميّون كما سيمرّ بك حكايته

(١) ١ : ١٢٤ (٢) ٧٢ (٣) البغية ٣٠٨ والبساط ٥٧ (٤) ١ : ١٤٤ـ٢ : ٢٣
ولما أن القزاز أيضا أبو عبد الله يمكن أن يكون وقع ثم تداخل فى حوالات الرجلين
(٥) ١ : ٥٧ و ١٠٣ (٦) ١ : ١٤١ وغيرها (٧) أمارى ٦٨٠
(٨) البدائع ٢ : ٣٦ (٩) مسالك الأبصار أمارى ٦٥١

له فى الشعر قال فى باب عمل الشعر (١) « وحدثني بعض أصحابنا من أهل المهدية وقد مررنا بموضع بهـا يعرف بالكدية هو أشرفها أرضاً وهواء قال جئت هذا الموضع مرة فاذا عبد الكريم على سطح بُرْج هنالك قد كشف الدنيا فقلت أبا محمد . قال نعم . قلت ماتصنع ههنا قال ألقّح خاطرى وأجلو ناظرى. قلت فهل نُتج لك شيءٌ . قال ماتَقَرّ به عيني وعينك إن شاء الله تعالى . وأنشدنى شعرا يدخل مَسامَّ القلوب رقّةً . قلت هذا اختيار منك اخترعتَه قال بل برأى الأصمعى اه» ويوجد كثير من شعره فى العمدة(٢) وزهر الآداب(٣) ونثار الأزهار(٤) وغيرها . وقال فى موضع آخر من العمدة (٥) وذكر من لم يَهْجُ من الشعراء « وقد كان فى زماننا من انتحل هذا المذهب وهو أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم لم يهجُ أحدا قطّ ومن أناشيده فى كتابه المشهور لغيره من الشعراء :

ولست بهاج فى القِرَى أهلَ منزل ... على زادهم أبْكى وأبكى البواكيا

الى آخر الثلثة الأبيات» اه أقول وهذا الشاعر هو منظور بن سُحيم الحماسى ويبجّل اسمه ويخضع له وربما انتقد عليه(٦) شيئاً وهو مصيب فى انتقاده ولكن مع مراعاة جانب الأدب . وذكره (٧) فى الأنموذج أيضا قال « ان كُتاب الخراج بالقيروان اجتمعوا فى الديوان يوما فوقعت بينهم جرادة فوضعها بعضهم فى يده وقال : من يصفها ؟ فقال عبد الكريم بن ابراهيم النهشلى قد علمتم أنى امرؤ مُرَوّ واست بصاحب بديهة. فبدرهم يعلى بن إبراهيم (٨) الأرسي » اه . وذكر له فى العمدة (٩) قولا غريبا وهو أن ابا الطيب إنما سُمّى متنبّئاً لفطنته . واقتدينا صاحب البساط فى عدّة من مشايخه وإن لم نره لغيره . هذا ويجيء ذكر خطإٍ له فى آخر المقالة

(١) ١ : ١٣٨ (٢) ٢ : ٢٢٨ وغيرها (٣) المطبوع في الصلب ١ : ١١٦، ١٣١
(٤) ٨١ (٥) ١ : ٧١ (٦) العمدة ١ : ١٦٩ ، ١٨٨ — ٢ : ١٩٢
(٧) البدائع ٢ : ٣٩ (٨) راجع له معجم الادباء فى ترجمة القزاز (٩) ١ : ٤٥

فاستأذنت ودخلت فقام إلىّ وهو ثانى اثنين فأخذ بيدى وجعل يسألنى فأخبرته بأمرى فارتمض . اه

وكان أهل الأندلس يقدرونه حق قدره كما قيل :

إنما يعرف ذا الفضـــل من الناس ذَوُوه

كما سيأتى من أن عُمدته لما وصلهم اختصره نحويّهم الشهير ابو بكر بن السِراج (ككتاب) وعَدّد فيه جملةً من أوهامه . ونرى ابن الأبّار الكاتب البَلَنْسىّ يأخذ من قُراضة الذهب له . وناهيك بتقلص شعره المجموع من الأقطار إلى مكتبة إسكوريال دليلاً على نَفاق سِلعته لديهم . ونراهم نسجوا على منواله واقتفوا مثاله استحساناً له كما فعلوا بملْقى السبيل للمعرّى فكلّ ماحاذَوْا به هذا الكتاب وكذا أصلُه لايوجد فى غير الاسكوريال . وهذه النسخة التى طبعوه عليها أخذوا صُوَرها من أصل اسكوريال . وهذا حال شعره وقَدْرِ الناس له حقّ قدره . قال ابن خفاجة [(١)] فى ديوانه « خرجت يوما بشاطبةَ الى باب السّمارين ابتغاء الفُرجة على خرير ذلك المـاء بتلك الساقية وذلك سنة ٤٨٠ ﻫ واذا بالفقيه أبى عمران ابن أبى تليد رحمه الله قد سبقنى الى ذلك . فألفيته جالسا على دكّان كانت هناك مبنيّةٍ لهذا الشأن فسلّمت عليه وجلست اليه مستأنسا به فجرى أثناء ماتناشدناه قول ابن رشيق :

يامَنْ يمُرّ ولا تمرّ به القلوب من الفَرَقْ

الى آخر الخمسة الأبيات المذكورة فى النُتَف . فقلت وقد أعجب بها جِدًّا وأثنى عليها كثيرا أحسنُ مافىالقطعة سياقة الأعداد وإلا فانت تراه قد استرسل فلم يقابل بين الفاظ البيت الأخير والبيت الذى قبله فيُنْزِلَ بإزاء كل واحدة منها مايلائمها. وهل ينزل بازاء قوله واذا نطق قوله شغل الحدق. وكأنه نازعني القولُ

(١) نفح الطيب مصر ٢ : ٢٠٤ ليدن ٢ : ٢١٦ و ٢١٧ والبدائع ٢ : ٤٦

﴿ شبابُه وصيتُه فى الأقطار ﴾

أول حلقة من هـذه السلسـلة عثرنا عليها ما قال فى أنموذجه (١) فى ترجمة نفسه :

« وقدم الى الحضرة سنة ٤٠٦ ﻫ وامتدح سيدنا خلّد الله دولته (المعز) سنة عشر بقصيدة أولها :

ذمّت لعينك أَعيُنَ الغزلان   قمرٌ (٢) اقرّ لحسنه القمران

(انظرها فى النتف) قال ومن مِدَح القصيدة التى دخل بهـا فى جملته ونسب الى خدمته فلزم الديوان وأخذ الصلة والحُملان :

لدنُ الرماح لما يَسقى أسنتَها   من مُهجة القَيْلِ أو من ثُغرة البطل

(انظرها فى النتف) »

وقد مرّ أنه لما وصل وفود صاحب مصر بهدايا وخلعة وتلقّاهم المعز أنشد ابنُ رشيق همزيّته . فلما انثالت عليه الهـدايا وأقبلت الخاصّة جاوز صيته وطار ذكره الى ماوراء البحر من صقلّيّة والأندلس وجاز حتى تغلغل أسماعَ ملوك الطوائف بالأندلس كما سيأتى . ونقل صاحب البساط عن ابن خلدون فى مقدمته :

« ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء الاّ ابن رشيق وابن شَرَف »

وفى الذخيرة (٣) لابن بسّام حكايةً عن أبي عبد الله بن الصفّار الصقلىّ قال كنت ساكنا بصقلية وأشعار ابن رشيق تردعلىّ فكنت أتمنّى لقاءه حتى قـدم الروم علينا فخرجتُ فارًّا بمهجتى تاركا لكل ما ملكت يدى وقلتُ أجتمع بأبى علىّ فبرِقّةِ شمائله وطيبِ مشاهدته سيذهب عنى بعض ما أجـد من الحزَن على مفارقة الأهل والوطن . فجئت القيروان ولم أقدّم شيئاً على الدخول الى منزله .

(١) راجع ترجمته في معجم الأدباء ٣ : ٧٠ (٢) أقول كذا في ياقوت والحلل السندسية وأنث ذمت لأن المراد بالقمر امرأة وذكر ضمير لحسنه حملا على اللفظ ثم أنث ضميره في البيت التالى انظره في النتف (٣) على ماني البدائع ٢ : ٣٦ ومسالك الأبصار أمارى ٦٥١

السلطان فكانت سبب محنته (ثم ذكر مصادرته وفراره الى مصر وتولّى قاض آخر جميعَ ما كان يتولاّه هو) ثم قال وزال القضاء عن بنى الكوفى وكانت لهم فى ولايته نيف وسبعون سنة تولاّه أربعة منهم في هذه المدة اه . وترى[1] فى الراء بيتين له عارض بهما بعض أصحابه وكان سبقه الى بيتين له فى المعنى فلما أنشده ابن رشيق بيتيه قال فضحتَنى وهذا يدل على أن معاصريه كانوا يُقرّون له بالسبق فى الرِهان وإحراز الخَصْل عند الأقران

مناعة عسير

يكتب الفريق سليمان شفيق باشا وزير الحربية العثمانية سابقاً مذكراته في هذه الايام عن بلاد العرب ، ولا سيما العسير التي كان فيها حاكماً وقائداً لجيش الدولة العثمانيـة بعد اعلان الدستور العثماني ، وينشرها في جريدة الاهرام مترجمة بالعربية بقلم منشيء الزهراء . ومما جاء فيها عن مناعة تلك المقاطعة العربية في البر والبحر قوله :

فى بعض الساحل الشمالي من اليمن وعلى طول ساحل عسير توجد فى البحر ستارة من مادة الشبّ ممتدة من (قَمَران) الى (الليت) موازية للساحل ، وعند جزائر (فَرْسان الصغرى) و(فَرْسان الكبرى) وما بينها . وبين هذه الستارة البحرية والساحل مَضيقٌ طوله ستمائة كيلو متر يمكن المرور منه . وعلى ذلك فالسفائن البحرية الكبرى لا تستطيع الاقتراب من ساحل عسير الا اذا دخلت من أحد مدخلى المضيق عند الليت أو قمران . والحكومة التي تملك عسيراً اذا أقفلت هذين المضيقين بالوسائط الفنية تحافظ على سواحلها بسهولة وتجعل سفن العدو فى خطر لا يمكن اجتنابه

وتوازي الساحل فى البر جبال غرانيتية لا ترتقى الا بسلوك منافذ معينة للوصول الى قممها ، ومن المتعذر ارتقاء العربات والاحمال الثقيلة فيها . ولا يمكن مهاجمة القسم الجبلى من عسير من جانب الساحل الا بعد الاستيلاء على تلك الذرى والمنافذ . فالقارىء يرى أن عسير ذات حصون طبيعية فى البحر والبر معاً

---

(١) البدائع ١ : ٢٤٠

فى هذا غاية الجهد فقلت بديها :

ومهفهفٍ طاوى الحشا خَنِثِ المعاطف والنظر
ملأ العيون بصورة تُليتْ محاسنُها سُوَر
فاذا رنا واذا مشى واذا شدا واذا سَفَر
فضح الغزالة والغَما مةَ والحمامة والقمر

فُجنّ بها استحسانا . وقال ابن ظافر القطعة القافيَّة ليست لابن رشيق بل هى لأبى الحسين على بن بشر الكاتب أحد شعراء اليتيمة اه ومثله ما رواه [1] ابن حمديس قال اجتمعت مع أبى الفضل الكاتب جعفر بن المقترح بَسبْتَةَ فذكر لى بيتى ابن رشيق :

البحر صعب المرام مرٌّ لا جُعلت حاجتى إليه

(راجعها فى النتف) ثم قال لى أتقدر على اختصار هذا المعنى قلت نعم أقدر على ذلك وأنشدته (وذكر بيتين) فاستحسن ذلك إذ كان على الحال وأقام عنى أياما ثم اجتمعت به فأنشدنى لنفسه فى المعنى (وذكر بيتين) فأنشدته لى فيه (وذكر بيتين وكل الأبيات فى النتف)

وأما طيران صيته ونباهة ذكره بالقيروان فحسبك فيه ماجرى بينه وبين الُحصْرى وقوله فيه بيتين راجعها فى الميم قال « فبلغه البيتان فأمسك عنه واعتذر منه ومات وقد سُدَّ عليه باب الفكرة فيه ولم يصنع شيئاً » اه ومثله ما نقله الدباغ [2] فى ترجمة القاضى محمد بن جعفر الكوفىّ قال وجرت عليه مِحنةٌ أعقبها التأخّرُ عن قضائهم والزهد فى جوارهم وذلك بسبب أبيات صنعها ابن رشيق :

ياسالكا بين الأسنّة والضُبا [3] إنى أشَمّ عليك رائحةَ الدم

(انظر البيتين فى النتف) منها هذان البيتان صنعها معرِّضا به فنمت الى

(١) على مافى المعاهد ٢ : ٢٥ (٢) المعالم ٣ : ٢٤٤ (٣) المغاربة يكتبون الظاء ضاداً كما هو معروف من خطهم ، أنظر أنيس القرطاس

أم هل قنابلهم يرو ع قلوبنا منها نهاق
حيث الصفاح تظلنا وتقلنا الجرد العتاق
ونفوسنا أسرى بأيد ينا وليس لها انطلاق
وسيوفنا باكفنا ما ان لها عنها افتراق

***

وأبيكِ لا تنفك تع ضدنا الحمية والوفاق
ما إن لنا بسوى دلا ص الحزم فى الحرب انتطاق
ابناء قحطان لنا في كل مكرمةٍ خلاق
سائل بنا كم موقفٍ للحرب فيه لنا السباق
ولقد تزوجنا المعا لي والنفوس لها صداق
فخضابنا فيها دمُ ألاعدا والأ فالطلاق

***

حاشا الحمية ان يسو م جفوننا عنها انطباق
ونبيت الا والعدوُّ تنوشه الطير العتاق
ويروق الا من دماً ولنا اصطباح واغتباق
قسماً بمشتبكِ القنا الخطيّ فيه لنا اختراق
لا ننثني عن خوضه إمّا سباقٌ أو سياق

جبل عامل «الحوماني»

قال سعيد بن العاص : « ما شتمتُ رَجُلاً منذ كنتُ رجلاً ، ولا زاحمته بركبتي ، ولا كلَّفتُ ذا مسألتي أن يبذُلَ ماءَ وجهه فيرْشَحُ جبينُه رَشْحَ السِّقاء »
أمالي القالي (٢ : ٢٢٥)

الى الامة العربية

خُلقت لكِ البيضُ الرقاقُ والسُّمر والخيل العتاق
فيم التكاسل إن يكن فيكم وئام واتفاق
عهدي بكم إمّا جَرَيْـ ـتم لا يُرام بكم لحاق
لا تفترون عن الاعا دي أو يحيق بهم محاق
نهضاً ، فقد ضاقت صدو ر القوم واتسع النطاق
أين الحفاظ المرُّ أم أين التعاضد والوفاق

***

لا صبرَ أو تصطك من سمر القنا السبع الطباق
ويُمدّ من نَسْجِ الوغى للنقع فوقكمُ رواق
حتى يبيت عدوكم فوق الثرى دمه مراق

***

إنا لخوّاضُ الردى ما قام للهيجاء ساق
لا ننثني ولو أنَّ اكـ ؤسنا ردًى منها دِهاق
أو تنجلي ولنا على أعدائنا فيها السباق

***

لا صبرَ أو نصليهمُ نيران حرب لا تطاق
وتذيقهم أسيافنا جرع الردى حتى يلاقوا
وتغور في أعناقهم جزراً كأنهمُ براق
تجري دماً إمّا بدا من برق أنصلها ائتلاق

***

اتروعنا غربانهم ويريبنا منها نعاق

أنواع الاستعمالات عدا كونه لا يأتلف مع الكرامة القومية في شيء . فنقلت الدواوين في عهدهما من اللغات الوطنية الى اللغة العربية . وأنت تعلم أن رسمية اللغة ظاهرة من ظواهر كرامة الأمة واستقلالها كما أن السكة والطراز يدخلان في جملة ذلك . فكان في هذا العمل تثبيت تام لنفوذ العرب وتأييد قطعي لتفوق عنصريتهم وانتصارها في نزاعها

وكذلك لو تتبعت طريقة ادارة الأعمال على عهد الأمويين لرأيت أن جميع الأعمال الرئيسية كانت في يد العرب . فلم تكن ترى قائداً أو والياً أو قاضياً غير عربي معروفة أرومته . ومعنى ذلك استبقاء صفة السلطة والرياسة في العرب ، وعدم اعتبار العرب غيرهم اكفاء لهـذا العمل العظيم . ويدل أيضاً على تمكن الروح القومية بصورة لا تستسيغ أن يكون ولاة الأمر والرياسة فى الدولة العربية من غير العرب فى حال

ومن هذا القبيل صرفهم الخلافة عن من لم يكن عربياً في خئولته ، أى عدم اعتبار من تكون أمه غير عربية كفؤاً للخلافة . فان مَسْلَمة بن عبدالملك الذي ظهر من قدرته وهمته وبلائه الحسن فى الفتوحات واطفاء الثورات ماجعله فى عداد أبطال العرب الكبار لم يتسنم عرش الخلافة ـ مع كونه ذا حق فيه وجدارةٍ له ـ الا لأن أمه غير عربية ؛ فلم يعهد له أبوه ولم يعهد له أحد من اخوانه ، مع أن سليمان عهد الى ابن عمه عمر ، وكان اخوه مسلمة محاصراً للقسطنطينية . وكأن مسلمة كان يرى ذلك طبيعياً الى درجة أنه لم تحدثه نفسه به أيضاً

على أن الشعور بالعزة القومية وبقوة الروح العنصرية لم يكن مقصوراً على هذه الرسميات فى هذه المرحلة ، بل كان منتشراً فى العرب على اختلاف طبقاتهم أيضاً . كانوا يرون أنفسهم أنهم اشرف أرومة وأكثر كفاءة وأبعد همة وأحق بكل عظيمة من غير العرب ، وان لهم الحق في أن يتفوقوا على غيرهم ويمتازوا

النزاع العنصرى فى صدر الاسلام

بين العرب وغيرهم (١)

كان لانتصار العنصرية العربية ، وقوة نفوذها ، وانتشار سلطانها في الحرب والسياسة ، صدى في داخل المملكة العربية الجديدة وفى نفسية العرب . فنبه ذلك الامويين الى تصفية مظاهر حكمهم من كل شائبة غير عربية

كان العرب الى عهد عبد الملك يتعاملون بالسكة الاجنبية : فارسية ورومية . فلم ير من الكرامة للأمة العربية بعد فوزها العظيم أن لا يكون لها سكة خاصة تتأيد بها غلبة قوميتها ومظهر سلطانها . فعمد عبد الملك الى ضرب السكة العربية الخالصة ، وأصدر أمره القطعي بحظر استعمال أية سكة اجنبية في طول البلاد وعرضها ، ومعاقبة كل من يخالف ذلك من سكان البلاد . وهكذا أزال من البلاد ما قد يكون أثراً من آثار الأجنبي ونفوذه

كان الامويون فى دولتهم الجديدة قد قلدوا الروم في استعمال الطراز الرسمي للملابس ، وكان طرازهم الى عهد عبد الملك أيضاً رومى الصبغة واللغة ، فبدله بطراز عربى في صبغته ولغته . وانشأ المعامل التى تصنع هذا الطراز العربى الخالص

كان العرب منذ أول عهدهم فى الاقطار المفتوحة استعملوا لغات الحكومات السابقة فى كتابة السجلات والدواوين ؛ لأنهم لم يكونوا قد مهروا فى ذلك الأمر الذي يحتاج الى الوقوف على أساليب خاصة وطرق معينة ، وتوهموا أن هذا لا يتقنه الا الروم والقبط والفرس وبلغاتهم . ولكن عبد الملك والوليد من بعده رأيا أن استمرار استعمال هذه اللغات في الدواوين الرسمية عائق في سبيل تعميم اللغة العربية بين طبقات الوطنيين ، ومانع من ترقية اللغة العربية ومرونتها على

(١) فصل من كتاب تحت الوضع

على ما رغبنا في تقريره

ومع أن هـذه الدرجة افراطٌ لا مسوّغ له ـ بحيث جلبت على العرب الحقد والبغضاء ، وتجاوزوا فيها المعقول والمنطق ـ فانها تدلنا دلالة واضحة على ماوصلت اليه العزة القومية والشعور بها عندهم

ولا ريب في أن ذلك ناتج عن المظهر القوي الذي ظهر به نفوذ العرب ، واستتباب أمرهم وسلطانهم من الصين والهند شرقا الى البحر الاتلانتيكي غرباً : في هذه الاقطار الواسعة لغتهم منتشرة ، وحكمهم نافذ ، وكلمتهم هي العليا . قد دحروا أمامهم كل مزاحم ، وقضوا على أعظم دول العالم ، وتفردوا بالنفوذ والسلطان

كانت جيوشهم الفاتحة عديدة ومنتشرة في مشارق الارض ومغاربها ، تخفق عليها ألوية النصر ، وترعاها عين النجح والتأييد . فمنها جيوش مشرّقة للشمال تكتسح بلاد الترك من أقاليم فرغانة والشاس والصغد وتطأ أرض الصين ، وجيوش مشرّقة للجنوب تدوّخ بلاد البلخ والافغان والسند وتطرق باب الهند . ومع انها كانت تلقى كيداً شديداً في هذه البلاد لم تكن رأته في الشام وفي مصر ، فقد كانت تنتصر الانتصار تلو الانتصار ، فتثل العروش وتفتح المدن ، وتدين لها الملوك ، وتضع يدها على ما في هذه الاقطار الواسعة من ثروة وغنائم ، وتقبل الناسُ على اعتناق دينها وتعلم لغتها

هذا في المشرق ، بينما كانت جيوشهم في المغرب تخوض المعارك مع البربر ؛ ثم تتطلع الى ما وراء البحار فتعبر الى ايبريا في أوربا ، فتهدم عرش القوط والجلالقة ، وتكتسح أكثر هذه الجزيرة ، وتؤسس نفوذها وتنشر دينها ولغتها وحضارتها . وفي الوقت ذاته ترسل جيوشاً جرارة فتخترق آسيا الصغرى من أولها لآخرها ، وتحاصر القسطنطينية حصاراً طويلاً وكأنها تحدّث نفسها أن تلتقي جيوشها المشرّقة بجيوشها المغرّبة لتطوق أوروبا وتُدخلها في سلطانها ، كما

عن سواهم ، لأنهم أصل الهداية ومنبع الرشد ، ومحتد الكرم ، ومردّ الخلال الشريفة، وكانوا يسمون غيرهم بالحمراء وبالموالى ولا يرونهم اكفاء لهم فى أية حالة من الحالات وعمل من الاعمال

رأى معاوية أن الموالى قد كثروا كثرة عظيمة فخشى أن ينازعوا العرب الامر وحدثته نفسه فى تشتيتهم وتقليل خطرهم ، وذاكر بعض ذوي الرأى من العرب ، فكان رأي سمرة بن جندب أن يقلل عددهم بالقتل والنفي والجلاء ولكن معاوية لم يعمل بهذا الرأي

أراد عبد الملك أن يصاهر أحد شريفى الارومات ، المعروفي النسب من شيوخ القبائل فخطب بعض بنات ذلك العربى لبعض أبناء الخليفة فقال الشريف العربي لعبد الملك : جنبنى هجناء بنيك . والهجين فى لغة العرب من كانت أمه غير عربية وهي كلمة سبة وصغار

وصلت روح العزة العربية فيهم الى أن صار بعضهم لا يرى أن يأتمّ فى صلاته بغير عربى ، واذا ائتموا فانما يفعلون ذلك تواضعاً لله لا غير . وحتى روي عن بعضهم انه كان اذا مرت به جنازة عربى صاح واقوماه واذا مرت جنازة غير عربى قال « مال الله يأخذ ما يشاء ويترك ما يشاء » . وحتى أن عبد الله بن عامر دعا عليه أحد الموالى وقال له لا أكثر الله من أمثالك فينا فأجابه بل اكثر الله من أمثالك فينا ، فلما سئل كيف يدعو عليه وهو يدعو له قال « يمهدون طرقنا ويخصفون نعالنا ويخيطون ثيابنا » تصغيراً لشأن غير العربي ، اذ أن العربي كان يرى نفسه انه وجد للرياسة والحكم ، فليس يليق به أن يتداول المهن والاعمال الاخرى

على أن استقصاء أمثال هذه الحادثات أمر يخرج عن حدود بحثنا وهي كثيرة ممتلئة بها كتب العرب من أدب وسير وتاريخ ، ولكن ما أوردناه منها للدلالة

بالتأسي ، والقدوة التي تخلق بالاتباع . فمهدوا للأمة العربية ما مهدوه من هذه العظمة الخالدة والسلطان الواسع ، فحق للعرب ولاشك ان يروا انفسهم مثل مارأوها وان يحلوها المركز السامي الذى أحلوها فيه

وها نحن نرى الانكليز الآن يرون انفسهم فى مستوى أعلى من مستوى غيرهم . وكأنهم من جبلة غير جبلة البشر . وماذلك الا لأنهم يرون أنفسهم متفوقين عنصرياً على كثير من غيرهم بالقوة والثروة وسعة السلطان . وأنت عليم أنه يوجد فى هذا العالم أمم راقية ودول عظيمة ، ومنها ما يزاحم نفوذ الانكليز ويضاهيهم فى قوتهم وثروتهم ، فلا غرو اذا رأينا الشعور بالعزة القومية قد بلغ فى العرب هذا المبلغ البعيد ، ولم يكن حينئذ فى الدنيا غيرهم عظيماً فى سلطانه ، عظيماً فى مظهره ، مزاحماً لهم فى نفوذ او قوة او سلطان

نابلس — *محمد عزة دروزه*

﴿ رسالة ايمان العرب - للنجيرمي ﴾

لما كتبت ترجمة أبي اسحاق النجيرمي في العدد الماضى من الزهراء لم أكن رأيت أحداً ذكر رسالته في (أيمان العرب) غير الزبيدي في تاج العروس (مادة نجيرم) . وقد علمت الآن من حضرة صاحب السعادة العلامة المحقق أحمد تيمور باشا أن البغدادي ذكر هذه الرسالة في موضعين من خزانة الادب (١ : ٢٣٤ - ٢٣٥ * و ٣ : ٢١٠)

﴿ أموات الاحياء ﴾

مقابر من ماتوا مواطن راحة — فلا تكُ إثر الهالكين جَزوعا
وإن تبك ميتاً ضمه القبر فادّخرْ — لميْت على قيد الحياة دموعا

اسماعيل صبري باشا

فعلت في آسيا وافريقية . وبعبارة اخرى كأنها أصبحت وارثة العالم لا معارض ولا مزاحم . لا تحارب الا وتغلب ولا تصدم الا وتفوز . لا يقف امام تيارها شيء ولا يحول دون سبيلها حائل

ولم تكن حالتها كحالة الامم البربرية التي كانت تخرج من منابتها فتكتسح البلاد ، وتدمر معالم مدنيتها ؛ بل أظهرت ـ رغم الفترة الطويلة التي قضتها في الجاهلية ـ من المرونة وقابلية الاستعمار والنجاح في أساليبه ما ترك لها ذات الاثر الذي تركته انتصاراتها الحربية أيضاً

لم يسبق أن عانت أمر البحر والملاحة ، ولكنها لم تكد ترى ضرورة ذلك في هبتها الجديدة حتى باشرته فنجحت فيه : فأنشأت الاساطيل ، وغزت الجزر والسواحل ، وغلبت سادة البحار ، وتفرّدت فيها بالنفوذ كما تفردت في نفوذ البر . كذلك لم تلبث أن سارت على أساليب الحياة المدنية ، ومرنت على النظام واتقان الاعمال الرسمية ؛ فدونت الدواوين ، وضربت النقود ، وانشأت دور الصناعات ، واستغنت بالعرب والعربية عن كل صبغة أجنبية . ثم التفتت الى العمران فأنشأت المدن وعمرت القصور ، وأقامت المساجد ، ومهدت الطرق . وهكذا ظهرت في حياتها الجديدة مجلّية كأنها ابنة بجدة المدنية

ولعل العرب الذين خرجوا من الجزيرة فى هذه الموجة الاسلامية كانو أعظم عدد خرج فى الموجات الاولى ، فانتشروا فى شرق الارض وغربها ، وكان منهم العدد الكافى لتأليف هذه الجيوش الجرارة : من محاربة ، ومرابطة ، وصائفة ، وشاتية ، وبرية ، وبحرية . ولايجاد كتل عربية كبرى فى جميع الاقطار التى فتحتها ، فكانت سبباً فى تعريب اكثرها

ولعل هذا الدور كان أغزر أدوار العرب إنجاباً للرجال : من خلفاء ، وقواد ، وامراء ، وولاة ، وحكام ، وعلماء . وكان اكثرهم فى اعمالهم المثالَ الذى يجدر

وأبا عبد الله ابراهيم بن عرفة النحوي، وأبا بكر محمد بن القاسم بن بشار الانباري.
وقيل : ان أكثر أهل العلم الذين روى عنهم سمع منهم في داره
وأخذ عليه أهل الحديث أن أكثر روايته كان اجازة ، ولا يبين فى تصانيفه الاجازة من السماع ، بل يقول فى كل ذلك « أخبرنا . . » . قال القفطى : وقد رأى ذلك جماعة من الرواة

فضله وفطنته وتلاميذه

قال القفطى : كان حسن الترتيب لما يجمعه . وكان يقال فى زمنه « انه أحسن تصنيفاً من الجاحظ »

وقال علي بن أيوب « دخلت يوماً على أبى علىّ الفارسى النحوى فقال : من أين أقبلت ؟ قلت : من عند أبى عبيد الله المرزبانى . فقال : أبو عبيد الله من محاسن الدنيا

وكان عضد الدولة فناخسرو بن بويه ـ على عظمته ـ يجتاز بباب أبى عبيد الله فيقف بالباب حتى يخرج اليه أبو عبيد الله فيسلم عليه ويسائله عن حاله

وبالجملة فان المرزبانى كان مقدّما فى الدولة وعند أهل العلم كما قال الوزير أبو الحسن القفطى . وهو وان لم يتخصص بعلمي النحو واللغة فقد ألف فى أخبار مصنفيهما والمتصدرين لافادتهما كتاباً كبيراً سماه (المقتبس) يقارب العشرين مجلداً ، وورد فى أثنائه من المسائل النحوية ، والالفاظ اللغوية ما يعدّ به من أكبر أهله

وممن روى عن المرزبانى : أبوعبد الله الصيمرى وأبو القاسم التنوخى وأبو محمد الحسن بن على الجوهرى وعلى بن أيوب القسمى ومن فى طبقتهم ومن بعدهم

وكان منزله مجمعاً علمياً لجلة رجال الادب والفضل المعاصرين له . قال ابن أيوب سمعت أبا عبيد الله المرزبانى يقول : كان فى دارى خمسون ما بين لحاف ودُوّاج (١) معدّة لاهل العلم الذين يبيتون عندي

(١) كذا في كتاب الانساب للسمعاني ، وهو ـ بوزن رمان وغراب ـ بمعنى اللحاف الذي يلبس كما في القاموس ، وضرب من الثياب كما في اللسان . والذي في القفطي وغيره « دوارج » وهو خطأ

محمد بن عمران المرزبانی (*)

٢٩٦ — ٣٨٤ هـ

عن كتاب (انباه الرواة على انباء النحاة) للقفطى ، و (الوافى بالوفيات) للصفدى ، و (وفيات الاعيان) لابن خلكان ، و (الانساب) للسمعانى

نسبه ونشأته

أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى [بن سعيد(١)] بن عبيد الله المرزُبانى البغدادي العلامة الكاتب

هو من بيت رياسة ونفاسة ، نسب الى بعض اجداده وكان اسمه المرزبان . قال ابن خلكان : وهذا الاسم لا يطلق عند العجم الا على الرجل المقدّم العظيم القدر ، وتفسيره بالعربية حافظ الحدّ ، قاله ابن الجواليقي فى كتابه (المعرّب) . وكان ابوه نائب صاحب خُراسان بالباب ببغداد ، فوُلد فيها صاحب الترجمة فى جمادى الآخرة سنة ستّ ـ أو سبع ـ وتسعين ومائتين ، ونشأ فاضلاً ذكياً ، ممتع المحاضرة والمذاكرة ، راوية للادب مكثراً ، وصاحب أخبار جميل التصانيف

مشايخه

قال القفطى : انه كان كثير المشايخ . وذكر منهم ابن خلكان : عبدَ الله بن محمد البغوى ، وأبا بكر بن أبي داود السجستانى وقال فى موضع آخر : روى عن أبى القاسم البغدادى وأبى بكر بن دريد وابى بكر السجستانى . وذكر منهم الصفدى فى الوافى بالوفيات : أبا القاسم البغوى ولعله عبد الله بن محمد ، وابنَ دريد ، ونفطويه . وزاد السمعانى : أباحامد بن هارون ، وأحمد بن سليمان الطوسى

(*) ننشر هذه الترجمة بمناسبة تقرير (جمعية نشر الكتب العربية) طبع كتاب (الموشح) في نقد الشعر . وهو الكتاب الوحيد فيما نعلم الذي أبقاه الزمان من مصنفات أبي عبيد الله المرزباني التي تبلغ وحدها خزانة كتب في الادب كما ترى في هذا الفصل

(١) الزيادة عن ابن خلكان

المستنير : في اخبار الشعراء المحدثين المشهورين . أولهم بشّار بن بُرد وآخرهم ابن المعتزّ . عشرة آلاف ورقة

المفيد . وهو كاسمه مفيد . فى اخبار المقلين من الشعراء وكناهم ومذاهبهم الى غير ذلك من الفنون . خمسة آلاف ورقة

المعجم . فى أسماء الشعراء ونتف من اشعارهم وبعض اخبارهم على الاختصار ألف ورقة

الموشّح . فى مآخذ العلماء على الشعراء فى أنواع من صناعة الشعر . ثلاثمائة ورقة

كتاب الشعر . يتعلق بصناعة الشعر . أكثر من ألفى ورقة

أشعار النساء . خمسمائة ورقة

أشعار الخلفاء . مائتا ورقة

أشعار تنسب الى الجن . مائة ورقة

المُقتبَس . فى أخبار النحويين واللغويين والناسبين . ثلاثة آلاف ورقة

المرشد . فى أخبار المتكلمين أهل العدل والتوحيد . ألف ورقة

الرياض . فى أخبار المتيّمين والعاشقين . ثلاثة آلاف ورقة

الرائق . فيه أخبار الغناء والاصوات ونسبتها وأخبار المغنين . ثلاثة آلاف ورقة

كتاب الازمنة . فى ذكر الفصول الاربعة وما قالته العرب فى كل فصل منها وما ذكره الحكماء منها وذكر الامطار والاستسقاء والروّاد . نحو الفى ورقة

الأنوار والاثمار والفواكه . فى أوصافها وما قيل فيها . خمسمائة ورقة

أخبار البرامكة . خمسمائة ورقة

التهانى . خمسمائة ورقة

كتاب التسليم والزيارة . أربعمائة ورقة

كتاب العيادة . أربعمائة ورقة

كتاب التعازى . ثلاثمائة ورقة

ومنزل المرزباني في بغداد بشارع عمرو الرومي في الجانب الشرقي من المدينة

عقيدته وأحواله

قال العتيقي : كان ابو عبيد الله المرزباني معتزلياً ثقة . وقال القفطي : انه صنف كتاباً في أخبار المعتزلة كبيراً . ونقل الصفدي عن الخطيب انه قال : ليس حاله عندنا الكذب ، وأكثر ماعيب عليه المذهب . وقال ابن خلكان : كان ثقة في الحديث ، ومائلا الى التشيّع في المذهب

وكان يضع المحبرة وقنينة النبيذ [(1)] ، فلا يزال يشرب ويكتب . وسأله عضد الدولة مرة عن حاله فقال : كيف حال من هو بين قارورتين ؟

وقال ابو حيان التوحيدي : حضرنا مع ابى عبيدالله المرزبانى عزاء وجلس الى جانبه رجل خراسانى يرجع الى مال كثير ، عليه قباء مبطن ، له رائحة منكرة ، فقام المرزبانى من جنبه وجلس ناحية ،وقام بقيامه من ذلك الجانب خلق كثير . فقيل له : ايها الشيخ ماحملك على ذلك ؟ فذكر قصته وشرح حاله وأنشأ يقول :

هل لى مالى واهلى معاً وجل ما يملك جيرانيه
تأخذه نافلة جملة احبك المحسن [(2)] فى شانيه
فاذهب الى أبعد ماينتوى لاردك الله ولا ماليه

مصنفاته

الموثق : في أخبار الشعراء المشهورين من الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين الى الدولة العباسية . يستوفي الاخبار . خمسة آلاف ورقة

---

(١) النبيذ هو ان يؤتى بالتمر أو الزبيب وينبذ في وعاء او سقاء ويصب عليه الماء فاذا أخذ قبل ان يسكر فهو حلال ويسمى مع ذلك نبيذا واذا اسكر حرم

(٢) كذا في نسخة الخزانة التيمورية من (الوافي بالوفيات) . ولعله « أحسبك » أو « وحسبك »

كتاب الحجاب

كتاب الخاتم

أخبار أبي حنيفة وأصحابه

شعر الشيعة

اخبار شعبة بن الحجاج

شعر حاتم وأخباره

اخبار عبد الصمد بن المعذّل

اخبار ملوك كندة

اخبار أبي تمام

أخبار محمد بن حمزة العلوى

كتاب اعيان الشعر في المديح والفخر والهجو

أخبار الاجواد

قال ابن خلكان : « وهو أول من جمع ديوان يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الاموى واعتنى به . وهو صغير الحجم يدخل فى مقدار ثلاث كراريس . وقد جمعه من بعده جماعة وزادوا فيه أشياء كثيرة ليست له . وشعر يزيد – مع قلته – في نهاية الحسن . وكنت حفظت جميع ديوان يزيد لشدة غرامي به وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بمدينة دمشق وعرفت صحيحه من المنسوب اليه الذي ليس له ، وتتبعته حتى ظفرت بصاحب كل ابيات »

وفاته

وكانت وفاة أبي عبيد المرزباني ليلة الجمعة – وقيل في يوم الجمعة – الثاني من شوال سنة أربع وثمانين وثلاثمائة . وصلى عليه أبو بكر الخوارزمى الفقيه . ودفن في داره بشارع عمرو الرومى بالجانب الشرقي من بغداد

كتاب المراثي . خمسمائة ورقة

المعلّى . في فضائل القرآن . مائتا ورقة

المفضل . في البيان والفصاحة . نحو ستمائة ورقة

أخبار من تمثل بالاشعار . أكثر من مائة ورقة

تلقيح العقول . مبوّب أبواباً . ثلاثة آلاف ورقة

المشرّف في آداب النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم اجمعين والوصايا وحكم العرب والعجم . ألف وخمسمائة ورقة

الشباب والشيب . ثلاثمائة ورقة

المتوّج . في العدل وحسن السيرة . مائة ورقة

كتاب المديح في الولائم والدعوات ومجالس الشرب والشراب . خمسمائة ورقة

كتاب الفرج . مائة ورقة

كتاب الهدايا . ثلاثمائة ورقة

المزخرف . في الاخوان والاصحاب . اكثر من ثلاثمائة ورقة

أخبار أبي مُسْلم صاحب الدعوة . مائة ورقة

كتاب الدعاء . مائتا ورقة

كتاب الاوائل . مائة وخمسون ورقة

المستظرف . في الحمقى والنوادر . أكثر من ثلاثمائة ورقة

أخبار الاولاد والزوجات والأهل ومَن مدح ودَّهم . مائتا ورقة

كتاب الزهد وأخبار الزهاد . مائتا ورقة

كتاب ذمّ الدنيا . مائة ورقة

المنير . في التوبة والعمل الصالح . أكثر من ثلاثمائة ورقة

كتاب المواعظ وذكر الموت . اكثر من خمسمائة ورقة

أخبار المحتضَرين . نحو مائة ورقة

والنواحي التسع المحمية ، وزينه بخريطة حسنة لبلاد العرب وأخرى لِلَحْج والنواحي التسع ، وبصور الملوك والامراء وبعض البلاد ، وقال لنا الاستاذ الشيخ عبد الواسع اليماني ان الصورة التى رسمها الاستاذ الريحاني بريشته للامام يحيي لا تشابهه تماماً

وقد قرأت القسم الاول الخاص بالملك حسين فلمست فيه الانصاف والحكمة وصدق النظر ، ولم يتسع الوقت لاكمال مطالعة الجزء كله ، غير أني سمعت بعض الاصدقاء يؤاخذون الاستاذ الريحانى فى ميله الى ان تفتح اليمن صدرها للمعاهدات مع الانكليز ولما يأتيها به الغرب من مظاهر الحضارة . ونحن في ذلك على رأي الحكيم سبنسر فيما نصح به لتلاميذه اليابانيين فى القرن الماضي من سد أبواب وطنهم عن الاغيار الى أن يتمكنوا هم من تلقي علوم أوربا وصناعاتها بأنفسهم وتأسيسها في بلادهم حتى اذا قويت دولتهم بها فلا ضير اذا اتصلوا بالافرنج صلة الندّ بندّه . ولعلنا نقتبس من كتاب (ملوك العرب) ما نستطرف من فوائده في العدد الآتى من الزهراء

﴿ بيان المجلس الاسلامي الاعلى في فلسطين ﴾

تشعر فلسطين في السنين الأخيرة أن مسئولية النهوض بذلك الوطن ملقاة على عواتق أهله ، ولذلك نرى فيهم اندفاعاً نحو الاصلاح لم يكن لهم به عهد من قبل . ومن مظاهر ذلك ما نراه من الاعمال التى يقوم بها المجلس الاسلامي الاعلى سواء كانت شرعية أو علمية أو خيرية . وقد جاءنا منه كتابه السنوي متضمنا تفاصيل هذه الاعمال ومزينا بعشرات الصور تمثل الاصلاح الجاري في معاهد الدين ، والمدارس التى يقوم المجلس بادارتها ، وبيان ما دخل على خزينة المجلس من الواردات وما صدر عنه من النفقات . فنرجو لفلسطين دوام التقدم في سبيل الحياة

حركة النشر والتأليف

﴿ الاشارة الى من نال الوزارة ـ لابن منجب الصيرفي ﴾

مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ٭ المكتبة السلفية ٭ ٦٤ ص بالقطع الكامل ٭ ثمنه ٧٥ قرشاً

الكتب الباقية من عهد الدولة الفاطمية أكثرها مفقود . وكان المرحوم علي بك بهجت نشر سنة ١٣٢٣ (قانون ديوان الرسائل) لابي القاسم علي بن منجب الشهير بابن الصيرفي صاحب ديوان الانشاء في القاهرة على عهد الحاكم بأمر الله بين سنتي ٤٩٥ و ٥٣٦ هـ

وقد عُني أخيراً الاستاذ المفضال السيد عبد الله مخلص بنشر أثر آخر لهذا المؤلف وهو (الاشارة الى من نال الوزارة) مصدَّراً بفصل جليل عن المؤلف وكتابه بلغ فيه حدّ الاجادة ، وزيّن الكتاب بتعليقات وتحقيقات زادت أهل العلم ثقة بعلمه وأمانته . وقد اعتمد في نشره على النسخة الوحيدة المحفوظة فى الخزانة الخالدية ببيت المقدس . وظهر أولا في المجلد الخامس والعشرين لمجلة المعهد العلمى الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ثم طبعت منه في تلك المطبعة نسخ قليلة على حدة . فنشكر للاستاذ السيد عبد الله مخلص عنايته ونتمنى أن يكثر فى شبابنا وأفاضلنا من يخدم العلم بأمانة وتجويد

﴿ ملوك العرب ـ للريحاني ﴾

المطبعة العلمية في بيروت ٭ المكتبة السلفية بالقاهرة ٭ ٣٩٠ ص بقطع الزهراء ٭ ثمنه ٤٠ قرشا

قام الكاتب الشهير الاستاذ امين الريحاني برحلة في جزيرة العرب عام ١٣٤٠ فاجتمع بملك الحجاز السابق فى جدة ، وبالامام يحيي فى صنعاء ، وحضر من صنعاء الى الحديدة فاجتمع بالمرحوم السيد الادريسي ، وكتب عن هؤلاء الملوك الثلاثة الجزء الاول من كتابه (ملوك العرب) وختمه بالكلام على لَحْج

الى الامراض التي ابتلينا بها بصفتنا جماعة ؛ مع الارشاد الى أسلم الطرق التي هدتنا الشريعة اليها وهي الطريق التي سلكها سلفنا الصالح فبلغ بها السعادتين

﴿ الذهب الخالص ـ للشيخ محمد بن يوسف اطفيّش ﴾

المطبعة السلفية و مكتبتها * ٣٥٠ ص بقطع الزهراء وورقها * ثمنه ٢٥ قرشا

كتاب فى فقه الاباضية والعقائد ، وفي الاخلاق الاسلامية ، أراد مؤلفه رحمه الله أن يجعله جامعاً لأهم الاحكام فى جميع أبواب الفقه ، فأتى فى كل مسألة على أقوال علمائهم فيها ومذاهب الأئمة الاربعة وغيرهم ورأيه هو ان كان له فيها اجتهاد ، لان الاباضية لا يقولون بانقطاعه . وقد التزم فيه منتهى الايجاز ليكون تذكرة لمن سبق لهم الاطلاع على هذه الاقوال الفقهية مبسوطة في مواضعها

وقد تولى نشره الاستاذ أبو اسحاق الشيخ ابراهيم اطفيّش وعلق على مواضع منه تعليقات مفيدة ، ووضع فى أوله ترجمة حافلة للمؤلف المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ وهو الذي انتهت اليه الرياسة في العلم والصلاح في قومه وحسبك دليلا على فضله أن تعداد مؤلفاته لايفى به مجلد ، وقد تولى ناشره بنفسه تصحيحه بعناية تامة يشكر عليها

﴿ تجريد التوحيد المفيد ـ للمقريزي ﴾

دار الطباعة المنيرية * المكتبة السلفية * ٤٨ ص * ثمنه ٣ قروش

تكلم الشيخ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ـ المتوفى سنة ٨٥٤ ـ في هذه الرسالة على معنى التوحيد والفرق بين الربوبية والالهية ، وتقسيم الشرك الى شرك في الالهية تقربا الى الله بغيره وزلفى ، وشرك في الربوبية باتخاذ إلهين للخير والشر ، أو القول بأن مصدر المخلوقات عن العقول والنفوس . ثم بحث في الكمال المطلق للالهية وتقسيم العبادة ومعنى الاستعانة . والرسالة من جيد ما الف في بابها ومطبوعة على ورق صقيل

﴿ مختصر تاريخ العرب والاسلام ﴾

المطبعة السلفية ومكتبتها * ص ٢١٧ بقطع الجاير * ثمن الجزء ٧٥ مليما

نال هذا الكتاب الحظوة في المدارس العربية وعند القراء ، فنفدت نسخ الطبعة الاولى من جزئه الاول في سنة واحدة ، وقد أعاد مؤلفه الفاضل السيد محمد عزة دروزه طبعه في مطبعتنا للمرة الثانية مزينا بالصور مع التوسع والتحسين في كثير من المواضع . وهو يحتوي على تاريخ العرب قبل الاسلام ، وسيرة النبي عليه السلام ، ودوري الخلفاء الراشدين والامويين . وفيه نبذة عن التاريخ وأقسامه وفوائده ومكانة الشعوب الساميّة فيه

وأما الجزء الثاني فيتناول تاريخ الدول العباسية والفاطمية والاندلسية

ووعد المؤلف باصدار جزء ثالث لتاريخ الدول العثمانية والايرانية والافغانية والمصرية ودول بلاد المغرب وجزيرة العرب

وهـذا الكتاب من خير الكتب المدرسية في تاريخ العرب والاسلام وهو جدير بما ناله من اقبال المعلمين والمتعلمين على الافادة به والاستفادة منه

﴿ ديوان النفحات الزينبية ﴾

المطبعة السلفية ومكتبتها * ٣٣٦ ص جاير * ثمنه خمسة قروش

رأى فضيلة الاستاذ الشيخ مصطفى أبو سيف الحمامي خطيب المسجد الزينبي بالقاهرة وأحد علماء الازهر الشريف أن خطباء المساجد في العالم الاسلامي يلجأ أكثرهم الى كتب ألفت في الخطب لا تتناول تشخيص أمراضنا الاخلاقيـة والاجتماعية في هذا العصر ، ولا تشير الى طرق معالجتها . فأنشأ قريباً من مائة وخمسين خطبة تنقّل فيها من مباحث الالهيات والنبوات ، الى خطب في اسرار الشريعة ، الى وصف دقيق لغرائز النفس الفردية وما يعترضها من مهاوي الهوى ،

سيرة سيدة النساء فاطمة الزهراء فى ٣٠ ص ، وسيرة السيدة رابعة العدوية فى ١٥ ص ، وسيرة الخنساء الشاعرة فى ٣٥ ص ، وسيرة الاميرة زبيدة العباسية فى ٤٤ ص ، وسيرة الاميرة صبيحة زوجة المستنصر بالله الاموي في الاندلس فى نحو ٨٠ ص ، وكان المعرب أفردها فى رسالة بعنوان (ملكة قرطبة) ثم اعادها هنا الى مكانها من الكتاب

ولم تتقيد الاميرة المؤلفة فى كتابها هذا بألفاظ التاريخ فى كتابة سيرة شهيرات النساء ، بل اعتمدت على القرائن والاستنتاج ، فجاء كتابها وسطاً بين أسلوب التاريخ وأسلوب الروايات التاريخية ، فكثرت فيه المحاورات . ولذلك سُميت سيرة الأميرة صبيحة (روايةً) عند ما طبعت على حدتها منذ سنتين

وقد علمنا ان الأميرة المؤلفة مستمرة على تأليف أجزاء أخرى من هذا الكتاب ، وعسى أن يكون فى عملها الجليل قدوة صالحة للطبقة العليا من نساء المسلمين

﴿ كلمات المنفلوطي ﴾

مطبعة الترقي بدمشق ✿ المكتبة السلفية بالقاهرة ✿ ١٨٠ ص ✿ ثمنه ١٠ قروش

كان الأديب الفاضل السيد أحمد عبيد مؤلف كتاب (مشاهير شعراء العصر) وصاحب المكتبة العربية بدمشق قد اختار من كتب فقيد البيان العربى السيد مصطفى المنفلوطى رحمه الله جُملاً مما فيه رأيٌ اجتماعى أو حكمة عالية أو مثل سائر ، وكتب الى الفقيد يسأله أن يجمع هو أيضاً من كتبه ما يختاره برأيه ، وأن يعهد اليه بطبع ذلك جميعاً بعنوان (كلمات المنفلوطى) فجاءه منه جواب بالموافقة على ذلك ، ولكن وفاة المنفلوطى سبقت وفاءه بالوعد ، فمضى السيد أحمد عبيد فى عمله وأخرج (كلمات المنفلوطى) للناس في هذا الشهر فى ٦٦ صفحة تتقدم مجموعةً طريفة تتضمن صفته بأقلام كثير من الكتاب ، والمختارَ مما قاله

﴿ رواية جمعية اخوان العهد ﴾

مطبعة يوسف كوّى ✿ المكتبة السلفية ✿ ١٥٠ ص بقطع الزهراء ✿ ثمنها ١٢ قرشا

نقولا أفندي حداد هو الروائي العربي الذي تغني شهرته عن التعريف به ولا غرو فان في ايدي الناس من رواياته ومؤلفاته مكتبة زاخرة . وآخرها رواية (جمعية اخوان العهد) وهي الحلقة الثانية من سلسلة روايات أسرار النهضة العربية أو الاتحاد العربي العام . وقد أبدع ما شاء له الابداع في تكوين الفكرة التي بنى الرواية عليها ، وفي اختيار رجالها ونسائها ومواضع حوادثها . ومدارُها على جمعية سرية مؤلفة من زعماء العرب كانت تنعقد في سرداب داخل جبل من جبال عجلون وراء نهر الاردن، فاكتشف جواسيس جمال باشا أمرها وقبض جنوده على رجالها فحاكمهم بتهمة الاستعداد للثورة والعمل على تكوين دولة عربية ، وكان يفاوضهم وهم في السجن ليرضوا باستعمال نفوذهم فى الأمة العربية ليكون هو على رأس الدولة التي يريدون احياءها ويعمل معهم على تحقيقها . أما الحلقة الأولى من هذه السلسلة فهى رواية (فرعونة العرب عند الترك) وكلاهما من ابدع ما وضعه الاستاذ نقولا أفندي حداد من الروايات اللذيذة

﴿ شهيرات النساء في العالم الاسلامي ﴾

مطبعة السعادة ✿ المكتبة السلفية ✿ جزآن : ٤٢٠ ص ✿ ثمنه ٢٠ قرشاً

من مؤلفات صاحبة السمو الأميرة قدرية بنت المغفور له عظمة السلطان حسين كامل سلطان مصر هذا الكتاب الكبير الذي وضعته بالتركية فى جزءين بعنوان (مخدرات اسلام) ونقله الى العربية الشاب الفاضل عبد العزيز أفندي الخانجى . وفى الاول منهما سيرة أم المؤمنين السيدة خديجة فى ٣٤ ص ، وسيرة أم المؤمنين السيدة عائشة فى ٥٠ ص ، وسيرة الأميرة العباسة بنت المهدي فى ٥٥ ص ، وسيرة الملكة الايوبية شجرة الدر فى ٥٠ ص . وفى الجزء الثانى

الى ذلك هذه المـادة « لا تكون المعاهدة نافذة ما لم يتم الاتفاق مع الحجاز » فاحتج مندوبو نجد على هـذه الزيادة وعدوها اعترافاً من الوفد العراقى بوجود اتحاد سري بين العراق والحجاز على نجد . فتوقف البت فى الامر على أن يكون للحجاز مندوب فى المؤتمر ، وعلى استشارة الوفدين مَراجعهما العليا فى هذا وفى الامور المختلف عليها فى الماضي

وفيما كان المؤتمر فى انتظار ذلك رأى أن ينتقل الى معالجة ما بين نجد وشرق الاردن من خلاف فخصص لذلك جلسات أربعاً من السادسة الى منتهى التاسعة وسنذكر ما جرى فيها

واستؤنفت مفاوضات نجد والعراق من الجلسة العاشرة المنعقدة يوم الجمعة ١٠ جمادى الثانية ١٣٤٢ الى منتهى الثالثة عشرة فى ١٤ منه وهى خاتمة مؤتمر الكويت في دوره الاول ، فأعلن وفد العراق تنازله عن اشتراط الاتفاق مع الحجاز أولا ، ولـكن العقدة التى لم تحلّ هى مسألة التجاء شمّر وأمثالها الى العراق . وتقول نجد ان الفارين من شمر وغيرهم يسيئون استعمال حقوق الالتجاء باتخاذهم العراق مركزاً لحركات الغزو على رعايا حكومتهم ، وان هدايا وانعامات تمنح لهم فى العراق تشجيعاً لغيرهم على الاقتداء بهـم ، وان نجداً تعتبر هـذه المسألة أساساً واذا حلت فـكل شىء يمكن الاتفاق عليه بسهولة . والعراق تقول انها لا تستطيع منع قبائل نجد عن الالتجاء الى أراضيها لصعوبة ذلك من الوجهة الادارية ، ولان الملك فيصلاً من بيت عربى شريف فلا يتمكن من رفض من يطلبون جواره ، واذا أعادت العراق هـذه القبائل الى نجد تتسبب عن ذلك مشاكل اخرى من هذا القبيل على الحدود التركية والفارسية والسورية . ويرى سلطان نجد أنه لا يليق بحكومة متمدنة كحكومة العراق أن تكون ملاذاً لمرتكبي الجنايات من قتل وسلب ، وأنه يكفى ان تعلن أنها لا تقبل التجاء الجناة الى أراضيها فتضع بذلك حداً لما يخشى أن يخل بصلات الود بين الحكومتين .

الخطباء في حفلات تأبينه في القاهرة ودمشق وبغداد وحلب وبيروت ، وطائفةً من القصائد التي نظمت في رثائه . وفي أول الكتاب صورة السيد المنفلوطي وصورة كتابه بشأن (كلمات المنفلوطي) . ويتخلله صور عدد كبير من الخطباء والشعراء الذين نشرت كلماتهم في هذا الكتاب الذي أحسن مؤلفه تبويبه وتنسيقه وعني بتجويد طبعه وورقه

﴿ الكتاب الاخضر النجدي ـ عن مؤتمر الكويت ﴾

نشرت حكومة نجد بأمر سلطانها الامام عبد العزيز بن سعود كتاباً أخضرَ بما دار من المفاوضات في مؤتمر الكُوَيت في دوريه الاول والثاني بين وفود نجد والعراق وشرق الاردن ، وبما تبودل من المكاتبات الرسمية حول ذلك في النصف الاول من العام الماضي ١٣٤٢ هـ . وأرادت بذلك أن يعرف العالم الاسلامي عامة والعربي خاصة أن ملك الحجاز السابق قضى بعَنَته على أعزّ الاماني في الاتفاق والاتحاد لصالح الامة العربية

والمفهوم من الكتاب الاخضر أن مسألة الحدود والعشائر بين نجد والعراق تم الاتفاق عليها بمعاهدة ٧ رمضان ١٣٤٠ ، وبملحقاتها الموقع عليها في ١٢ ربيع الاول ١٣٤١ . أما الخلاف الحاضر بينهما فناشيء عن فرار قبائل شمّر أنصار ابن الرشيد الى العراق بعد استيلاء سلطنة نجد على إمارة حائل واعتداء شمر وأمثالها على عشائر نجد قتلا ونهباً بين حين وآخر

والحلّ هذا الخلاف عَقد (مؤتمر الكُوَيت) في دوره الاول جلساته الخمس الاولى من يوم الاثنين ٧ جمادى الاولى ١٣٤٢ الى ١٣ منـه ؛ فلم يتفق الوفدان على ما حدث في الماضي ، واتفقا على أربع قواعد أساسية لمنع حدوث ما يدعو الى مثل ذلك في المستقبل . وعند ما أُريدَ التوقيع على القواعد لتكون ملحقاً آخر لمعاهدة ٧ رمضان ١٣٤٠ امتنع الوفد العراقي من التوقيع الا اذا اضيف

وان نجداً لا توافق على اتصال شرق الاردن بالعراق ، بل لا بد من بقاء نجد متصلة حدودها بسوريا لتكون تجارتها فى مأمن . وفى الجلسة التاسعة تكلم مندوب شرق الاردن كلاماً انقطعت به المذاكرة فى الدور الأول لمؤتمر الكويت

وتوسط الانكليز لما كان الملك حسين فى عمّان لاقناعه بارسال من ينوب عنه فى مؤتمر الكويت فى دوره الثاني فوعد بارسال الامير زيد ، والظاهر أنه اشترط أن ينوب عن السلطان ابن سعود أحد أولاده ، فاعتذر السلطان بأن اهل نجد والعلماء لم يقبلوا أن يتحمل أحد ابنائه هذه المسئولية الخطيرة ، واذا كان الغرض من حضوره تبادل مراسيم المودة فانه يقبل ذلك بكل سرور

وفى يوم الثلاثاء ١٨ شعبان سنة ١٣٤٢ افتتح (مؤتمر الكويت) جلسته الاولى لدوره الثانى فطلب مندوبو شرق الاردن أن تبدأ الحدود من مدائن صالح على أن تمر من شرقي تيما وتضم اليها عشائر ولد سليمان حتي تصل الهوجاء ومن هناك تنعطف شرقاً الى الشمال الى جبل داف ثم تلتقى بخط الطول الاربعين ، وبعد أن تترك الجوف وسكاكة لشرق الاردن تنتهي فى جبل عنزة . فقال الوفد النجدي فى الجلسة الثانية ان حكومة نجد قائمة على ارادة الشعب وفي الوقت الذي تحس فيه بعدم رغبة الاهالي فى البقاء تحت حكمها تنسحب تاركة للاهالى حرية ادارة أنفسهم بأنفسهم وعلى ذلك فهي تقبل مبدأ استفتاء أهالى وادي السرحان . فرفض وفد شرق الاردن الاقتراح بحجة أن وادي السرحان من الشام لا من نجد وأنه ليس فيه سكان ثابتون ليستفتوا فى مصيرهم وان استفتاء أهالي الجوف وسكاكة فقط لا يشمل وادي السرحان . والوفد يقترح أن يكون الجوف وسكاكة ووادي السرحان منطقة حياد ، وان يبقى سائر الحدود كما تطلب شرق الاردن ، ويشترط أن تعاد امارة الرشيد فى نجد وامارة آل عايض فى عسير ، وأن تتخلى نجد عن الاراضي الحجازية التي استولت عليها

واذا قامت صعوبات أمامها فهو مستعد للاشتراك معها فى تأديب الذين يعيثون فى الارض فساداً كما تنص على ذلك معاهدة المحمرة . وعند هذا الحد وقفت هذه المشكلة التي لم تحلّ بعد وقد حدث عقب ذلك مناوشات بين قبائل البلادين.

أما فيما بين نجد وشرق الاردن فان سلطنة آل سعود بعد استيلائها على امارة ابن رشيد ترى انها ذات الحق فى كل ما كان لتلك الامارة ، ومنه الجوف وسكاكة وقريّات الملح الى وادي الراجل . ولكن حكومة شرق الاردن وهى تحت الانتداب البريطانى تسعى جهد الطاقة لتسلخ من جزيرة العرب المستقلة بقاعاً لاعلاقة لفلسطين وانتداب فلسطين وصهيونيي فلسطين بها فتضمها اليها لتشترك هي أيضاً فى تلك المحنة . وقد انتهزت خلوّ قريات الملح من حامية فأرسلت اليها قوة احتلتها ، ولما أرادت نجد استخلاص تلك الجهة استغاثت شرق الاردن بالانكايز فتوسطوا مقترحين حل الاختلاف بالوسائل السلمية وتقرير الحدود بين الفريقين . فلما اجتمع مندوبو البلادين في مؤتمر الكويت للمفاوضة في هذا الأمر طلب مندوبو شرق الاردن فى الجلسة الاولى يوم ١٤ جمادى الاولى سنة ١٣٤٢ (وهي الجلسة السادسة لمؤتمر الكويت فى دوره الاول) أن تكون بلاد نجد مقصورة على ماورد في معاهدة نجد مع الحكومة البريطانية فى ١٨ يوليو سنة ١٩١٦ [١] وأن تتخلى على الجوف وسكاكة وما يتبعها لابن شعلان لانها ضرورية لمستقبل المواصلات بين شرق الاردن والعراق ولذا فلا بد أن تكون تحت اشراف حكومة شرق الاردن . وكان جواب نجد على ذلك فى الجلستين السابعة والثامنة أن ابن شعلان من رعايا سلطان نجد ، ووادي السرحان والجوف كانا تابعين لنجد في أيام دولة السعود الاولى ، ولولا وعد الحكومة البريطانية بحل المسألة سلمياً لما توقفت نجد عن استرداد قريات الملح التي هي جزء حيوى للجوف

(١) كان ذلك قبل ضم عسير وامارة الرشيد الى سلطنة نجد ، اي ان بلاد آل سعود كانت مقصورة على نجد والاحساء والقطيف وجبيل والبلدان والمواني التابعة لها

فاحتج الوفد النجدي على تعرض وفد شرق الاردن لشئون بلاد لاعلاقة له بها . وانفض المؤتمر عقب ذلك فى الحال

مؤلف ايثار الحق على الخلق

لما نشرت شركة طبع الكتب العربية سنة ١٣١٨ كتاب (ايثار الحق على الخلق) وقعت فى خطأين : أحدهما قولها ان نسخة الاصل الذي طبعت عليه محفوظة فى مسجد بني أمية بدمشق ، مع أنه لم تكن فيه مكتبة يومئذ ولا الآن والحقيقة أنه طبع عن نسخة العالم الجليل الشيخ سليم البخاري الدمشقي . والخطأ الثانى انها لم تذكر المؤلف بلقبه الذي اشتهر به ، فقالت انه « أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليمانى من مجتهدي القرن الثامن » والحقيقة التى نبهنا اليها الاستاذ الشيخ عبد الواسع اليمانى هى أن المؤلف اشتهر بابن الوزير . وقد أطلعني سعادة العلامة المحقق أحمد تيمور باشا فى خزانته على ترجمة هذا المؤلف بقلم حفيد له محفوظة فى المجموعة رقم ١١٠ من الخزانة التيمورية ، وفيها ان المؤلف هو عز الدين ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمى المعروف بابن الوزير . ولد فى رجب سنة ٧٧٥ بهجرة الظهراوي من شَظَب ــ وهو جبل عال باليمن ــ وتوفى فى ٢٧ المحرم سنة ٨٤٠ . وهو مؤلف العواصم والقواصم فى أربع مجلدات ، والبرهان القاطع فى معرفة الصانع وجميع ماجاءت به الشرائع ، وتنقيح الانظار فى علوم الآثار ، والتأديب الملكوتي ، والأمر بالعزلة فى آخر الزمان ، وقبول البشرى فى تيسير اليسرى ، ونصر الأعيان على شر العميان (فى التنفير من شعر أبى العلاء) وشرح الابيات الصوفية التي نظمها الامام الهادي ، والقواعد المهمة فيمن نسب اليه مخالفة الأئمة . وله رسائل وردود على المعتزلة والاشعرية

مطبوعات

المطبعة السلفية - ومكتبتها

ص	
١٢	اصلاح المساجد للقاسمي
٢٠	عدة الصابرين لابن القيم
٣	أربعون حديثاً لابن تيمية
٤	المغني في موضوعات الحديث
٥٠	الموافقات للشاطبي ٤ أجزاء
٨	مقدمة الحضارات الاولى لغوستاف لوبون
١٠	الحضارة المصرية . له
[illegible]	مذكرات غليوم الثاني
٥	الحديقة (مجموعة أدب وحكمة)
٥	قبس من نار لخالدة أديب
١	نشيد سعد باشا زغلول
٨	مجموعة النشاشيبي (مختارات)
٣	البستان (محفوظات) للنشاشيبي
٨	دون كيخوتي فكاهي بالصور
٦	كمال البلاغة (رسائل قابوس)
١٢	أدب الكتاب للصولي
١٥	الضرائر الشعرية للآلوسي
٢٠	الأدب العصري في العراق جزآن
١٠	نزهة الانام في محاسن الشام
٦	العصبية عند العرب
١٥	تاريخ العرب والاسلام جزآن
٤	طريقة تعليم الف با لساطع بك
٣	مبادئ القراءة الخلدونية » »
١٢	دروس في أصول التدريس » »
١٢	دروس التهذيب التاريخية

ص	
٥	ديوان خطب النفحات الزينبية
٢٥	تاريخ الموصل للقس سليمان صائغ
١٥	الاقتصاد التجاري
٢٠	السودان المصري ومطامع الانكليز
١٢	تذكار الحجاز لعبد العزيز صبري
٨	رسائل الأحزان للرافعي
٢	النزلات المعدية المعوية عند الاطفال
٢	الحميات الطفحية « «
٢	الحميات التيفودية « «
١٠	الصحائف للآنسة مي
١٠	شرح المعلقات للتبريزي
٥	أشهر الأمثال للشيخ طاهر
١٠	تهذيب أدب الكاتب «
١٠	التقريب في أصول التعريب «
١٠	التبيان في أقسام القرآن «
١٥	المجلة السلفية السنة الأولى
١٠	تقويم المجلة السلفية الاول والثاني
٦٠	احكام القرآن للجصاص
٣	الحنين الى الاوطان
٤	منطق المشرقيين
٣	مبادئ الفلسفة القديمة
٦	الصاحبي في فقه اللغة
٢	الدولة والجماعة
١٠	سيرة عمر بن عبد العزيز
٦	المؤتمر العربي سنة ١٩١٣
٢	الفية السيوطي في مصطلح الحديث

ج ٥ : م ١ ١٥ جمادى الاولى ١٣٤٣

الزهراء

مجلّة علميّة أدبيّة اجتماعية

تصدُر في القاهرة في مُنتصف كل شهر عربيّ

لمُنشئها

محب الدين الخطيب

« الاشتراك السنوي »

خمسون قرشاً مصرياً في المملكة المصرية و ستون قرشاً في الخارج

وثمن الجزء ٥ قروش

سنة المجلة عشرة اشهر * وتقدم للمشتركين في آخر السنة كتاباً هدية

تنشرها ادارة

المطبعة السلفية - ومكتبتها

لصاحبيهما : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

شارع خيرت بالقاهرة رقم ٤٠ (بجوار المالية) * تليفون ١٥ ـ ٧٣ * تلغرافياً (القبول)

فهرس

صفحة

الزهراء

ج ٥ : م ١ — ١٥ جمادى الاولى ١٣٤٣

مدينة الزهراء

ـ بمناسبة التنقيب الجاري الآن عن آثارها ـ

نحن وآباؤنا ـ عبد الرحمن الناصر وعرش الاندلس ـ الخلافة بين بغداد وقرطبة
سبب بناء الزهراء وذكر موضعها ـ صفة الزهراء ومكنوناتها ـ كيف بنيت الزهراء
ملك اسباني بين يدي الخليفة في الزهراء ـ الحياة في الزهراء ـ خراب الزهراء

﴿ نحن وآباؤنا ﴾

أقفُ اليوم مع قرائي أمام أثر من آثار العرب عظيم ، لرجل من رجال العرب عظيم

أقفُ معهم أمام ذلك البناء البديع ، بل أمام الحضارة التي أبدعته ، بل العزيمةِ التي أوجدت تلك الحضارة .. لا لأجل أن نفتخر بالعزّ الذي كان لآبائنا ، فان في ظل هذا الفخر الكاذب اعترافاً بالذلّ مؤلماً ، وانما أردتُ باستعراض هذه الصفحة من تاريخنا أن نتذكر الى أيّ مدًى من قيادة زِمام مدنيّة العالم استطعنا أن نصل في ثلاثمائة سنة فقط ، بعد أن كنا وراء العنصرين الروماني والفارسي مئات المراحل في مظاهر العمران

الظلم لبسوا الاسلام على أبدانهم ولم ينفذ شيء منه إلى وجدانهم » كما قال الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله . فغربت شمس السلام عن دار السلام ، والتاث أمر الخلافة ، واستبدَّ الموالي من الترك على أمراء المؤمنين . وطارت الأنباء سنة ٣٢٠ من بغداد عاصمة المشرق إلى غرناطة عاصمة المغرب بأن مؤنساً ـ وهو أحد أولئك الموالي ـ أراد أن ينتقم لنفسه من فشله قبل ثلاثة أعوام في خلع مولاه الخليفة المقتدر بالله (١) فسار من الموصل الى بغداد بجنوده وسفكوا دم أمير المؤمنين وأسقطوا هيبة الخلافة من نفوس الشعوب الاسلامية والدول الاجنبية

لما رأى عبد الرحمن الناصر ـ وهو ذلك الرجل العظيم بشخصه ، العظيم ببيته ، العظيم بدولته ـ أنّ مقام الخلافة تدلّى بعبث الموالي الى هذا الدرك ، استخار الله تعالى في أخذ هذا العبء على عاتقه ، وأقره على ذلك حكماء قرطبة والاندلس وأئمة العلم فيها ، فتلقَّب بألقاب الخلافة ، وكان لها في عاصمة الاندلس رَونقٌ استمدّته من العلم والعمران ، وهيبةٌ حاطتها بها انتصارات الجيوش وعزّة السلطان ، فوطئت عساكرُ الاندلس من بلاد الافرنج أيام أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ما لم تطأه في أيام سلفه ، ومدّت اليه أمم أوربا من وراء الدروب يد الاذعان ، وأوفدوا عليه سفراءهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعنّ في مرضاته ، ووصل الى سدّته الملوك من أهل جزيرة الاندلس المتاخمين لبلاده فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه (٢) . واستيقظت في صدره الكريم ، رُوحُ جدّه قصَيّ بن حكيم ،

(١) في أواسط شهر المحرم من سنة ٣١٧ عمد مؤنس ونازوك الى خلع المقتدر بالله ، فلم يمض بضعة أيام على خلعه واعتقاله في منزل مؤنس حتى ثار الرجالة والشعب على الحكومة الجديدة منادين « يامقتدر يامنصور ! » وعثروا بنازوك فقتلوه وصلبوه وكان مخموراً قد شرب طول ليلته . ثم اقتحموا دار مؤنس وفكوا اعتقال المقتدر بالله وأعادوه الى منصب الخلافة

(٢) ان هيبة امير المؤمنين الناصر وحرمته في قلوب ملوك الافرنج لم تكن مقصورة على أيام حياته بل استمرت الى مابعد ذلك . حتى ان أردون بن ادفونش ملك أمم الجلالقة لما جاء

﴿ عبد الرحمن الناصر وعرش الاندلس ﴾

انقضى القرن الثالث الهجري في ديار الاندلس بانقضاء عهد صاحبها الامير عبد الله ابن الامير محمد ابن الامير عبد الرحمن الاوسط ابن الامير الحكم ابن الامير هشام ابن الامير عبد الرحمن الداخل صقر قريش ابن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان . ففي شهر ربيع الاول من سنة ٣٠٠ انتقل هذا الامير الاموي الى رحمة ربه وله من أولاده الذكور أشبالٌ عشرة مامنهم الاّ المعمُّ المخول في طبقات السؤدد ، الدخَّال الخرَّاج في مذاهب المجد ، بل كان أعمامهم — اخوة الامير الراحل — لايزالون في عالم الوجود ، تُظلُّهم زرقاء الاندلس وتقلهم خضراؤها . لكن البطولة التي لا تتقيَّد بسن ، والعظمة التي لا تعترض سبيلَها سلسلةُ المراتب ، أوصلت الى كرسي الملك فتى في مقتبل العمر هو الامير عبد الرحمن بن محمد — حفيد صاحب الاندلس المتوفَّى — فتصدَّى الفتى الى الامارة واجتازها دون أعمامه وأعمام أعمامه ، أيام كانت الاندلس « مضطربة بالمخالفين ، مضطرمة بنيران المتغلبين . فأطفأ تلك النيران ، واستنزل أهل العصيان ، واستقامت له الأندلس في سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من أيامه »

﴿ الخلافة بين بغداد وغرناطة ﴾

وكان بنو العباس بن عبد المطلب رحمهم الله يُعانون في تلك الحقبة من الزمن نتائج الغلطة السياسية الكبرى التي ارتكبوها في صدر دولتهم ، وهي تحويل وجوههم عن سُلالة الرجال الذين بنوا دولة الاسلام بأيديهم ، وشادوا دعائمها على جماجمهم ؛ فانصرف العباسيون عن هؤلاء الغُرّ الميامين من وجوه عدنان وقحطان ، إلى أوشاب من الغلمان والمماليك « لم يكن لهم ذلك العقل الذي راضَهُ الاسلام ، والقلب الذي هذَّبه الدّين . بل جاءوا الى الاسلام بخشونة الجهل ، يحملون ألوية

فلم تُصَب من عينه بما أصيبت به جارتها . قال ابن سعيد (في الحلة المذهبة في حلى مملكة قرطبة) نقلا عن الشقندي : « ان العمارة اتصلت في مباني قرطبة والزهراء بحيث أنه كان يُمشى فيها بضوء السرج عشرة أميال [1] »

﴿ صفة الزهراء ومكنوناتها ﴾

قال ضيا باشا : « كان بناء الزهراء أعجوبةَ الدهر التي لم يخطر مثلُ خيالها في ذهن بنّاء منذ برأ الله هذا الكون ، ولا تمثَّل رسمٌ كرسمها في عقل مهندس منذ وُجدت العقول » اه

اذا خرج الانسان من الباب الشمالي لقرطبة في الطريق الذي تقع على يساره رُصافة صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، سائراً على ضفاف الوادي الكبير بين غابات غبياء ، ورياض فيحاء ، لا يلبث ساعتين أو ثلاثاً حتى يلوح له بابٌ عظيم الهيئة ، دقيق الصنعة جميلها ، وهو باب مدينة الزهراء ، الشارعُ الى الصحراء . ويتصل بالباب من جانبيه سور عظيم يحيط بالمدينة وفيه ثلاثمائة برج حربى . فاذا دخل من هذا الباب أفضى الى حدائق غنّاء ، وميادين واسعة الارجاء ، تطلّ عليها من قصور أعيان المملكة ورجال الدولة مبانٍ سامية . فيستمرّ سائراً بين هذه المجالي للمجد والجمال حتى يصل الى (باب الأقباء) وهو أول أبواب القصر ، ومن ورائه مظاهر السؤدد وصنوف المحاسن ، يليها (باب السدّة الأعظم) . وفي صدر هذه الفراديس (السطحُ الممرَّد) المشرف على الروضة ، المباهي بمجلس الذهب والقبيبة [2] ، وعجيب ماتضمنه من اتقان الصنعة ، وفخامة الهمة ، وحسن المستشرف ، وبراعة الملبس والحلّة : ما بين مرمر مسنون ، وذهب مصون ،

(١) نفح الطيب (١:٢١٢) (٢) كان للصرح الممرد قبيبة اتخذ لها الناصر قراميد ذهب وفضة أنفق عليها مالا جسيما ، نقل الفتح في المطمح (ص٤٥) أن القاضي منذر بن سعيد دخل على أمير المؤمنين الناصر فوعظه وأنبه بنهي الله تعالى عن مثل ذلك ، فبكى الناصر وامر بنقض سقف القبيبة وأعاد قرامدها ترابا

فنزع الى أمنية التوحيد والتجميع ، واستمال الى طاعته بني إدريس أمراء العدوة وملوك زناتة والبربر وغيرهم كما وصف ذلك ابن خلدون في تاريخه ٤ : ١٣٧–١٤٣

﴿ سبب بناء الزهراء ، وذكر موضعها ﴾

بعد مرور ربع قرن على تبوُّء أمير المؤمنين الناصر سدَّة مملكة الاندلس ، وكانت انقضت السنة الخامسة لخلافته ، ماتت سرّية له فتركت مالا كثيراً (١) فأمر الخليفة أن يُفَكَّ بذلك المال أسرى من المسلمين ، وطَلب في بلد الافرنج أسيراً فلم يجد ، فشكر الله على ذلك . وكانت الرغبة في العمران مستقرَّة يومئذ في قلوب أهل الدولة العربية وعقولهم ، فقالت له (الزهراء) زوجته : « اشتهيتُ لو بنيتَ لي مدينةً سميتها باسمي وتكون خاصةً لي » . فكان ذلك سبب بناء الزهراء التي يبحث الاسبانيون اليوم في أنقاضها . وهي مدينة من ضواحي قرطبة كرسي المملكة ، انشئت تحت جبل العروس من قبلة الجبل شماليَّ قرطبة ، وكانت كأنها الغادة البيضاء في حِجْرِ ذلك الجبل الاسود (١) يجري بينها وبين قرطبة نهر عظيم (٢) ، وهو الوادي الكبير الذي تقوم الزهراء على ضفته (٣) ، وبين المدينتين مسافة كانت تتراوح بين ثلاثة أميال وسبعة أميال ، بحسب اتساع دائرة العمران أو تقلُّصها في كلتيهما ، ولا سيما في قرطبة التي كانت أبقى على الدهر

الى قرطبة عارضا ولاءه على أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله كما سيأتي في هذا المقال طلب عند وصوله الى باب قرطبة ومروره بين (باب السدة) و (باب الجنان) من القصر أن يدلوه على مكان رمس الناصر ، فأشاروا له الى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة ، فخلع قلنسوته وخضع نحو مكان القبر ودعا ، ثم ردّ قلنسوته الى رأسه (انظر نفح الطيب للمقري ١ : ١٨١–١٨٢ المطبعة الازهرية بالقاهرة سنة ١٣٠٢)

(١) محاضرة الابرار لابن العربي (١ : ١٨٩–١٩٠ الطبعة الحجرية بالقاهرة سنة ١٢٨٢ و ١ : ١٤٧ – ١٤٨ طبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٤)

(٢) نفح الطيب (١ : ٢٢٨) (٣) تاريخ الاندلس (بالتركية) للمرحوم ضيا باشا (١ : ١٢٤ الطبعة الثانية بالقسطنطينية سنة ١٣٠٥)

وجعلت في وسطه (اليتيمة) التي أتحف الناصرَ بها (أليونُ) ملك القسطنطينية وكانت قوامد هــذا القصر من الذهب والفضة . وفي وسط مجلس الخلافة حوض عظيم مملوء بالزئبق . وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصَّع بالذهب وأصناف الجوهر قامت على سواري من الرخام الملوّن والبلَّور الصافي . وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار . وكان الناصر اذا اراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أومأ الى أحد مواليه فيحرّك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لـكل من في المجلس أن المحلّ قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرّك

وللقصر مسجد جامع مؤلف من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة ، طوله من القبلة الى الجوف ـ حاشا المقصورة ـ ٣٠ ذراعاً ، وعرض البهو الاوسط من أبهائه من الشرق الى الغرب ١٣ ذراعاً ، وعرض كل بهو من الابهاء الاربعة المـكتنفة له ١٢ ذراعاً . وطول صحنه المكشوف من القبلة الى الجوف ٤٣ ذراعاً ، وعرضه من الشرق الى الغرب ٤١ ذراعاً . وجميعه مفروش بالرخام الخمري ، وفي وسطه فوّارة يجري فيها الماء . فطول هذا المسجد أجمع من القبلة الى الجوف ـ سوى المحراب ـ ٩٧ ذراعاً وعرضه من الشرق الي الغرب ٥٩ ذراعاً . وطول صومعته في الهواء ٤٠ ذراعاً وعرضها ١٠ أذرع في مثلها . ومنبره بديع في نهاية الحسن ، حُظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة

وقد اختار أمـير المؤمنين الناصر للخطابة على منبر الزهراء خطيباً من أتقى الناس لله وأجهرهم بكلمة الحق وأصرحهم وعظاً لامير المؤمنين بلا محاباة ولا شطط ، وهذا الخطيب هو القاضي منذر بن سعيد الذي كان كلامه العجيب يبهر العقول جزالة ، ويملأ الاسماع جلالة . وكان له في انتقاد أعمال الدولة كلام

وعمد كأنها أفرغت في القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض ، وتماثيل عجيبة الاشخاص ، لا تهتدي الاوهام الى سبيل استقصاء التعبير عنها . وفي السطح الممرّد من جانب القبلة (الابهاء المذهبة) ، يتصل بها (الفُصلان) عن يمينها ويسارها ، ويلي ذلك (المجلسان) شرقاً وغرباً

وان القاعات الكثيرة التي احتوتها الابهاء المذهبة وما اتصل بها من قاعات الفصلان والمجلسين لا تكاد تمايز الا بتنوّع مشاهدها ، واختلاف مناظرها . لذلك كانت صالحة كلها لسرير الملك ، فكان هذا السرير في (البهو الاوسط) من الابهاء القبلية المذهبة يوم احتفل أمير المؤمنين الحَكَم المستنصر بأخذ البيعة لنفسه عند وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر رحمه الله ، ثم كان سرير الملك في (المجلس الشرقي) من مجالس السطح الممرّد يوم تشرّف ملكُ الاسبان أردون بن أدفونش بالمثول بين يدي أمير المؤمنين المستنصر وحظي بتقبيل يده في حفلة قلَّما شهد الدّهر مثلها كما ستَرى بعد

وعلى ذكر (المجلس الشرقي) أقول انه كان يسمى (المؤنس) وفيه (بيت المنام) . وفي وسطه نُصب (الحوض الاخضر المنقوش) الذي جلبه أحمد الفيلسوف مع ربيع الاسقف القادم من بيت المقدس ، وهو حوض مذهب ، وفيه نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان ، وأقيم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدرّ النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد الى جانبه غزال الى جانبه تمساح وفيما يقابله ثعبان وعُقاب وفيل وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها

وفي الزهراء المجلس المسمى (قصر الخلافة) وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه ، المتلوّنة أجناسه . وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك .

الخبز الذي يُرمى لهذه الحيتان والاسماك باثني عشر الف خبزة في كل يوم ، وينقع لها من الحمّص الاسود ستة أقفزة يوميا

وقصور الحرم في الزهراء هي غير ما وصفناه من مجالس الدولة ، وقد تزيد عن هذه فخامة وعظمة . وقد نصّ ابن العربى في محاضرة الابرار على أن صورة (الزهراء) زوجة الناصر كانت منقوشة على باب القصر ، والمعقول أن هذا النقش كان على القصر الخاصّ بالحرم

وفي الزهراء حمامان أحدهما للقصر ، والثاني للعامة

وفيها محلاّت للوحش فسيحة الفِناء . ومسارح للطيور مظللة بالشباك

وفيها دور الصناعة والآلات : آلات السلاح للحرب ، والحلي للزينة . ومصانع التماثيل والنحت والزخارف ، وغير ذلك من المهن والصناعات

ولم تخلُ الزهراء في جانب هذه الفراديس من سجن يسمى (المطبق) ذكره صاحب (روضة الازهار) فيما نقله عنه المقّري في نفح الطيب (١ : ٢٨١)

﴿ كيف بنيت الزهراء ؟ ﴾

أراد أمير المؤمنين الناصر رحمه الله أن يؤسس بنيانه على التقوى ، فزان الزهراء بمسجدها الجامع الذي تقدَّم وصفه . نقل صاحب نفح الطيب (١ : ٢٦٤) عن ابن الفرضي وغيره انه كان يعمل في جامع الزهراء من حذّاق الفعلة كل يوم ألف نسمة منها ٣٠٠ بنَّاء و ٢٠٠ نجّار و ٥٠٠ من الاجراء وسائر الصناع ، فاستتمّ بنيانه وإتقانه في ثمانية وأربعين يوماً ، وهي سرعة لا يكاد يكون لها نظير . وقد وضع المنبر في مكانه من هذا المسجد عند اكماله يوم الخميس لتسع بقين من شعبان سنة ٣٢٩ هـ وأول جماعة صليت فيه صلاةُ المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة . وأول من خطب فيه القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي عيسى

يلقيه من منبر الزهراء على مسمع الخليفة في محضر الناس فيتلقاه الخليفة بالرضى والخشوع لله ، ولو ألقي مثله على أعرق الملوك ديموقراطيةً في الامم الاخرى لكان أقلّ ما يعاقب به قائله العزل

وكانت (خزانة الكتب العلمية) في الزهراء أيام أمير المؤمنين المستنصر من أعظم خزائن الدنيا . روى تليدٌ الفتى القيّم على هذه الخزانة فيما حدّث عنه الحافظ أبو محمد بن حزم أن عدّة الفهارس التي فيها تسمية الكتب ٤٤ فهرسة في كل فهرسة ٢٠ ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط [١] . قال المقري : كان المستنصر عالماً نبيها صافي السريرة . أخذ العلم عن قاسم بن اصبغ وأحمد بن رحيم ومحمد بن عبد السلام الخشني وزكريا بن خطاب وأكثر عنه ، وأجاز له ثابت ابن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء ، وكان يستجلب المصنفات من الاقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن من الاموال حتى ضاقت عنها خزائنه . وكان ذا غرام بها قد آثر ذلك على لذات الملوك . وكان في المعرفة بالرجال والاخبار والانساب أحوذياً نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله . وقلّما يوجد كتاب من خزائنه الا وله فيه قراءة أو نظر في أيّ فن كان ، ويكتب نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الاّ عنده . قال ابن خلدون : وأرسل ألف دينار من الذهب العين ثمنا لنسخة من كتاب الاغاني سنة تأليفه ـ وكان نسبُ مؤلفه أبي الفرج في بني أمية ـ فظهر كتاب الاغاني في الاندلس قبل أن يظهر في العراق موطن المؤلف

وفي الزهراء (البحيرة العظمى) ـ غير ما فيها من البرك المتعدّدة ـ وفي مياهها من صنوف الاسماك والحيتان الالوف الكثيرة . وكانوا يقدّرون عدد

(١) التكملة لابن الابار (ص ٢٧٦) وابن خلدون (٤ : ١٤٦) ونفح الطيب (١ : ١٨٤)

والصاع أربع حفنات بكفي الرجل الذي ليس بعظيم الكفين ولا صغيرهما

ونقل صاحب نفح الطيب (١ : ٢٦٤) أنه لما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنه لم يبن مثله في الاسلام ألبتة ، وما دخل اليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة من ملك وارد ، أو رسول وافد ، وتاجر وجيه — وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة — إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبهاً ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله . حتى أنه كان أعجب ما يوصله القاطع الى الاندلس في تلك العصور النظر اليه والتحدّث عنه

﴿ ملك اسپاني بين يدي الخليفة في الزهراء ﴾

في أوائل سنة ٣٥١ وهي السنة الثانية لخلافة أمير المؤمنين المستنصر أخذ يتأهب لحرب الملك الاسبانى أردون بن أدفونش . فلما علم أردون بذلك سار الى باب المستنصر في عشرين من وجوه أصحابه غير طالب اذن ولا مستظهر بعهد ، ثقةً منه بنبل أخلاق العرب وشرف نفوسهم . فخرج لاستقبالهم هشام المصحفي في جيش عظيم كامل التعبية . وبعد ثلاثة أيام من وصولهم أقيمت حفلة مثول الملك الاسبانى بين يدي الخليفة ، فعبئت الجيوش ، وعرضت العدد والاسلحة ومظاهر الزينة ، وقعد الخليفة على سرير الملك في (المجلس الشرقى) من مجالس السطح الممرّد فى الزهراء. ثم أتى محمد بن طميس بالملك أردون راكباً هو وأصحابه الخيول المطهمة تحف به جماعة من نصارى وجوه أهل الذمة بالاندلس : يؤنسونه ويبصّرونه ، فيهم الوليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما . فلما دخل الملك الاسبانى مدينة الزهراء من بابها الشارع الى الصحراء رأى فرسان الحشم وطبقات الجند والرماة منظمين أكمل تنظيم ومصطفين موكبا اثر موكب من (باب المدينة) الى (باب الاقباء) . ومنه الى

وقال المؤرخ ابو مروان ابن حيان صاحب الشرطة : ألفيت بخط ابن دحون الفقيه قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس « بدأ عبد الرحمن الناصر بعمارة الزهراء أول سنة ٣٢٥ وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدَّل ٦٠٠٠ صخرة سوى الصخر المنصرف في التبليط فانه لم يدخل في هذا العدد . وكان يخدم في الزهراء كل يوم ١٤٠٠ بغل منها ٤٠٠ زوامل الناصر ومن دواب الاكرية الراتبة للخدمة ١٠٠٠ بغل لكل منها ثلاثة مثاقيل في الشهر وكان يرد الزهراء من الجير والجص في كل ثالث من الايام ١١٠٠ حمل »

ونقل صاحب نفح الطيب (١ : ٢٤٦) عن مؤرخ آخر أنه كان يتصرّف في عمارة الزهراء كل يوم عشرة آلاف رجل

وفي نفح الطيب (١ : ٢٦٤) وجلب اليها الرخام من قرطاجنة وافريقية وتونس. وكان الذين يجلبونه : عبد الله بن يونس عريف البنّائين وحسن وعلي بن جعفر الاسكندراني ، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير وعلى كل سارية بثمانية دنانير . واشتملت الزهراء على ٤٣١٦ سارية ما بين كبيرة وصغيرة وحاملة ومحمولة ، فكان عدد ما جلب منها من افريقية ١٠١٣ ومن رومة ١٩ وأهدى اليه ملك القسطنطينية ١٤٠ وسائرها من مقاطع الاندلس تركونة وغيرها . والرخام المجزَّع من رية والوردي والاخضر من افريقية . وعدد مصاريع أبواب الزهراء صغارها وكبارها ١٥١٣ باباً كلها ملبسة بالحديد والنحاس المموَّه

وكان المتولي للبنيان ابنه الحكم لم يتّكل فيه الناصر على أمين غيره . واتصل بنيان الزهراء أيام الناصر ٢٥ سنة شطر خلافته ، ثم اتصل بعد وفاته خلافة ابنه الحكم كلها وكانت ١٥ عاماً وأشهراً . وقدَّروا النفقة عليها زمن الناصر بثلاثمائة الف دينار كل عام أي سبعة ملايين ونصفاً زمن الناصر . وقدَّروا مجموع النفقة بثمانين مُدْياً وسبعة أقفزة من الدراهم القاسمية والمُدْي مكيال يسع تسعة عشر صاعاً

الذي فيه المستنصر وقف وكشف رأسه وخلع برنسه وبقي حاسراً ، إعظاماً لما بان له من الدنوّ الى السرير . واستُنهِض فمضى بين الصفّين المرتبين في ساحة السطح الى أن قطع السطح وانتهى الى باب البهو . فلما قابل السرير خرّ ساجداً سويعةً ، ثم استوى قائماً ، ثم تقدم خطوات وعاد الى السجود ووالى ذلك مراراً الى أن قدّم بين يدي الخليفة وأهوى الى يده فناوله إياها وكر راجعاً مقهقراً على عقبه الى وساد ديباج مثقل بالذهب جعل له هنالك ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير . فجلس عليه والبُهر قد علاه . وأُنهض خلفه من استدنى من قوّامه وأتباعه فدنوا ممتثلين في تكرير الخنوع ، وناولهم الخليفة يده فقبلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم . ووصل بوصولهم وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة فكان الترجمانَ عن الملك اردون ذلك اليوم . فأطرق الخليفة عن تكليم الملك أثر قعوده أمامه وقتاً كيما يفرخ روعه . فلما رأى أن قد خفض عليه افتتح تكليمه فقال : « ليسرّكَ إقبالك ، ويُغبطْكَ تأميلك . فلدَيْنا لك من حسن رأينا ، ورحب قبولنا ، فوق ماقد طلبتَه »

فلما ترجم له كلام الخليفة تطلق وجهه وانحط عن رتبته فقبّل البساط وقال : « أنا عبد أمير المؤمنين مولاي ، المتوركُ على فضله ، القاصد الى مجده ، المحكم في نفسه ورجاله فحيث وضعني من فضله ، وعوّضني من خدمته ، رجوت أن اتقدم فيه بنيّةٍ صادقة ، ونصيحة خالصة »

فقال له الخليفة « أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا . وسينالك من تقدمنا لك ، وتفضيلنا اياك على أهل ملتك ، مايغبطك وتتعرّف به فضل جنوحك الينا ، واستظلالك بظل سلطاننا »

فعاد اردون الى السجود عند فهمه مقالة الخليفة وابتهل داعياً . ثم بعد محاورات أخرى قام للانصراف مقهقراً لا يولي الخليفةَ ظهره ، وقد تكنفه

خارج (باب السدة الاعظم) فرسان العبيد ، وعلى نفس باب السدة البوابون وأعوانهم في أجمل بزّة وأفخر مظهر ، وفي الميادين التي وراء باب السدة الاعظم رجالة العبيد عليهم الجواشن والاقبية وعلى رءوسهم البيضات الصقلبية وبأيديهم التراس الملوّنة والاسلحة المزينة وقد انتظموا صفين الى آخر الفصل ، وبعد هؤلاء صفوف العبيد الفحول شاكين في الاسلحة الرائقة والعدة الكاملة ، يليهم الفتيان الصقالبة لابسين اللباس الخاص بهم وبأيديهم السيوف ، مصطفين في الفصلان ، وبعدهم الفتيان الوصفاء عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية صفين منتظمين في السطح المتصل بالفصلان . ووراء ذلك المجلس الشرقي وفيه أكابر الفتيان يمينا وشمالاً الى آخر البهو وفي صدره سرير الملك وعليه الخليفة المستنصر وفي جانبيه عظماء المملكة وأشرافها وفحول العلماء والخطباء وأكابر القواد

وكان على الملك الاسباني ثوب ديباجي رومي أبيض وبليوان من جنسه وفي لونه وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر . فدخل بين صفي الترتيب يقلب الطرف في نظم الصفوف ويجيل الفكر في كثرتها وتظاهر أسلحتها ورائق حليتها ، فراعه وأصحابه ما أبصروه ، وصلبوا على وجوههم ، وتأمّلوا ناكسي رءوسهم غاضّين من أجفانهم قد سكرت أبصارهم . فلما وصلوا الى باب الاقباء أول قصر الزهراء الرسمي ترجل جميع من كان خرج الى لقائه وتقدّم الملك أردون وخاصّة قوّامه على دوابهم حتى انتهوا الى باب السدّة الأعظم ، فأُمر القوامس بالترجل هنالك والمشي على الاقدام فترجلوا ، ودخل الملك اردون وحده راكباً مع محمد ابن طميس ، فأنزل فى برطل البهو الأوسط من الابهاء القبلية التي بدار الجند على كرسي مرتفع مكسوّ الأوصال بالفضة فقعد اردون على الكرسي وقعد أصحابه بين يديه . وخرج الاذن للملك اردون من الخليفة المستنصر بالدخول عليه فتقدّم يمشي وأصحابه يتبعونه الى أن وصل الى السطح الممرّد ، فلما قابل المجلس الشرقيّ

فاستظرف أمير المؤمنين ذلك وسرّ به وسأل عمن اهتدى الى ذلك وعلّم الززور فذكر له أن السيدة الكبرى أم وليّ العهد صنعت ذلك وأعدّته لهذا الأمر ، فوهب لها ما يزيد على ثلاثين ألف دينار

﴿ خراب الزهراء ﴾

ظلت الزهراء فردوس الارض زمن أمير المؤمنين الناصر وابنه المستنصر وحفيده هشام المؤيد ، حتى أن الوزير المنصور بن أبي عامر سَجن في مطبقها الحاجب جعفراً بن عثمان المصحفي زمن المؤيد . ولكن لما نشبت الثورة المشئومة على هذا الخليفة الضعيف يوم الثلاثاء ٢٦ جمادى الثانية سنة ٣٩٩ احتجاجاً على جعله ولاية العهد الى عبد الرحمن بن أبي عامر دون رجال بني أمية وسائر بيوت قريش اقتحم الشعب قرطبة والزهراء ، فأسقطوا هشاماً ، وأزالوا دولة بني عامر ، ونهبوا قصور المملكة ، حتى أن بعض ما نهب في هذه الثورة وصل الى بغداد وغيرها من البلاد المشرقية ، وبيع في اسواقها . نقل صاحب نفح الطيب (١ : ٢٧٠) عن ابن الرقيق أن ذلك كله كان على يد عشرة رجال فحامين وجزارين وزبالين

بهذه الحادثة خلت الزهراء من أهلها، غير أن مبانيها ظلت قائمة بعد ذلك . وفي قلائد العقيان (ص ١٠ ـ ١١ بولاق سنة ١٢٨٣) ما يدلّ على أن أعيان المملكة في قرطبة كانوا يقصدون الزهراء للتنزه في قصورها ورياضها زمن المعتمد بن عباد (بين سنتي ٤٦١ و٤٨٤) بل كانت لا تزال بقايا منها زمن ابن العربي (٥٦٠ ـ ٦٣٨) فقد زارها وقرأ على بابها شعراً في رثائها . ويؤكد ضيا باشا في تاريخ الأندلس (١ : ١٢٥) أن الاسبانيين هم الذين أعملوا فيها معاول التخريب فعفوا آثارها وقضوا على بقاياها . ولله الأمر من قبل ومن بعد

الفتيان فأخرجوه الى المجلس الغربي في السطح الممرّد وقد علاه البهر وأذهله الروع من هول مباشره وجلالة ما عاينه . وفي المجلس الغربي أجلسوه على وساد مثقل بالذهب ، وأمر الحاجب جعفر فصبت عليه الخلع التي أمر له بها الخليفة وهي درّاعة منسوجة بالذهب وبرنس مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجوهر والياقوت ملأت عينه فخرّ ساجداً وأعلن بالدعاء . ثم خلع الحاجب على أصحابه واحداً واحداً على قدر استحقاقهم

﴿ الحياة في الزهراء ﴾

لقد ألّف أسلافنا في وصف الزهراء والحياة فيها مؤلفات فضلاً عن الابواب والفصول التي عقدوها في كتبهم لذلك . وحسبنا في هذه العجالة أن نذكر لك أن عدد الفتيان الذين كانوا في خدمة الخليفة وأهل بيته في الزهراء ١٣٧٥٠ دخالتهم من اللحم كل يوم ـ سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير وأنواع السمك والحوت ـ ١٣٠٠٠ رطل . وعدة النساء في قسم الحرم من هذا القصر ٦٣١٤ امرأة بين صغار وكبار وخدم . وعدد الصبيان الصقالبة ٣٧٨٧ على ما ذكره المؤرخون. وكان هؤلاء جميعاً ـ من حرم الخليفة الى الجواري والفتيان ـ يخلصون الخدمة والمحبة لباني الزهراء ويصرّفون وجوه الرأي في ادخال السرور عليه . قال صاحب نفح الطيب (١ : ١٦٨) أراد أمير المؤمنين الناصر الفصد فقعد بالبهو في المجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته الزهراء ، واستدعى الطبيب لذلك فأخذ الآلة وجسّ يد الناصر فبينما هو اذ أطل زرزور (طائر) فصعد على اناء ذهب بالمجلس وأنشد :

أيها الفاصد رفقاً بأمير المؤمنينا
انما تفصد عرقاً فيه محيا العالمينا

أرز الجنوب

للشيخ بشير جنبلاط ـ المعاصر للامير بشير الشهابي ومحمد علي باشا الكبير ـ قصر في (المختارة) من لبنان الجنوبي ، مطلّ على غابات من شجر الارز ، يترقرق بينها ماء نبع الباروك الذي أوصله صاحب القصر نفسه الى قرية (المختارة) . وقد زار خليل بك مطران هذه البقاع في الصيف الماضي فألهمته ذكريات تاريخ قصرها ، ومحاسن الطبيعة فيها ، قصيدة كعقد الجوهر ، انتظمت فيه هذه الدرر:

أرزَ الجنوب أسلمْ عزيزَ الجانبِ   والْقَ الدُّهورَ وأنتَ أبقى صاحبِ
اللهَ في أدواحكَ النُّضْرِ التي   تَرِدُ المَعينَ من الجماد الناضب
أوَ ترضعُ الأنداءَ مما أقبلت   تروي العطاشَ به صدورُ سحائب
التاجُ فوقَ التاجِ من أغصانها   حتى ترصّعَه العُلى بكواكب
والنورُ في أوراقها متنخِّلٌ   يصفو ذروراً في عيون الراقب
ولربَّما غشِيَ الضبابُ رءوسَها   فترى مُلفَّعةً ببيض غياهب
أرزٌ تراه كباذخ الابراج إن   تنظرْ اليه من مَدًى متقارب
واذا بعدتَ رأيتَ شاماتٍ على   خدٍّ كُميتٍ لونُه أو شاحب
أعززْ به وبجيرة حفّوا به   سُمَحاءَ أهلِ مَفاخرٍ ومَناقبِ
بالحميّةِ خيرِ من يرجو الحمى   لسَداد خَلّاتٍ ودَرْء نوائب
بُسلاءُ إن تدعُ الحفيظةَ لم تجد   في الحيّ غيرَ الشمّريِّ الواثب
صُوّام ألسنة عن القول الخنا   قُوّامُ أفئدة لفعل الواجب
إن أزمعوا لم يرجعوا ، أو صمّموا   بلغوا النجاح ، وما لووا لمصاعب
إني صدَقتهمُ المديحَ بما بهم   وأقول شرُّ الشعر شعرُ الكاذب

خليل مطران

الغد

غيوبٌ محجوبه ، وحُجُبٌ مضروبه ، وأقدارٌ مكتوبه

أعمارٌ موهوبةٌ أو منهوبه ، وأرزاق مجلوبةٌ أو مسلوبه

بريد الملِك القهّار ، موعده حَواشي الاسحار ، أو غُرَّةُ النهار

حملتِ الفجاءاتِ نجائبُه ، واشتملتْ على المستجدّات حقائبُه ،

وبلغتْ مُستقرَّها مُغرّباتُه وجَوائبُه .

أقبلَ ففُضَّ المختوم ، وظهر المكتوم ، وانفجر المحتوم ؛ وإذا

مَناعٍ وبشائر ، وإذا دَولاتٌ ودوائر

واعلمْ ـ يابن الأيّام ـ أن الغدَ أعدَّه الله لك خيرَ ما أعدَّه ،

ومدَّه لك أيمَنَ ما مدَّه .

هو الشخص الثالث ، في رواية الأيام والحوادث ، والخَلَفُ من

صاحبيه والوارث (١) .

هو معقد الآمال ، وموعد استئناف الأعمال ، ومَرمَى همَّة المال

تنام الانفُس وفي إيمانها منه شكّ ، وفي أيمانها منه صَكّ

فاعمل له ما استطعت ، وانتظره أتى أو لم يأت . وقل سبحان

الذي أتى به ، والذي هو قادر على طَيِّ كتابه ؛ يوم يأتيه أمرُه فلا يبرز

من حجابه

شوقي

(١) شبه الحياة برواية أبطالها ثلاثة : الأمس واليوم والغد

الذي على وجه الأرض نظراً لقول ياقوت وشارح القاموس « وأما الإِمِدّان بكسر الهمزة والميم وتشديد الدال فهو الماء النز على وجه الارض » [١] واستشهادهما عليه بقول القائل:

فأصبحن قد أقْهَيْن عني كما أبت   حياض الامدّان الظباءُ القوامح [٢]

وصنيع المؤلف يقتضي كونه بوزن واحد في المعنيين. قلنا لا جدال في كونه مشدد الميم في اسم الموضع بنص المؤلف بالوزن ونص ياقوت والشارح بالعبارة وأما ضبطهما له في الماء النز بتشديد الدال فيوافقه ما في اللسان غير أنه قال فيه أيضاً « وقيل هو الإمّدان بتشديد الميم وتخفيف الدال » وقال المؤلف في (م د د) « والامدّان بكسرتين الماء الملح كالمدّان بالكسر والنزّ وقد تشدد الميم وتخفف الدال » ومنه يعلم وروده بالضبطين في هـذا المعنى فلا اعتراض على المؤلف في اختياره أحدهما هنا. وانما الذي يصحّ الاعتراض به عليه أن ذكره الامّدان في هـذه المادة يدلّ على اصالة همزته فوزنه على هذا فعّلان لا إفْعلان الذي أراده بالوزن المذكور بعده والصواب ان همزته زائدة كزيادتها في الوزن فكان حقّه أن يذكر في (م م د) لا هنا وقد تنبّه لذلك العلامة ابن الطيّب ونبه عليه في حاشيته على القاموس ونقله عنه تلميذه السيد مرتضى في الشرح بل قـد أعاد المؤلف ذكره في (م م د) فقال « إِمّدان بكسر الهمزة والميم المشدّدة كإِفْعلان موضع »

---

(١) هي عبارة ياقوت وأما عبارة شارح القاموس فنصها « فأما الامدّان بتشديد الدال فهو الماء الذي ينزّ على وجه الأرض »

(٢) الظباء بالموحدة هي الرواية الواردة في شرح القاموس ومادّة (م د د) من اللسان ونسخة مخطوطة عندنا من معجم البلدان والذي في نسخة معجم البلدان المطبوعة في ليبسيك ونسخة مخطوطة عندنا من شرح السيرافي على سيبويه (الظماء) بالميم والرواية الأولى أصح وألصـق بالمعنى. وفي مادة (ق ه ي) من اللسان (الهجان) وهي رواية أخرى والبيت لزيد الخيل أو لابي الطمحان

تصحيح القاموس المحيط

القاموس المحيط للمجد الفيروزابادي أكثر كتب اللغة انتشارا في أيدي الادباء، وهم ينزلون ما رسم فيه منزلة النص في الاعتماد عليه والاحتجاج به . وقد طبع في بولاق ثلاث طبعات أفضلهن الطبعة الثانية سنة ١٣٠٣ . ورغم العناية التي بذلت في تصحيح تلك الطبعة وضبطها فان العلامة المحقق صاحب السعادة أحمد تيمور باشا وجد فيها مائة وثمانين غلطة ونيفاً، فجمعها في رسالة طبعت في مطبعتنا، وستصدر منها بعد أيام قليلة . ونحن ننقل فيما يلي انموذجا من هذا التصحيح :

﴿ الامِدّان والإِمِّدان ﴾

جاء في مادة أ م د (ج ١ ص ٢٧٢ س ٢٤) « والإِمِـدّان كإِسْحِمان واضْحِيان موضعٌ والمـاء على وجه الارض ومالها رابع » . وضبط (الامدّان) بتشديد الدال وهو لا يوافق وزن اللفظين المذكورين بعده فانهما بكسر فسكون فكسر بوزن إفْعِلان وان أُهمل هنا ضبط الثاني اكتفاءً بالاول فالصواب (الإِمّدان) بكسر الأول وتشديد الميم المكسورة كما ضبط في نسخة بولاق المطبوعة سنة ١٢٧٢ ونسخة الميمنية المطبوعة سنة ١٣١٩ ونسختين مخطوطتين عندنا وهو الضبط المنصوص عليه في اسم الموضع بمعجم البلدان لياقوت واقتصر شارح القاموس فيه على تشديد الميم . أما ذكر الاضحيان بعد الاسحمان وهو بوزنه فقد يتبادر أنه تكرار ولكن من يتأمل العبارة يظهر له أنه لا يريد بذكره تكرار الوزن بل مراده أن هـذه الثلاثة بوزن واحد ولا رابع لها بهذا الوزن في كلام العرب

﴿ تنبيه ﴾ قد يعترض بان (الامّدان) بتشديد الميم وان كان هو الصواب في اسم الموضع ومتعيناً بالوزن الذي ذكره المؤلف بعده فان في اطلاقه على الماء

الى جدها كما حققه غير واحد انتهى . ورويت (جمعة) في المتن والشرح بالجيم والصواب أنها خُمَعة بالخاء المعجمة على ماحققه العلامة السيد محمودشكري الآلوسي ونشر فى مجلة لغة العرب التي كانت تصـدر فى بغداد (ج ٢ ص ١٢١) ونص عبارته « اليوم وجدت فرصة لنقل ماذكرته لكم فذهبت الى خزانة كتب مدرسة السليمانية وراجعت شرح حديث أم زرع للقاضي عياض وذكر في هذا الشرح على سبيل الاستطراد نبذة يسيرة من كلام من اشتهرن بالفصاحة من نساء الجاهلية فقال ومنهن خُمَعة بضم الخاء وفتح الميم والعين المهملة كما ضبطه صاحب العباب والمحكم وابن الشـجري في كتابه ما اتفق لفظه واختلف معناه . يقال خمع في مشيته أي ظلع وبه خُماع أي ظلع والخامعـة الضبع الى أن قال واختلف في نسبها والمشهور أنها ابنة الخس أخت هند وقيل غير ذلك » انتهى

﴿ عَجْلَى فرس لَبِيد ﴾

وفي مادة ح ج ل (ج ٣ ص ٣٤٤ س ١٦) « وقول الجوهريّ تحجُلُ اسم فرس تصحيف والصواب عَجْلَى كسكرى » . وجاء فى (مادة ـ خ ب ل ـ ج ٣ ص ٣٥٤ س ١٣) « وأمّا اسم فرس لبيد المذكور فى قوله :

تكاثر قُرْزُلٌ والجَوْن فيها وعَجْلَى والنعامة والخَيالُ

فبالمثنّاة التحتيّة ووهم الجوهريّ كما وهم في عجلى وجعلها تَحْجُل » يريد أنّه وهم في الخيال فجعـله الخبال بالموحّدة كما وهم في عجلى فجعلها تحجل . ورُويت (عجلى) بالعين المهملة في المادّتين ووجدناها كذلك في ثلاث نسخ مخطوطة وفي النسخ المطبوعة بمصر وفي نسخة الشارح أيضاً وقد نصّ في (ح ج ل) على أنَّها بالعـين . وزعم المفتي محمّد سعد الله في القول المأنوس في صفات القاموس المطبوع بالهند (ص ١٣٨) أنَّها تحريف من النُسّاخ والصواب (حَجْلَى) بالحاء

﴿ خُماعة بنت جُشَم ـ وهي القِرِّيَّة ﴾

وفى مادة ق ر ر (ج ٢ ص ١١٥ س ٤) « والقِرِّيَّة كجرِّيَّة الحوصلة واقب جُماعة بنت جُشَم أمّ أيّوب بن يزيد الفَصيح المعروف » . ورُويت (جماعة) بضم الجيم وتخفيف الميم ووردت بالجيم أيضاً في نسخة الشرح والصواب أنَّها (خُماعة) بالخاء المعجمة قال المؤلف في (خ م ع) « وبنو خُماعة بنت جشم كثمامة بطن » وفي الشرح أنَّها هي القِرِّيَّة وهي خماعة بنت جُشم بن ربيعة بن زيد مناة وأنشد :

أبوك رضيع اللؤم قيس بن جندل وخالك عبد من خماعة راضع

ومعنى الراضع هنا اللئيم . قلنا ووزن البيت يدل على تخفيف الميم وهو الموافق لنص المؤلف على أنها كثمامة ولكنه خالف في كتابه تحفة الأبيه فيمن نسب الى غير أبيه فقال « أيوب بن القِرِّية بكسر القاف والراء المشددة وبالمثناة التحتية آخره هاء وهو لقب أمه واسمها خُمّاعة مثال رُمّانة بنت جشم بن ربيعة بن زيد مناة » ونص أيضاً على هذا الضبط فيها الشيخ أحمد بن خليل اللبودي الدمشقي في تذكرة الطالب النبيه بمن نسب الى أمه دون أبيه فلعلها وردت بالضبطين

﴿ خُمعة بنت الخُسّ الايادية ﴾

وفي مادة خ س س (ج ٢ ص ٢٠٨ س ١٤) « الخسُّ بَقْل معروف وخَس الحمار السِنْجار وبالضم ابن حابس رجل من إياد وهو أبو هند بنت الخُسّ أو هو من العماليق والايادية هي جُمْعة بنت حابس كلتاهما من الفِصاح » . وذكر الشارح أن الصواب ان ابنة الخس المشهورة بالفصاحة واحدة وهي من إياد واختلف في اسمها فقيل هند وقيل جمعة ومن قال إنها بنت حابس فقد نسبها

ذكرى الوطن

— نظمت في أواخر غياب طويل بانكلترا —

مِنْ مَغَاني الهوى ومِنْ مَهْدِ أُنسي جَدِّدا لي الصِّبَا فما البعدُ يُنسي
وانْهَرا جانياً تَصدَّى لجرحي وادَّعى أنّهُ الوفيُّ المؤسّي
واسمَحَا لي بقُبلةٍ مِنْ ثَراها فثراها ملاذُ رُوحي وحِسّي
واذكراني بمُرقصٍ مِنْ نظيمٍ حسبتْهُ الأطيارُ أنغامَ (قَيْسِ)
وابعثا والنَّسيمِ لي بَسَماتٍ عشقتْها الأزهارُ مِنْ وجهِ شَمْسي
كم نَهَلْتُ الحياة منها ولكنْ طرحتْني النَّوى فلم تبق كأسي
واسألا ذابلاً غرستُ وقُصّا أيَّ سُقمٍ حكتْه مرآةُ نَفْسي؟
توأمانِ الزّمانُ فرّق عُمْراً بيننا وهو عاجزٌ لا يُقسّي
وأصيلاً تلألا (النيلُ) سَمْحاً أينما زُرتُه بصبغةِ ورسِ
يُلهِمُ الشِّعرَ والدّقاقَ المعاني مِنْ نَميرٍ يُخالُ كوثرَ خلسِ
وربوعاً أُعزُّها عن وجودي هل أصاختْ الى صلاتي وهَمْسي؟
كنتُ ان جُستُ بينها مستهاماً غازلتْني الغصون تَلْثُمْنَ رأسي
ورشفت السُّلافَ مرأى خدودٍ ناضراتٍ وناعماتِ المجَسِّ
ثائراتٍ وما حَمَلْنَ سلاحاً آسراتِ الشُّجاعِ مِنْ قبلِ جبسِ
مِنْ حُرُوبِ الوُرُودِ فيها سلامٌ وسواها يئنُّ تحت الدّرفسِ
السلوُّ الصحيحُ عنها حرامٌ وطفيفُ الغرامِ معدودُ رجسِ

المهملة وقد وجدناها كذلك في مادّة (ح ج ل) في نسخة مخطوطة والنسختين المطبوعتين بكلكتّه سنة ١٢٣٢ و ١٢٧٠ ولكنّها وردت بالعين في مادّة (خ ب ل) من هذه النسخ الثلاث . والرّاجح عندنا أنّها بالعين كنصّ شارح القاموس في (ح ج ل) وقد زاده ايضاحا في (ع ج ل) فراجعه وانما ذكرناه مع صحة ما بالنسخة للتنبيه عليه وبيان وهم المفتي في هذا التوهيم

الفصول والغايات — للمعرّى

نشرنا في الجزء الأوّل من (الزهراء) نموذجا من كتاب (الفصول والغايات لأبي العلاء المعرّي) الذي عثرنا في مكة على المجلد الاول منه بخط قديم يكاد يكون معاصراً للمؤلف . والى القراء نموذجا آخر منه . قال أبو العلاء :

يا بُغاةَ الآثام ، ووُلاةَ أمور الانام . مَرتَع الجور وخيم ، وغِبُّه ليس بحميد . والتواضع أحسن رداء ، والكبر ذريعة المقت ، والمفاخرة شر كلام

كلنا عبيد الله فما بال الرجل يقول « عبدي فلان » والعبودية في عنقه ألزم له من طوق الحمامة ، ومُؤتي المَلِكِ مُلْكَهُ قاصرَ الصعلوك على عدمه . وكاسي الجميل حُلَّة الجمال ، هو سالبُها القبيحَ . فاحمدِ أيها البَهِجُ خاصّكَ ، ولا تغمِط سواك ، فبيد الله العطية والحِرمان

يتيه الأنسيّ والسُّرْفة أصنع من الآدميّ : تتخذ لنفسها بيتاً من حُطام الشجر ورُفات النبات يعجب له الراءون ويعجز عنه العاملون . والجارسة تبنى من الشمع أحسن مسكن ، وتودعه طيب الأري ، وزمازمُها تسبيحٌ لملهم الحكمة من أراد . فما فضيلة الصنَع اذا اتخذ قميصاً للحرب كبارد الحَبب أو بُرد الحُباب * غاية

وجبانٌ مَنْ يستطيبُ التلهّي ... وذووه على مآتم نَحْسِ
وحيالي من العظاتِ عظاتٌ ... ينحني عندها الزّمانُ لِدَرْسِ !
شامخاتُ الطّباعِ مِنْ قَدٍّ صُلْبٍ ... مُعجزاتٌ بصمتِها غيرُ خُرْسِ !
وبناءُ الجلالِ تخسأُ عنهُ ... صاعقاتُ البِلى لجنٍّ وإنسِ !
أمةٌ لم تطقْ من الشمس مُلكاً ... فاعتلتْ همّةً على كلّ كرسي !
أمةٌ تبتني لأخلاق خُلدٍ ... فخرُها النّبلُ لا زهاءُ الدّمقس
في مقامِ الفداءِ يَرخصُ غالٍ ... عندها دونَ أن يُعدَّ كَبَخْسِ
أمةٌ هزَّها اليقين وهمّتْ ... فسمتْ فوقَ مجدِ رومٍ وفُرْسِ
فتحتْ دولةَ الهواءِ وسادتْ ... أبحُرَ الأرض بين سَبْحٍ وغَسِّ
طال قَبْسُ العلومِ فيها ولكنْ ... ماتوانتْ وماشكتْ طولَ قَبْسِ
وأقامتْ ممالكاً وأدالتْ ... مِنْ عُروشٍ وأحرزتْ أيَّ تُرسِ
سَخّرتْ بالدّهاءِ شَعباً فشعباً ... أتقنَ الحكمِ بين لينٍ ويُبْسِ
كلّما حُمّلتْ ثقال المعالي ... لم تَضعْ فِتْرَةً بوهْمٍ ونَفْسِ
ثلثُ عمري مضى وما زلت فيها ... حائراً دائراً كعبّادِ شَمْس
أتمنّى وما التمنّي بمُجْدٍ ... لبلادي ، كذاكَ أُضحي وأمسي
ما حوتْ مِنْ رجاحة في نساءٍ ... ورجالٍ كأنّهمْ كلُّ نطْسِ
صلحتْ تُرْبَةً وجادتْ سماءً ... فسمتْ عن دُنَا الانحطاطِ الأخسِّ
فعليَّ العفاءُ إنْ ضِقتُ ذَرْعاً ... بنداءٍ لدحْضِ جهلٍ وهجسِ

* * *

مِنْ بساتينها ملاعبُ نورٍ ... وَقَفُوها على ظباءٍ وخنسِ
حرستْها الأُسودُ رغمَ جراحٍ ... رُبَّ جرحٍ أضاف بأساً لبأسِ
وحبيباً قضى بطبٍّ اغترابي ... والمحبُّ العليلُ يفنى بِنُكْسِ
ثورانُ الجبالِ أهدأُ رَوْعاً ... مِنْ فؤادِ المحبِّ مِنْ فقدِ عُرسِ !
ايه يا مُثْخِني بنفيي عذاباً ... حسبكَ اللهُ في سهامٍ وقوْسِ !

***

وطني لو صبرتُ في البعدِ عنهُ ... مثلتْ آيهُ بحِسّي ولَمْسي !
وطني لو عَدَتْه أقسى العوادي ... ماتعدَّتْ على يقيني وحدسي !
وطني لو دُعيتُ أن أَفتديهِ ... ماتمنَّيتُ غيرَ تخليدِ رَمْسي!
وطني لو سُئلتُ في البعثِ عنهُ ... شِمْتُهُ ضاحكاً بجنّاتِ قُدْسِ !
وطني مَفزَعي أنا منهُ بَعضٌ ... كيفَ أنساهُ وهو أصلي وأُسّي ؟ !
كيف أرثيهِ وهو رغمَ التنائي ... مُلهمي، مُنعشي، غفورٌ ليأسي ؟

***

تتوالى السنونُ والعهدُ باقٍ ... بين حُلْوِ المُنى ومُرِّ التأسّي
وأذوقُ العجيبَ حولي رضيًّا ... وشَقَائي بفضلِ هـذا التحسّي
ويُطيلُ الزمانُ حبلَ اغترابي ... وحنيني الى اللّقاء الأَمَسّ
وبكائي بكاءُ لهفان عانٍ ... حظُّهُ يومُهُ فينزو لأَمْسِ
ما جلالُ (التاميز) الاّ جلالاً ... مُذكياً اوْعَي لأَبناء جنسي
مَنْ يبعْ ذمّةً بعاجلِ رِبْحٍ ... جرَّ حَتْماً عليهِ بيعةَ وكسِ

حياة ابن خلدون

ومُثل من فلسفته الاجتماعية

محاضرة القاها الاستاذ المحقّق السيد محمد الخضر

في جمعية تعاون جاليات أفريقية الشمالية بالقاهرة

— ٢ —

تنكر وزير الاندلس لابن خلدون

حاز ابن خلدون لدى ابن الاحمر رعاية ضافية فجاش الحسد فى نفوس بعض معاديه وطفقوا يسرّون لابن الخطيب مايزلزل ركن الصداقة بينه وبين ابن خلدون حتى اغبرّ صدره وبدا عليه انقباض احسّ به ابن خلدون ، فجمل وجه البلاد فى عينه قاتماً ، ولم يسعه بعد تنكر ابن الخطيب وهو القابض على مقاليد الدولة إلا أن يعتزم على الرحلة . واتفق أن وافته كتب من أبي عبد الله صاحب بجاية يستدعيه للقدوم عليه فاتخذها ذريعة لاستئذان السلطان فى الانصراف الى افريقية دون أن يطلعه على ما كان بينه وبين ابن الخطيب فامتعض فى مبدإ الامر ضنًّا بفراقه ثم ادّكر أن للحنين الى الوطن حكما لا يغالب ، فاذن له بالظعن ، واصدر فى تشييعه مرسوما من املاء ابن الخطيب ، يشهد له فيه برفعة القدر واستقامة السيرة والتحقيق فى العلم ، ويوصي قواد الدولة وأعوانها برعايته واسعافه فى كل حال

سفره الثانى الى بجاية

سافر الى بجاية سنة ٧٦٦ واقيمت له يوم مقدمه حفلة مشهودة فاركب السلطان خاصته لاستقباله وهرع اليه أهل البلد بنفوس متعطشة الى لقائه وانهالوا يمسحون اعطافه ويلثمون يده . فاجتمع له فى هذا الاحتفال اقبال الدولة وانعطاف الامة ،

إنَّ مصرَ الفتاةَ بنتُ عُصُورٍ صقلتها ورواقبتها كغرس
لم يزلْ مِنْ غرامِ فرعون باقٍ تتحدَّى به الجمالَ الفرنسي
هي نجوى الشعوبِ أصلاً ونسلاً لم يَقمْ عندها جلالٌ لطمس
رَهْنُها مُفحِمُ المآثرِ شتّى ناطقاتٍ بوعظِ مِيناءَ ورَمْسِي
وشهودُ الفخارِ في كلِّ صخرٍ ألبستها القرونُ أروعَ لبسِ
لم تزل تمنحُ الحضارةَ وَحياً يُخجلُ الغاصبَ الكميَّ ويخسي
حسبُ داعي النهوضِ ما جمعته من (صحاحٍ) يُضيء عن غير لبس
ووثوبٍ أصاب نجوى عُصُورٍ في سنينٍ مِنَ العجائب خمس

***

يافؤادي الخفوق صبراً قليلاً رُبَّ خفقٍ أضمتَ مجهودَ عكس
سوف تحظى بقرب مصرَ فتنسى ما جنته النوى بنفيي وحبسي
سوف تلقاكَ والمكارمَ فيها بدعاءٍ على الفضيلة حبسِ
أُمّتي ملكُها حياتي فبعضٌ مِنْ قليلٍ لها جَناني وطِرْسي !

السويس الناهضة — الدكتور احمد زكي ابو شادي

« أمثال العرب »

حكى أبو عُبيدة ــ فيما حكى عنه أبو حاتم ــ أنه أوصل الى احمد بن سعيد ابن سهل الباهلي أربعة عشر الف مثل عربي : بعضها في الجلود، وبعضها في القطنى، وبعضها في القرطاس . فتفرّدت العرب من بين سائر الامم بكثرة الامثال

رسالة (التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم)
لأبي هلال العسكري

المراسلة بينه وبين الوزير ابن الخطيب

بعث اليه الوزير ابن الخطيب من غرناطة برسائل يشكو فيها مضض النوى ويتلهف على عهد اللقاء. وقلوب الاصدقاء قلما تتصدع بحزازات الوشاية وتعود الى عنفوان ودها الصميم ، ولكن الرقة الدافقة على ذوق ابن الخطيب ، والادب المنسجم فى مزاج خلقه الرصين ، ذهبا بأثر ماسعى به اليه قوم لا يفقهون ، ونهضا به الى تأكيد صداقة انتظمت بينه وبين رجل يدانيه علما وأدباً ويضاهيه فى طرق التفكير والعمل لرقي نظام الاجتماع

واذا كانت الرسائل مثالا لمنهج الرجلين فى المحاورة ساعات اللقاء فان هذه المراسلة تنبئك ان المجالس التى كانت تعقد بين هذين الوزيرين الخطيرين لم تكن مضمار علم وأدب فقط بل كانت ممتعة بالنظر فى الشؤون السياسية الداخلية والخارجية ، فقد أتى ابن الخطيب فى بعض هذه الرسائل على تفاصيل من أحوال الدولة بغرناطة وألمّ فيها بانباء عن دولة الاسبان فى اشبيلية . وكذلك تجد ابن خلدون تعرّض فى الجواب عن تلك الكتب لحوادث دول شتى فنسق فيها قسطا من الحديث عن شؤون دول تونس والجزائر والمغرب الاقصى والحجاز ومصر . ولو أن علماء الاسلام أخذوا فى هذا السبيل أينما كانوا ، ومدوا جانباً من عنايتهم الى الاطلاع على تصاريف الدول ومجارى سياستها لبلغوا منتهى السؤدد وبرءوا من تبعة وقوع الشعوب الاسلامية فى هذا البلاء المبين

مساعيه السياسية وهو فى بسكرة

أقام ابن خلدون في بسكرة مقبلا على دراسة العلم ولم ينكث يده مع ذلك من التدخل في شؤون الدولة فكان يشايع أبا حمو صاحب تلمسان حين نهض يجلب بخيله ورجله على بجاية ، فكان وسيلةً الى توثيق عرا الصلة بينه وبين السلطان

وهما لا يجتمعان لشخص بانتظام إلا حيث تكون الدولة رشيدة ، واذا كانت الدولة قد تقبل على غير عظيم فان الامة لا تخلع عطفها واجلالها الا على من تقدر عظمته وتثق باخلاصه

ولايته الحجابة لسلطان بجاية

تقلد ليوم خلا من قدومه منصب الحجابة ، وهي لدى دول المغرب : الاستقلال بادارة شؤون الملك ، والانفراد بالوساطة بين السلطان وبين أهل دولته . بيد أنه استلم زمام السياسة بعد ان نشأت بين السلطان أبي عبد الله وابن عمه ابي العباس صاحب قسنطينة فتنة نفدت التدابير دون اطفائها ، وما برحت تتأجج الى ان كانت عاقبتها قتل ابي عبد الله واستيلاء أبي العباس على بجاية

خرج ابن خلدون باسطاً يد الطاعة الى أبي العباس ولقي منه احتفاء وانعاماً وسرعان ما انكفأت عقارب السعاية به تدب حول السلطان فلم ينشب ان استأذنه في الانصراف فأجاب طلبه بعد تمنع وارتحل حتى عرج على بسكرة لصحبة كانت بينه وبين أميرها احمد بن يوسف بن مزني

انصرافه الى العلم

وما كان يمتحن به ويقاسيه من مشاكسة المنافسين له في مقاعد الرياسة ونصبهم حبائل السعاية به ، ثم تنكر السلطان له بعد الرعاية والاقبال ، صرف قلبه عن التعلق بأسباب السياسة وجعله يفرغ همته في تحقيق العلوم ودراستها . ومن أجل هذا قعد عن السفر الى أبي حمو صاحب تلمسان ، حين استدعاه ليقلده الحجابة وكتابة العلامة ، ووجه اليه أخاه يحي ليقوم بعمل هذه الوظيفة مكانه

وكان له مع الوزير سابق صحبة فأدرَّ عليه من معصرات بره وكرامته فوق ما يحتسب ، وظل عاكفاً على التدريس صارفاً همته الى الوجهة العلمية الى أن ظهر السلطان احمد بن أبى سالم على الوزير ابي بكر بن غازي واجتذب مقاليد الامر من يده ، ولم يستقر به الحال حتى قام وزيره محمد بن عثمان يدخل عليه الريبة من جانب ابن خلدون ويغريه بالقبض عليه. وما هذا الوزير بأول من ازدهت به الرياسة وتطوحت به في غرور حتى عمى عليه أن لأعاظم الرجال كابن خلدون تاريخاً باقياً وصحائف لا تغادر صغيرة ولا كبيرة من مجاملة أهل عصره له أو اساءتهم الا أحصتها

عودته الى الاندلس سنة ٧٧٦

قبض عليه السلطان ابن أبي سالم وسرعان ما نهض الى خلاصه الامير عبد الرحمن الذي شارك السلطان في حرب الوزير أبي غازي واتفق معه على أن يستقل بولاية مراكش وأعمالها ولم يطمئن به المقام بعد أن رأى من تنكر السلطان وسوء طوية وزيره ما رأى ، فابتغى الوسيلة الى إذن السلطان له بالانصراف الى الاندلس ليتفرغ للعلم ومدارسته في ظل دولة ابن الاحمر الذي أولاه في رحلته الاولى سابغ الكرامة والانعام ، ولم يظفر بالجواز الا بعد تسويف وعلى رغم من وزيره ورجال دولته

دخل الأندلس سنة ٧٧٦ فجرى السلطان على عادته من بسط يد الاكرام وانزاله منزلة الاحتفاء والرعاية الى أن وفد على غرناطة مسعود بن ماسي من حاضرة فاس وأبلغ السلطان باغراء من رجال دولتها أن ابن خلدون كان يبذل مساعيه وجاهه في خلاص لسان الدين بن الخطيب (١) ، فانقلب عطف السلطان

(١) كان لسان الدين بن الخطيب بفضل ماله من التبحر في العلم والادب والخبرة بمذاهب السياسة قبض على زمام دولة ابن الاحمر وانفرد بالتصرف في شؤونها فشجيت به بطانة السلطان وحاشيته واساءوا الى السعاية به من كل حدب حتى احس بانها اخذت من السلطان مأخذ القبول فاحتال للتخلص من الاندلس والتجأ الى السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الاقصى وبقي في ظل

أبي اسحاق صاحب تونس وحمل بعض القبائل على مناصرته حتى سار اليه بطائفة من قبيل الذواودة والتقى به في البطحاء ثم قفل معه راجعا الى تلمسان اذ بلغ اباحمو ان السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الاقصى يتحفز للوثوب على تلمسان . ولما اقتربت ساعة استيلائه عليها وأخذ أبو حمو في أهبة الانجلاء عنها الى الصحراء اعتزم ابن خلدون على الارتحال الى الاندلس وحمّله ابو حمو رسالة الى ابن الاحمر صاحب غرناطة فاتصل نبأ سفره بالسلطان عبد العزيز ونمى اليه انه يحمل وديعة الى ابن الاحمر فانفذ اليه سرية اعترضت سبيله فلم تلق عنده ما يحقق هذه التهمة وانقلبت به الى السلطان فلقيه حوالي تلمسان فقضى ليلته في اعتقال وفى الغد اطلق سبيله فانصرف الى رباط الشيخ أبي مدين ونزل بجواره على قصد التفرغ للعلم ونثر درره الشائقة بين يدي طلابه

استدعاؤه الى فاس

ولم يزل متمتعا بحياة علمية خالصة حتى استدعاه السلطان عبد العزيز وأوعز اليه فى الخروج الى بلاد رياح ليجمعهم على طاعته ومناصرته فانبعث يعمل فى هذا السبيل بكلمة نافذة ودعاية ناجحة الى ان قضى المأرب وبلغ الغاية المنشودة ، وكان يسعى الى هذه المهمة السياسية وهو مقيم ببسكرة فى جوار أميرها احمد بن يوسف بن مزنى الذى هو صاحب زمام رياح ، وما راع ابنَ خلدون الا ان أخذ حساده ينفثون سموم الوشاية فى اذن احمد بن مزنى فهاجوا غيرته وأوغروا صدره حتى تنفس بالشكوى منه الى صاحب شورى السلطان وترمار بن عريف ورفع صاحب الشورى هذه الشكوى الى السلطان ، فما كان من نظره الا ان استدعى ابن خلدون الى حاضرة فاس ، فخرج بأهله وولده . ولقيه في الطريق نعي السلطان وتولية ابنه الصبي ابى بكر السعيد في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي فدخل فاس

من عالم غربي الى عالم شرقي

— رسالة تاريخية —

تفضل حضرة صاحب السعادة العالم الجليل أحمد تيمور باشا فأتحف (الزهراء) بالنصّ الأصلي لكتاب أرسله شيخ المستشرقين العالم الشهير أغناس غولد صهر المتوفى منذ نحو سنتين الى شيخنا العلامة المحقق الشيخ طاهر الجزائري يسأله فيه عن مسألة تاريخية . والكتاب بخط الاستاذ غولد صهر وهذا نصه :

سلامٌ الى صاحب الشرف الباذخ ، والفضل الشامخ . من هو المرجع للأماثل والافاضل ، والحاوي لأقصى معارج الفضائل والفواضل . العالم العلاّمة الشيخ طاهر بن صالح المغربي الجزائري . أدام الله تعالى فضله ، وزاد بقاءه آمين

لله دَرُّ عِصابة نادمتُهم يوماً بجلَّق في الزمان الاوّلِ

أما بعد فان الانسان ، مشتقٌ من النسيان . وبدوَران الزمان ، عفا في قلبه أثر الاخوان . والاحبَّاء والاخلاَّء يفرقهم الملوان . ومع ذلك أرجو أنْ ما انمحى من قلبكم خيال صاحبكم المَجَرِيِّ الذي كان يستجير بشامكم في سنة ١٢٩٠ مقتبساً عن أنوار علمائها ، وكثيراً ما تداول بين فضلائها وادبائها ، وصاحبَكم يوماً فيوماً مستأنساً بمحاورتكم ومذاكرتكم . وكنا اذ ذاك — أنتم وعبدكم الكاتب — في عنفوان شبابنا ، متبحرَين في العلوم الشريفة ، مستغرقَين في بحور الآداب الظريفة. والآن هيهات — بعد ممرّ سبعة وعشرين من الأحوال — وَهَنَ عظمي واشتعل رأسي شيبا . أما واللهِ تعالى ما اُندرس ذكركم وذكرُ الصاحبين المنيرين عن نفسي وفؤادي ، مع أني

لقد عيل صبري بعدكم وتكاثرت همومي ولكنّ المحبَّ صبور

ومعتمداً على دوام ما جبل الله تعالى في قلوبنا من المحبَّة والمودّة أتجسَّر يا أيها الشيخ العلاَّمة أن استفهمكم عن مسألة دمشقية لا أجد حلَّها في الكتب

عليه جفاء وأنسه به وحشة واجلاه الى العدوة من بلاد المغرب الأقصى

وموضع العبرة فى هذه الواقعة انك تقارن بين عودتيه من الاندلس فتجده فى المرة الاولى قفل من غرناطة والسلطان يبسط له يد المجاملة ويودعه بقلب يأسف لفراقه ، ثم هو متوجه نحو بجاية والدولة متأهبة لاستقباله باجمل مايتصور من مظاهر الاحتفاء . وتراه في هذه المرة انصرف عنها والسلطان يكره اقامته وتطوى عنه بساط انسه ، خرج وهو لايدري أين يلقى عصا التيار : هذه دولة الاندلس تنفيه من أرضها ، وتلك دولة المغرب الاقصى تلحظه بعين الحنق وترمى من ورائه بسهام الكيد والاذى ، وهذا ابو حمو صاحب تلمسان لم يزل ينقم عليه مشايعته للسلطان عبد العزيز وسعيه في صرف وجوه العرب عنه يوم كان طريدا فى الصحراء . بيد ان اباحمو كان على روية لايفوتها ان الاخذ فى معاملة رجل خطير كابن خلدون بالرفق والاناة انما توضع فى حساب الحسنات التى ينوه بها التاريخ ويرتقى بها شأن دولته فسمح له بدخول تلمسان فجاءها وقد ذاق من صروف السياسة عذاب الهون فما كان الا ان تجرد للقراءة ولم يشغل وقته بسوى المذاكرة فى العلم ودراسته

وقد يكون انحراف الدولة عن النابغة أو اضطهادها له أشد داعية الى بذله كل مايملك من الجد والالمعية فى توسيع دائرة معارفه أو الحذق فى صناعة التأليف أو الاستنباط ، فان الكدر الذى قد يثيره تغابيها عن مكانه أو بخسها من قيمته انما يكشفه ارتياح النفس وتمتعها باستطلاع حقائق العلوم التى هى اصفى لذة وابقى سؤددا من نيل الحظوة والقرب من مجالس الامراء

رعايته ثم فى حماية الوزير ابي بكر بن غازى من بعده . ولما استولى احمد بن ابي سالم على حاضرة فاس حسبما قصصناه فى المحاضرة وكان استيلاؤه عليها بمساعدة وموالاة من السلطان ابن الاحمر قام سليمان بن داود يغزي السلطان بالقبض عليه فاودعوه السجن وائتمروا على قتله بدعوى انه وقعت له كلمات فى كتاب المحبة تنطق بزندقته . ثم اوعز سليمان بن داود الى بعض الاوغاد بقتله فهجموا عليه ليلا وقتلوه خنقا فى محبسه

الوهاب . وتخبروني أيضاً عن أحوالكم كليّاتها وجزئياتها . وأما عبدكم فيتشكر لله تعالى على ما أنعم عليه من خيره ، صابراً على البلايا ، ان الله مع الصابرين . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وكتبه
العبد الحقير الفقير
اجناس كولد صيهر
المجريّ

تحريرا في بودابشت
٥ ذي الحجة من شهور سنة ١٣١٧

﴿ الزهراء ﴾ — اننا لا نعلم بماذا أجاب شيخنا الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله على الاسئلة الواردة في هذه الرسالة . والذي نعلمه ان المحيا لا يزال يقام في دمشق بمسجد بني اميَّة ، ولا نعلم اذا كانت هنالك فئة لا تزال مثابرة على احياء ليالي الأثانين والجُمعات ، غير أن من المحقق أن المحيا يقام في ليالي مخصوصة به من الاشهر الثلاثة ولا سيما ثالثها (رمضان) ، وآخر من عرفناه مثابرا على ذلك المرحوم عثمان آغا السمان من وجهاء حيّ القيمرية بدمشق . والمحيا معروف بهذا الاسم الى يومنا هذا . ويقام في المشهد الشرقي من مسجد بني أمية تحت منارة سيدنا عيسى عليه السلام ، أو في الزاوية المجاورة لهذا المشهد بين جدار القبلة والجدار الشرقي من المسجد . وجامع التيروزي الذي بجوار قبر عاتكة رضي الله عنها لا يزال موجودا الى يومنا هذا ويتولى الخطابة والامامة فيه الشاعر الدمشقي الشيخ عبد الرحمن القصّار . ولا نعلم ان كان الاسرة السوارية بقية ذات علاقة بالمحيا في دمشق أو نواحيها

﴿ مناف ﴾

في معهد الآثار العربية الذي اقيم في دار أسعد باشا العظم بدمشق مذبح للنذور نقشت عليه أول صورة عرضت لمناف حامي حمى قريش قبل الاسلام

التي تحت تصرّفي مع شدّة اشتياقي لأزالة شبهتي في تلك المادّة . فذلك أني قرأت في (خلاصة المحبّي) و (سلك الدرر للمرادي) وغيرهما من الكتب التاريخية وطبقات علماء الاسلام أن الشيخ عبد القادر بن محمد بن سوار المتوفّى سنة ١٠١٤ بعد رجوعه من مصر الى دمشق كان أول من أنشأ (سنة ٩٤٠) بدعة حسنة نقلها من مصر وهي إقامة الجماعات الذِكريّة المختصّة للصلوات على النبي صلى الله عليه وسلم وعرّفوا هذه الجماعات باسم (المَحيا النبوي) لإحيائهم ليالي الاثانين والجُمُعات بتلك الاوراد والأذكار . واستمرَّ منصب شيخ المحيا ومقدّم الجماعات المحيوية في نسله السوارية اذا مات منهم أحد خَلَفه ابنه في هذه الوظيفة الشريفة . وكان المحل المخصوص لاداء المحيا الموصوف مشهدٌ في شرقي الجامع الاموي لقّبوه مشهد المحيا وجامع التيروزي بجوار قبر عاتكة رضي الله عنها خارج دمشق . وبعد ذلك فاني اشتاق كثيراً أن تفضّلوني باخباري عن المسائل الآتية أوّلاً فأوّلاً :

١ — هل تستمرّ الجماعات المذكورة في الشام ونواحيها الى يومنا هذا ؟

٢ — ما اسمها في اصطلاح الناس ، أبقي عليها اسم المحيا أم بدّلوها باسم غير هذا ؟

٣ — أين محلّ اقامة الجماعات المحيوية في دمشق ، هل تستمرّ في المشاهد المذكورة فوقه الى الآن أم نقلت الى غيرها من المشاهد ؟

٤ — هل تتوارث وظيفة شيخ المحيا في العيالة السوارية كما كان في القرن الحادي والثاني عشر أم اتسعت على غيرها من البيوت الفاضلة الشامية ؟ تفضل عليّ يا أيها الشيخ بافادة جواب شافي (١) مُثاباً جميل الثواب ، من الله الكريم

(١) كذا

متمشياً مع الحقيقية التي هي وعاؤه، تحف به مواكب التصوير، وفخامة التعبير، وجلال العظمة، ورونق الجمال

الشعراء

أما الشعراء بالحقيقة فهم نبراس الامة، ومصدر الحكمة، ورسل العواطف المكنونة في الصدور، والشموع النيرة المتقدة التي تشتعل لتنير، وتذوب لتخترق الظلمات والدياجير؛ فتشرف بالكون على حياة أسمى، وفكر أرقى، وترفعه من أسفل سافلين، الى أعلى عليين

الشعراء المجيدون في كل عصر ومصر تختلف مميزاتهم الأدبية ومنازعهم الشعرية وأساليبهم الخاصة التي يخطها الواحد لنفسه، فينشأ على عكسه الآخرون: فهذا ولِهٌ بحسن الصياغة وقوة التأليف وطلاوة الديباجة، فهو أشبه بالصائغ الماهر المتفنن الذي يقضي سحابة نهاره بجودة عمله وحسن ابداعه ليبرز الموجود من الحلى النفيسة زينةً للناظرين. وذاك هائم بحسن التصوير مع رقة التعبير، فيغوص بفكره وتصوراته الى أعماق احساس القلب ليستخرج من كنوزه الثمينة اللؤلؤ والمرجان فيمحو شخصه أمامك حتى لا تكاد تراه ثم لا يلبث أن يجيء بالخواطر المبتكرة والدر النفيس الذي يدوم بدوام الاجيال حياً خالدا في نفوس الرجال. وذلك هام في عالم الجمال فسبح في سماء الخيال وضرب على وتر شعور النفس وإلهام الحس فجاء بالتعابير البهجة والتشابيه المرقصة الخلابة التي تمثل الحقيقة في جانب الخيال فيبهجك ويطربك، ثم لا يلبث أن يجول فيزول ويترك في المخيلة للدلالة عليه اثرا ضئيلا ورسما محيلا. أما الشاعر الفرد فهو من جمع بين مختلف هذه الصفات والمميزات وسما الى غاية ما يرقى اليه استعداد الفكر في مراتب الابداع وقوة الاختراع فجاء شعره آية الآيات ومعجزة المعجزات. ويقال لأولئك شعراء ذلك العصر، أما هو وحده فنابغة الدهر

الشعر والشعراء

وتطوُّر الشعر العربي

الشعر لسان الوجدان ، وترجمان الجنان ، وسجلّ الحكمة ، وخدر البلاغة ، ووعاء الحقيقة ، ومرآة آداب الأمم ، وصحيفة أخلاقها ، وديوان أخبارها . ينجم عن خطرات فكرية اختبأت في ناحية من النفس ، حتى اذا امتزجت بالعواطف الحساسة الرقيقة ، ودبَّ دبيبها ، فاحدثت نشوة في الروح ؛ وتسابقت الى الافهام ، فعلقت بالخواطر والاوهام ؛ تصرفت بها القوة الناطقة ، فصقلها البيان حِكَماً زاهرة ، وغرراً ساحرة

وليس بشعر الاّ ما يهيج ويغضب ، ويسرّ ويطرب ، ويلعب بالنفوس ، لعب الخمر بالرءوس ، فيتمثل به جمال الوصف ، وحسن التصوير ، وتحليل مشاعر النفس ، وسبر اغوار الحياة ، وتمثيل الحقيقة فيترك في النفس ما تتركه النغمة الموسيقية من الأثر في نفس السامع

ولا غرو فما الشعر والموسيقى الاّ واحد ، بل هما صنوان : هذا يصوّر لنا جمال الطبيعة بالخيال والبيان ، وتلك تعبر عنه بالأنغام والالحان . ولولا مايتخلله من تلك النغمة الموسيقية ، والروح السارية التي تستطير الألباب ، وتستفزّ النفوس بالتصور الدقيق ، واللفظ الرشيق ؛ لكان الشعر عين الفلسفة ؛ لأن الاول غذاء النفس ، وتلك غذاء العقل : ذاك يغذى النفس بنغماته ورنّاته ، وأهازيجه ونبراته ، وتلك تغذي العقل بحججها القاطعة ، وبراهينها الساطعة

وابلغ الشعر واسماه ما يعبر عن عواطف الشاعر ؛ فتبرز به الخيالات والتصورات بروز المحسوسات ، ويحيط بما تشعر به النفس من الحب والشوق والوجد والحنين ؛ جامعاً بين الاغراض النفسية ، وسبر غور الحقائق الكونية ؛

الشعر العربي

لا مراء بأن التصورات الشعرية عند العرب قديمة للغاية ، ولا يبعد أن يكون النظم المقفى الموزون حادثاً جديداً تناولوه عن طريق الأمثال باديء بدء ثم اتفق لأحدهم أن جاء به شطرين مسجوعين فحذا حذوه الجميع من حيث التقفية والوزن لما بهما من الرنة الموسيقية الخلاّبة

بيد أنه كان الرجل في الجاهلية ينظم ابياتاً من الشعر لامر يبدو له ، حتى اذا جاء زمن هاشم بن عبد مناف قُصّدت القصائد ونهض أمرُؤ القيس وتتابع بعده الشعراء فنهض الشعر من كبوته وعظم فيهم مقام الشاعر ونزل من نفوسهم وافئدتهم منزلا لا ينزله الملوك والامراء وذوو اليسار والكبراء

ولم يتسنّ للامة العربية بلوغ شأوها المتعال الذي لا يتطالُ اليه متطالٌ الا بخروج النبي العظيم وظهور القرآن الكريم ، وآنئذ نهض سيد الفصحاء والبلغاء وامام الفلاسفة والحكماء الامام علي بن أبي طالب (ع) واقتفى أثره العلماء والمحدثون من أهل الكوفة والبصرة والحجاز وجعلوا اللغة باشارة منه دروسا تقرأ وفنونا تدرّس ، وقيدو اوابدها ودوّنوا مفرداتها ، فانتعشت الآداب العربية وارتفع شأنها ، وقامت المرأة تخطب في الأندية وبين الصفوف وتبرز في مقدمة السابقين لخوض عباب البحث في ميدان الحركة الفكرية بفضل ذلك الإمام العظيم

قضى الامام الكبير نحبه وقام بعده الامويون والعباسيون آخذين بناصر العلماء واكرام الشعراء ، فعرّبت الكتب ودوّنت الدواوين وظهرت التآليف الكثيرة ونبغ من الشعراء جمّ غفير كالشريف الرضي ومهيار الديلمي والسيد الحميري وأبي الطيب المتنبي وكُثيّر عَزّة ودعبل وبشّار بن بُرد وابى العتاهية وابي نُواس والبُحتري الى أمثالهم من فحول الشعراء الذين نهضوا بالشعر نهضة سامية وسموا به الى الافق الأعلى. وحسبك نابغات العرب اللائى برزن بحلبة الشعر

الشعر في التاريخ

الشعر لم تخل منه أمة من الامم قديما في حديث ، اذ هو رفيق الانسان في كل زمان ومكان ، ومصدر الحكمة وترجمان كل امة ومرآتها التي تنعكس فيها حضارتها وملكاتها وانفعالاتها النفسية

بيد أن الشعوب الساميّة كانت أكثر الامم اعراقاً في الخيال وأقربها الى التصورات الشعرية . ومن تصفح التوراة يرى بها امثلة كثيرة من التصور الشعري . وهناك اسفار كلها شعر كسفر ايوب وسفر اشعيا ومزامير داود . ولما كانت اللغة العربية أكثر استعداداً من العبرانية للتعبير الشعري — لما فيها من التصرف باساليب البيان — كان العرب أكثر استعدادا من العبرانيين لقرض الشعر والاستغراق في عالم الخيال

وحسبك ان لهم من مدونات الشعر في عصر واحد مالم يجتمع عند أمم العالم في عدة قرون . فقد ذكر مؤرخو العرب أن الاصمعي كان يحفظ ١٦٠٠٠ أرجوزة وأن حماداً الراوية كان يروي ٢٧٠٠٠ قصيدة على كل حرف من حروف الهجاء ألف قصيدة ، وأن أبا تمام حبيب بن أوس الطائي الشاعر المشهور صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من أشعار الجاهلية ١٤٠٠٠ أرجوزة غير القصائد والمقاطيع مع أن إلياذة هوميروس وإيذيستهُ هما معظم شعر جاهلية اليونان ولا يزيد عدد أبياتهما على ٣٠٠٠٠ بيت . وانك لتجد لدى المقابلة بينهما — مع ما يظن في ذلك العدد من المبالغة — بوناً شاسعاً رغم قول عمرو بن العلاء « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقلّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » ولطالما اشتد ولعهم بالشعر حتى كان له عندهم سوق رائجة وقيمة عظيمة حتى لم يكادوا يتركوا شيئا مما وقع نظرهم عليه من مستحسن ومستقبح وما اعتقدوه في انفسهم وماعرفوه من الحكمة البالغة الا نظموه شعرا

ابن رشيق

ـ من محاضرة الاستاذ عبد العزيز الراجكوتي ـ

﴿ ابن رشيق بحضرة المعزّ ﴾

المعزّ وان لم نعثر له على شعر كما نقلنا عن ابن خلكان [١] إلا أنه كان مع ذلك ناقدا بصيرا ومِصْقعا نحريرا ـ والعجب من صاحب المقالة فى دائرة المعارف الإسلامية بالانكليزية حيث زعم ان الذي كان ابن رشيق من شعراء حضرته هو المعز الفاطمي ـ فكأنه لم يفرّق بين المُعِزَّيْن ولم يعرف الهِرّ من البِرّ ـ وهذا يتضح من انتقاده على بيتي ابن رشيق الحائيّين وقد مرّا ـ ثم ان نونيّته المارةَ أثبتت لديه أن الرجل كأن له شأنٌ ومنتشر له ذكرٌ ولما أنشده لاميّته اختصّه لنفسه وجلبه الى ديوانه وحفّه بجوائزه السنية ورفّه بصلاته الخطيرة على ما مر ، وما ساعده الدولة والإقبال لم يُحْوِج شاعرَه إلى غيره . ثم إنّ الدهر قلب له ظهر المِجنّ والايام كما علمت غُدُرٌ والدهر دُوَلٌ وسيأتيك بيانه . قال ابن شرف [٢] فى أبكار الأفكار له « استدعانى المعز بن باديس يوما واستدعى ابا على الحسن بن رشيق الأزدى وكنا شاعرَيْ حضرته وملازمَيْ ديوانه فقال أحبُّ أن تصنعا بين يدىَّ قِطعتين فى صفة الموز على قافية الغين فصنعنا حالا من غير أن يقف أحدنا على ما صنعه الآخر (راجع قطعتيهما فى الغين من شعرهما) فأمرنا للوقت أن نصنع فيه على حرف الذال فعملنا ولم يُرِ أحدنا صاحبه ما عمل (وراجعْ قطعتيهما فى الذال من شعرهما) قال ابن شرف فانت ترى هذا الاتفاق لما كانت القافية واحدة والقصد واحدا. ولقد قال من حضر ذلك اليوم ما ندرى ممّ نتعجب أمن سرعة البديهة أم من غرابة القافية

(١) ولفظه (٢ : ١٠٥) له شعر قليل لم أقف منه على شيء (٢) البدائع ١ : ٢٢٦

في كل عصر فبارين أدباءها الكبار وأتين بقطع كالروض تنسيك بلاغة البلغاء وسلاسة المترسلين والادباء ، كزينب وسكينة والخنساء وجنوب وعلياء والسوداء الى غيرهن من الاديبات والنابغات اللواتى اشتهر أمرهن بين قديم وحديث

ولم يزل الشعر سامىَ المكانة عزيز الجانب عند العرب زمنا طويلا حتى داخلتهم العجمة وشذّت لغتهم عن الفصاحة وسرى الخمول في كل بقعة من أنحاء الامة العربية فتهدّم مجد السلف ولعبت به أيدي الضياع والتلف فخمدت جذوة الشعر وانطفأت شعلته بعد ذلك السمو والرفعة وتلك العزة والمنعة ، ومكث يئن من معضلات أسقامه ومزمنات آلامه بسبب النفوذ الاجنبي المنتشر في الاقطار الشرقية العربية ، حتى تسنى لفريق من أبناء العربية مداركة ذلك الانحطاط بعقد مجالس الأدب ، وهبَّ المرحوم الخديوي محمد علي باشا لنشر المعارف في مصر وقام السيد الافغاني دائبا يبث روح النهضة فى الشرق وقام تلاميذه من بعده — فى العراق ومصر وسوريا — مقتصين اثره فأنشأو الصحف العديدة ونهضت مصر فى البرهة الاخيرة طالبة استقلالها فعصفت بها ريح الثورة الوطنية وحذا حذوها طالبو الاصلاح فى الاقطار العربية فسرت فى الشرق عامة روح جميلة بسبب تلك العوامل الجمة افضت لانتعاش اللغة العربية ووجود ادباء عديدين وشعراء مجيدين طالما نشر لهم في الصحف السيارة شعر فاخر يذكّر بالعصر العباسي الزاهر

ومما لاريب فيه ان ما نشاهده بأم العين من دلائل الحركة الفكرية المنتشرة في الاصقاع العربية ، وانتعاش الروح الوطنية في انحائها، سينجم عنه تطور في الآداب والفنون والرقي والعمران ، وستلعب دورا خطير الشأن في المستقبل العاجل . ولله در القائل :

ما إن تقوم وترتقي لغة ... مالم تقم في الأرض دولتها

صيدا (جبل عامل) ... **محمد كامل شعيب**

﴿ هو في الخليط ﴾

كان على أعلى درجة من الخلق كما مرّ فى حكاية رحلة الصقلىّ إليه ويذكر لنا فى شعره أنه لا يستحلّ الجفاء بالاخوان ولو على المقارضة:

من جفاني فانني غير جافٍ صِلةٌ أو قطيعة فى عَفاف

ويعظ أصدقاءه بأن قطوبى ليس عن سوء الطويّة او دُخلل فاسد فلا يغرّنكم ذلك

أحب أخى وان أعرضت عنه وقلّ على مسامعه كلامى

الثلثة الابيات. وذكر فى الأنموذج (١) حكاية تدلّ على كرم ومروءة وسماحة نفس ودماثة خُلق فى ترجمة الشاعر أبى الحسن محمد الصرائرى قال « رأيته فى سوق ابن هشام بالقيروان ماشيا فى فروٍ أحمر عتيق مما يوارى ركبتيه وقلنسوة قديمة وهو يشترى لحما. فتواريتُ عنه إكباراً له وحياءً من رؤيته فى تلك الحال واتّبعتُه إلى بيته فلما عرفته ذهبت فأتيته بعيبة كانت لى فيها ثياب لاجعلهاعليه فاذا هو يُصلِح القدر وعليه ثياب نفيسة وعمة شريفة وفى وسطه احرام دبيقى مرتفع فسلمت عليه متعجبًا منه فأنكر حالى فقال مالك فقصصتُ عليه القصة من أوّلها إلى آخرها فأثنى بخير وقال قابلت العامة العَمياءَ بما يشبهها » . وقد مرّ فى ذكر شيوخه أنه يتأدّب معهم دائما ويزين أبواب كتابه بنقل أقوالهم بأسمائهم وإن احتاج أن ينتقد على قول أحد منهم لا يخلّ برعاية الادب . ولا يني يُثنى على ولىّ نِعمه ابن أبي الرجال الآخذ بُحجْزته من الوهاد الى الجبال كأنه يرى عنقه خاضعة لأعباء إنعامه وكاهله ينوء بأحمال إكرامه. والاسف أنى مع طول التنقيب لم أعثر على موادّ تاريخية فهاك ما وجدته من الباب فى شعره

(١) البساط ٦٣

أم من حسن الاتفاق » اه فهذا يدل على ما مَنح شاعريه من الاختصاص وَحضِّهما على المساجلة في قرْض الشعر ومثله ما نقله ابن بسام[1] « أن ابن رشيق دخل عليه يوما وعنده جماعة من الادباء وفي يده أُتْرُجَّة ذات أصابع كأنها واسطة ذهب أو جذوة لهب ، فأمرهم المعز أن يعملوا فيها شيئاً فعمل ابن رشيق :

اترجَّة سَبْطة الأطراف ناعمة تلقَى النفوس بحظ غير مبخوس
كأنما بسطت كفًّا لخالقها تدعو بطول بقاء لابن باديس

والبيتان كما ترى آيةٌ في الحسن وهما على البديهة فكيف لو تَروّى فيهما .
ثم قال ابن بسام فاستحسن ذلك منه وفضّله على من حضر من الجماعة الأدباء (كذا) . ومثله ما روى أنه رجع من بعض غزواته منصورا فتقدم ابن رشيق وأنشده :

وكأنما راياته مشهورةً يوم اقتحامه
أيدٍ تشير الى العد وّ بسلمه أو بانهزامه

وكذا قوله[2] وقد غاب المعزّ عن حضرته وكان العيد ماطراً :

تجهّم العيد وانهلت مدامعه وكنتُ أعْهدُ منه البِشر والضَحكا
كأنما جاء يطوى الارض من بعَدٍ شوقاً اليك فلما لم يجدك بكى

ولكن لما انتقل المعزّ من سيل أعراب مصر الى المهدية وتبعهُ صاحبنا طاش فكره وفال رأيه فكان يمتعض من أدنى فَلْتة ويَجْبَه على أحقر بادرة ويسيء الظن بصديقه الوفيّ وصاحبه الحفيّ فارتحل الى صقلّيّة وهو كاره مع انها لم تكن أحسن حالا من إفريقية كما سيمرّ بك

(١) ابن خلكان ٢ : ١٠٥ والبدائع ٢ : ٣٩ وجمعنا بين الروايتين
(٢) المعاهد ٢ : ١٦ وخزانة الحموى ٢١٤

النقائض[١] معزوين لابن كلثوم فى خبر مختلف عما عندهما ، والله أعلم بصاحبهما إلا أنا ذكرناه لغرابته وأن صاحبنا لم يغفل عنه مع شذوذه . ويذكر فى العمدة من الكتب المأخوذ عنها مالا نكاد تقضى منه العجبَ ونسأله « أنَّى لك هذا » ولو كان حيًّا يسمع لأجابنا « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » وحسبك شاهداً لما نحن بصدده أن كتاب جمهرة أشعار العرب مع عدم شيوع نُسخه وعدم عثور المتقدمين عليه نرى مكتبة صاحبنا مزهوة به حيث يقول[٢] « وقال محمد بن أبى الخطَّاب فى كتابه الموسوم بجمهرة أشعار العرب » . ونرى أن تعاصر العلماء ربما يمنع بعضهم عن ذكر اسم صاحبه بخير إلا أن صاحبنا لا يستهجنه قال[٣] « وزعم أبو أسامة فيما رأيته بخطه وقد عاصرته وكان علامة باللغة » وأنموذجه فى شعراء عصره ليس إلا . ونراه يأتى[٤] بأشعار المعرى مع المعاصرة فان المعرى توفى سنة ٤٤٩ ﻫ فذكر بيتين له من غير صنعة اللزوم فى عمدته

هـذا ما كان من أمر الرواية وأما الدراية فإنه من دقة النظر وغموض الفكر وإصابة المرمى بمحل رفيع . لا يترك قولا نقله إلا ويؤيده أو يزيفه إن كان يحتاج إلى بحث . ويدور مع الحق حيثما دار فنراه انتقد على أساتذته وعلى الأصمعى[٥] والصاحب ابن عَباد[٦] والقاضى الجرجانى[٧] صاحب الوساطة . وهو بنفسه يعترف فى محل آخر[٨] بفضل القاضى حيث يقول « وهو أصح مذهباً وأكثر تحققا من كثير ممن نظر فى هذا الشأن » ونراه[٩] يوصى الشعراء وصية طويلة قال فيها بعد ذكر ما أحدثه المتأخرون من المعانى المبتكرة والإبداعات الغريبة وإبداء فضلهم على من تَقَدَّمَهم « هذا على أنى ذممت الى المحدثين أنفسهم فى أماكن من هذا الكتاب وكشفت لهم عَوارَهم ونَعيتُ لهم أشعارهم ليس هذا

(١) ص ٨٨٦ (٢) العمدة ١ : ١٦١ (٣) ٢ : ١٥٤ (٤) ٢ : ٨٢
(٥) ٢ : ١٩٣ (٦) ٢ : ١٩٣ (٧) ٢ : ١٩٥ (٨) ٢ : ٢١٥ (٩) ٢ : ١٨٥

مع ذكر القوافي فقط : يلقننا القناعة وينهانا عن الجشع (التعب) . يحذرنا عن مخالطة العوام (الاكفاء والصموت) يخوفنا بالموت ويوقن بالبعث والنشور وتراه ترعد فرائصه من ذكر يوم الدين والوقوف بين يدي رب العالمين (القضاء وظلل). يحوم حول الحقيقة والجوهر ولا يحفل بالظاهر وليس من أهل الجعجعة والدندنة أو الفخفخة والطنطنة (معتمد) . يشكو الينا جوده وبذله كما قيل :

انا اذا اجتمعت يوماً دراهمنا ظلت الى طرق المعروف تستبق
لا يألف الدرهم المضروب صرتنا لكن يمر عليها وهو منطلق

(جودي) ـ يلين جانباً عند ذكر الماضين . قال في العمدة [١] وقد ذكر عدة ابتداءات للشعراء « وقد قلت أنا وإن لم أدخل في جملة من تقدم ولا بلغت خطته »

﴿ سعة اطلاعه وإصابته الغرض وغائر نقده ﴾

هو من سعة الاطلاع وجمع المواد اللازمة والوقوف على كتب الشعر والشعراء بمكان لا يجارى فيه ، بل روى الدواوين الأدبية برواياتها المختلفة ، قال [٢] وذكر بيتاً لضباب بن سبيع بن عوف الحنظلي : هكذا روايته بالحاء غير معجمة وهو الصحيح وبعضهم يرويه غمة بالغين معجمة ـ وقال [٣] في بيتي عمرو بن كلثوم صددت الكأس البيت وماشر البيت : انه اختلسهما وهما لعمرو ذي الطوق (ابن أخت جذيمة الأبرش) فاستلحقهما عمرو بن كلثوم في قصيدته وكان [أبو] عمرو بن العلاء وغيره لا يرون ذلك عيباً اه أقول عزوهما إلى عمرو ذوي الطوق لم ينبه عليه ابن كيسان ولا التبريزي ولا الزوزني نعم ذكره أبو العلاء في رسالة الغفران [٤] والبغدادي [٥] في الخزانة في خبر طويل ـ وهما في كتاب

(١) ١ : ١٥٣ (٢) ١ : ٩٤ (٣) ٢ : ٢١٧ (٤) مصر ٦٨ (٥) ٣ : ٤٩٨

فيالكَ يوماً خيرُه قبل شرّه تغيّبَ واشيه وأقصرَ عاذله

قال خلف ويحه ماينفعه خير يؤول الى شرّ فقلت هكذا قرأته على أبى عمرو ابن العلاء قال صدقتَ وكذا قال جرير وكان قليل التنقيح لألفاظه وما كان أبو عمرو ليُقرِئَك الا كما سمع . قلت : فكيف يجب أن يكون ؟ قال : الاجود أن يكون خيره دون شرّه فاروه كذلك وقد كانت الرواة قديماً تُصلح أشعار الاوائل . فقلت والله لا أرويه إلا كذا ـ ثم قال : قلتُ أنا أمّا هذا الاصلاح فمليح الظاهر غير أنه خلاف الظاهر وذلك أن الشاعر أراد أنه كان ليلَه فى وصال ثم فارق حبيبَه نهاراً وذلك هو الشرّ الذي ذكر والراويةُ جَعَلَه لم يفارِق فغير عليه المعنى الا أن تكون الرواية ويوم كإبهام الحباري ـ فحينئذ ـ على أن دون تحتمل ما قصد وتحتمل معنى قَبْل وتكون أيضاً بمعنى بَعْد اه ولا يسلّم قولا ما لم يترجّح عنده بدليل ولا يتلكأ عن نَبْذه ولا يحمله تقدم قائله فى العصر على التقليد الاعمى قال[1] فى باب رُخص الشعر « ويجوز له (للشاعر) التقديم والتأخير كما قال العُجَير السلولىّ :

وماذاك إن كان ابن عمّى ولاأخى ولكن متى ما أملكِ الضُرَّ أنفعُ

برفع العين أراد ولكن أنفع متى ما املكِ الضرّ . ولا أدرى ما الفرق بين هذا وبين :

[يا أقرع بن حابس يا أقرع إنك] إن يُصْرَعْ أخوكَ تُصْرَعُ

حيث فرّقوا بينهما غير أنا لانسلم لهم كما سلم من هو أثقب منا حساً وأذكى خاطراً » اه أقول سيبويه[2] يجعل تُصْرَع خبر إن وجواب ان يصْرَع محذوف عنده . والمبرّد يجعل فاء الجواب محذوفاً والأصل عنده فتصرع . وهذا شأن المحققين أن يحوموا حول الدليل كما أنكر ابن قتيبة على سيبويه وهو هو عدة

(١) ٢ : ٢١٣ (٢) انظر الخزانة ٣ : ٣٩٦ والسهيلى ١ : ١٦٠

جهلا بالحقّ ولا ميـلا إلى ثَنيات الطُرق ولكن غضًّا من الجاهل المتعاطى والمتحامل الجافى الذى اذا أعطى حقَّه تعاطى فوقه وادَّعى على الناس الحسد وقال أنا ولا أحَدٌ وإلى كم أعيش لكم وأىّ علم بين جنبَىّ لو وجدتُ له مستودَعًا ، فاذا عورض فى شعره بسؤال عن معنى فاسد أو متهَم أو طولب بحُجة فى لَحنة أو شاذ أو نوظر فى كلمة من ألفاظ العرب مصحَّفة أو نادرة قال هكذا أعرف وكأنمـا أعطى جوامعَ الكلم ، حاشَ لله ! وأستغفر الله ، بل هو العَمَى الأكبر والموت الأصغر » الى آخر ما نعى به عليهم ونَدّد من تعجرفهم وسنُلِمّ بشىء منه فى الآتى وبحسبك فى لطافة فكره وغَوْرِ سبْرِه ماقال[1] بعد أن نقل اعتراض الصاحب على بيت المتنبىء فى مرثية والدة سيف الدولة :

رِواق العزّ فوقك مسبطِرٌّ   ومُلْكُ علىّ ابنِك فى كمال

ان لفظة الاسبطرار فى مراثى النساء من الخذلان الصفيق الرقيق ثم قال وأنا أقول ان أشدّ ماهجن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة هجاء أنه قرنها بفوقك فجاء عملا تامًّا لم يبق فيه الافضاء اه قال العاجز نعم كذا هو « فوقك » فى الوساطة[2] وشرح الواحدى[3] إلا أن فى شرح العكبرى[4] موضعه حولك . وفى الشرحَيْن قول أبى بكر الشعراني تلميذ المتنبىء أنه غير مسبطرًّا وجعل مكانه مستطيلا وان لم يكن بأمثل من صاحبه إلا أن اعتراض ابن رشيق ارتفع بالمرّة واعتراض الصاحب شيئاً قليلا

ونقل في باب أغاليط الشعراء والرواة من العمدة[5] عن الأصمعى قال : قرأت على أبى مُحرِز خَلَف بن حَيَّان الأحمر شعر جرير فلما بلغت الى قوله :

وليلٍ كإبهام الُحبارىَ محبَّبٍ   إلىّ هواه غالبٍ لىَ باطلُهْ
رُزقنا به الصيدَ الغزيرَ ولم نكن   كمن نَبله محرومة وحبائله

(١) ٢ : ١٢٤ (٢) ٧٣ (٣) طبعة بومباى ١٨١ (٤) ٢ : ٢٣ (٥) ٢ : ١٩٢

سيف .... وكانت عند أبي القاسم مع طبعه صنعة فاذا أخذ في الحلاوة والرقة وعمل بطبعه وعلى سجيته أشبه الناس ودخل في جملة الفضلاء . وإذا تكلف الفخامة وسلك طريق الصنعة أضر بنفسه واتعب سامع شعره . ويقع له من الكلام المصنوع والمطبوع في الاحايين أشياء جيدة. ثم ذكر له من كلي (١) القسمين بيتاً بيتاً ثم قال فهذا كله جيد وقد زاد فيه على البحتري الخ.فأنت تراه في حكمه غير مائل عن جادة الإنصاف ، ولا هائم على وجهه في الشطط والاعتساف، كآخرين يحملهم الحب أو البغض على حرمان المصيب واستحسان المخطىء

الدعوة الاسلامية وشخصية العرب القومية

ان الدعوة الاسلامية التي دعا اليها النبي العربي الكريم يمكن ان تعد في الوقت ذاته مظهراً من مظاهر بروز شخصية الامة العربية في الكون ، وعاملا في تجدد صلاتها مع الامم الاخرى على وجه لا يقاس قوة وسعة بما كان من هذه الصلات قبل الاسلام بعد دور فترة العرب وجاهليتهم

لقد طرأ على العرب في الجزيرة قبل الاسلام ببضعة قرون شيء من الفترة ضعفت فيها دولهم اليمنية المنتظمة التي كانت على الاغلب جماع أمرهم وسمط عقدهم ومد الاحباش اليها أيديهم وما لبث ان حل نفوذ الفرس محل الاحباش فيها . ولم يكن المناذرة والغساسنة ليحولوا دون ذلك ، لانهم لم يكونوا وحدة عربية تنقاد اليهم بها العرب على اختلاف اقطارهم وقبائلهم . بل لقد كانوا سببا في ازدياد نفار العرب وحروبهم واتساع شقة الخلاف بينهم. وكثرت بسبب ذلك ، وباسباب جاهلية اخرى ، الوقائع والحروب بين عرب الجزيرة مما هو معروف في التاريخ بأيام العرب يمنيين ومضريين ، ويمنيين فيما بينهم ، ومضريين فيما بينهم أيضا

في مثل هذه الحالة التي أنهكت قوى العرب وشتت شملهم وفرقت وحدتهم وجعلت اخوة القبائل عداء وخصومة وحرباً ودماً ، وفي مثل هذه الفترة التي

(١) قال ابن درستويه في كتاب الكتاب (ص ٢١) أن كلا وكلتا يكتبان في حالة الاضافة الى المظهر والجر أو النصب بالياء فتكتب رأيت كلي الرجلين ومررت بكلي الرجلين

تصحيفات له فى الروايات وبناءَ مسائلَ من النحو عليها فى مقدمة طبقات الشعراء (ليدن ص ٣٢)

وأرى أن أنقل هنا آراء عدة من الشعراء فى شعر محمد بن هانىء المغربى قال ابن خلكان (١) فى ترجمته :

ويقال ان أبا العلاء المعرّى كان اذا سمع شعر ابن هانىء يقول ما أشبّهه إلا برَحَى تطحن قرونا لاجل القعقعة التى فى ألفاظه ويزعم أنه لاطائل تحت تلك الألفاظ . ولعمرى ما أنصفه فى هذا المقال وما حمله على هذا الا فرط تعصّبه

وقال ابن شَرَف (٢) في مقامة الانتقاد :

وأما ابن هانىء محمدٌ الأندلسىّ ولادةً ، القيروانىّ وفادةً وإفادةً ؛ فرعدىّ الكلام ، سَرَدِىٌّ النظام . متين المبانى ، غير مكين المعانى . يجفو بعَطَنها عن الأوهام ، حتى تكون كنقطة النّظام . الاّ أنه اذا ظهرت معانيه ، فى جزالة مبانيه . رمى عن منجنيق ، يؤثّر فى النيْق . وله غزل قَمَرىّ ، لا عذرىّ . لا يقنع فيه بالطيف ، ولا يشفع فيه بغير السيف . اه

وهاك ما ارتأى فيه صاحبنا (٣) بعد أن ذكر أن للشعراء مذاهب مختلفة فى إيثار اللفظ على المعنى أو عكسه :

وفرقة أصحاب جَلْبة وقعقعة بلا طائلِ معنىً إلا القليلَ النادرَ كأبى القاسم ابن هانىء ومن جرى مجراه فإنه يقول أولَ مذهّبته :

أصاخت فقالت وَقْعُ أجردَ شَيْظَمِ ... وشامت فقالت لمعُ أبيض مِخْذَمِ

وما ذُعرت إلا لجرْس حُليّها ... ولا رمَقت إلاّ بُرًى فى مُخَدَّمِ

وليس تحت هذا كلّه إلاّ الفساد وخلاف المراد . ما الذى يفيدنا أن تكون هذه المنسوب بها ابست حليّها فتوهّمته بعد الإصاخة والرمق وقعَ فرس أولَمْعَ

(١) ٢ : ٥ (٢) من مجموعة رسائل البلغاء ٢٥١ والاحاطة ٢ : ٢١٣ وجمعنا بين الروايتين (٣) العمدة ١ : ١٨١

وهي تاريخ الامة التى تنطق بها . فانتشار اللغة العربية التى عرفتَ مكانتها من الدين الاسلامى في الامم المسلمة معناه تسهيل انتشار نفوذ العرب وسلطانهم الروحى

ثم ان توحيد لهجات العرب وتغلب المضرية بسبب القرآن الكريم وقرشية النبي العظيم عامل كبير من جملة عوامل توحيد منازع العرب الذين كانوا متفرقى اللهجات والاساليب والميول أيضا

كذلك أمر القبلة . فقد كان المسلمون فى بدء أمرهم يستقبلون بيت المقدس ثم استبدل بالكعبة التى هى متوجّه وجوه العرب من العهد القديم ومهوَى افئدتهم وموضع تكريمهم وتقديسهم . ومعلوم ان استقبال القبلة ركن من أركان الصلاة . ومعنى استقبال القبلة وجوب توجيه كل مسلم وجهه خمس مرات في اليوم نحو الكعبة في جميع انحاء الارض المسكونة بالمسلمين . وفي ذلك ربط لقلوب العرب خاصة والمسلمين عامة بهذا البيت العربي وبالتبعية بجزيرة العرب التى هو فيها . والذي يتمعن بالآيات القرآنية الواردة في هذا الموضوع يتبين هذا المعنى الذي أشرنا اليه . ولك ان تستنتج ما وراء هذا الربط من تأمين بروز شخصية الامة العربية ونشر سلطانها.وما قيل في استقبال الكعبة يقال أيضاً فى حجها. فانحج البيت الحرام ركن من أركان الاسلام متحتم على مستطيعيه وبهذه الوسيلة تغدو بلاد الحجاز فى موسم الحج مزدحم أقدام المسلمين عربهم وعجمهم يأتون من كل فج ليشهدوا منافع لهم : هى المنافع الاجتماعية الكبرى كالتعارف والتآلف والتآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر والنظر فى صالح المسلمين وانت لا تجهل أن ارتباط المسلمين بركن من أركان دينهم ببلد معين يجعل لهم الرابطة الوثيقة بهذا البلد والقطر الذي هو فيه ، وفي ذلك من قوة النفوذ الروحي لسا كني ذلك القطر مافيه

هذا واذا قرأت الآيات الكريمة الواردة في القرآن في فضل الامة العربية كقوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وكقوله « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس » تبينت الشعور الذي كانت هذه الآيات تشربه قلوب العرب بكرامتهم وعزّتهم

دخل فيها العرب في دور انحلال أخلاقي واجتماعي ، قام النبي العظيم محمد بن عبد الله يدعو العرب الى نبذ ما هم عليه من شقاق ونزاع وحمية جاهلية ويأمرهم باتباع الفضائل الاخلاقية ويحثهم على الاستشعار بالاخوّة القومية والاخوة الدينية ويجمعهم تحت لواء وحدة الاصل ووحدة البلد ووحدة المصلحة ووحدة الدين . وكان ما كان من وصوله الى ماقصد ونجاحه فيما سعى . فتألفت القلوب واجتمعت الكلمة ، وأخذ العرب ينصرفون عما كانوا سائرين فيه من طرق الحروب والشقاق والتنابز بالالقاب والتفاخر بمفاخر الجاهلية الى نشر الدعوة الاسلامية ونصرها وحياطتها وتكوين الوحدة العربية والشعور بها . حتى لم يتوفاه الله الا وقد انتشر الدين الاسلامى فى أنحاء الجزيرة واتجهت أنظار العرب الى وجهة واحدة وبدأ ينتشر فيهم شعور واحد ويتحدثون بحديث واحد ويدينون بدين واحد بعد ما كانوا شيعاً فى أديانهم وميولهم ومشاعرهم وشعوبهم وقبائلهم ووجهاتهم

وأنت لو دققت في أصول الدين الاسلامي لوجدت في كثير منها وسائل وعوامل تجعل لجزيرة العرب وللقومية العربية وللغة العربية المكانة المحترمة والاثر البليغ الخالد في نفوس العرب أين حلوا وفي نفوس كل من دان بالاسلام أنى كانوا

فاللغة العربية لغة القرآن الكريم . والقرآن كتاب الاسلام المقدس فيه تفصيل قواعده وأركانه . ولا يمكن التحقق من هـذا الدين الا بفهم هـذه الاركان والقواعد التي احتوى عليها هذا الكتاب العربى المبين

واللغة العربية لغة القرآن . والقرآن لا تتم الصلاة الا بحفظه وتلاوته بادائه العربي وبألفاظه وحروفه العربية ، والصلاة عمود الدين كما ورد في الآثار والاحاديث النبوية ركن من أركان الدين ، ومستند كثير من أصوله وقواعده . وهي عربية قرشية . ولا يمكن العمل بها الا اذا فهمت على الوجه الصحيح كل ذلك موجب لتعلم اللغة العربية القرشية على المسلم العربي وغير العربى وعامل في نشر هذه اللغة واللغة ليست الفاظاً وأوضاعاً للتفاهم فقط تصوتها الافواه كما تصوت العجماوات ؛ بل هى أيضا مجموعة ميول وعواطف وتقاليد وعادات

موضع من مواضع الخطأ . وقد تمت محاسن هذه الطبعة بأربعة فهارس الحقت به الاول لترجمة المؤلف وفصول الكتاب ، والثانى لما ورد فى متن الكتاب من الابيات مرتبة على القوافى مع ذكر أصحابها ، والثالث لما فى متن الكتاب من اللغات الخاصة بالقداح والميسر، والفهرس الرابع لاسماء الاعلام .

﴿ قاموس الجيب ـ عربي وانكليزي ﴾

المطبعة العصرية * المكتبة السلفية * ٥٣٣ ص بالقطع الصغير : ثمنه ٢٥ قرشا

لو أن كل واحد منا يؤلف للمكتبة العربية في الموضوع الذي يجيده ، ويَعمُرها من ناحيته بما تصل يده اليه ـ كما يفعل الفاضل الياس افندي انطون الياس ـ لاستطعنا في عشرات قليلة من السنين أن نجعل المكتبة العربية عامرة بما ينقصها الآن في مختلف الفنون . أقول ذلك بمناسبة اصدار هذا الفاضل معجمه الجديد للجيب من العربية الى الانكليزية ، بعد أن أصدر مثله من الانكليزية الى العربية وقبلها أصدر معجمين وَسيطين باسم (القاموس العصري) أحدهما من العربية الى الانكليزية والآخر بعكسه . ولعله يتوسع بعد الآن في وضع معجم مبسوط جداً فى هاتين اللغتين لان قاموس سعادة والذخيرة فضلا عن كونهما بعيدي التناول عن طالبهما فان الحاجة ماسة الى معجم أغزر منهما مادة وأبعد مرمى . و (قاموس الجيب) الذي صدر الآن من العربية الى الانكليزية مزين بالصور ، حسن التجليد ، مطبوع بحروف مشكولة مصغرة

﴿ خطط الشام ـ للاستاذ كرد علي ﴾

طلع علينا العدد الاخير من مجلة المجمع العلمي العربي الدمشقية وفيها بشرى عزم الاستاذ العلاَّمة السيد محمد كرد علي على نشر كتابه الجليل في خطط الشام ، وهو الكتاب الذي يرقب محبو التاريخ والجغرافيا ظهوره بفارغ الصبر ، لان مؤلفه الاستاذ مابرح منذ ربع قرن عاكفاً على استقصاء أبحاثه والاطلاع على مئات الكتب المخطوطة والمطبوعة من عربية وأجنبية لتقرير الحقائق الدقيقة التي أتى عليها فيه ، فضلاً عن رحلاته الكثيرة في هذا السبيل . والمنتظر أن يكون الكتاب في ألفي صفحة ، وقد فتح باب الاشتراك فيه بجنيه مصري واحد

ومركزهم الأدبي من جهة وقلوب المسلمين من غير العرب ومكانتهم من جهة ثانية ولا يرد علينا ان هذه الآيات انما خوطب بها المسلمون لا العرب بالتخصيص. فان النبي عليه السلام انما كان يخاطب بها الامة العربية في جزيرة العرب . وان صلات الدعوة الاسلامية بغير العرب انما تكوّنت بعد النبي عليه السلام

نابلس محمد عزة دروزه

حركة النشر والتأليف

﴿ المَيْسِرُ والقِداح — لابن قُتَيْبَة ﴾

المكتبة السلفية ومكتبتها ☆ ١٧٣ ص بقطع الجاير : ثمنه ٨ قروش

كتاب ابن قتيبة فى الميسر والقداح من أنفس كتب الادب والتاريخ العربى التى ذهبت بها يد الدهر فلم يبق منها غير نسخة واحدة كتبت سنة ٦٢٢ وقد اطلع عليها سعادة العلامة أحمد زكي باشا فأخذ صورتها بالفطوغراف ، وانتدب منشئُ هذه المجلة الى درسها وتحقيقها وتصحيح متنها والتعليق عليه ، وطبعها بالمطبعة السلفية طبعا نفيسا معتنًى به وزينها بصورة الصفحة الاولى والصفحة الاخيرة من الاصل المطبوع عليه . ووضع في أولها ترجمة حافلة جداً لابن قتيبة واستقصى ذكر مؤلفاته واحداً واحداً مع تحقيق نسبة كل كتاب الى ابن قتيبة وبيان المعروف من نسخه المخطوطة وطبعات المطبوع منها . ومن مزايا هذا الكتاب أن مؤلفه نهج فى تأليفه منهجاً علمياً حيث جمع أبيات العرب فى الميسر وجعل يتدبَّرها ويستدلُّ على كيفيته باعتبارها ، ثم أودع كتابه ماأدّى اليه النظر ودلَّ عليه الاستخراج . ومما يؤسف له ان نسخة الاصل الوحيدة كانت كثيرة الغلط فكان منشئُ هذه المجلة يراجع الكتب لتحقيق كل فقرة وتصحيح كل بيت مع الامانة فى بيان ما كانت عليه نسخة الاصل والمرجع الذى اعتمد عليه فى تصحيح كل

﴿ علم الاجتماع ﴾

المطبعة العصرية * المكتبة السلفية * ٣٦٢ ص بقطع الزهراء : ثمنه ٢٥ قرشا

كان العلماء فيما مضى يبحثون في تكوّن المجتمع وتطوّره وعواملهما ، وفي عقلية الجماعات وسننها ، لا على انها علم بأصول مقرّرة ، بل باعتبار ما يكتبونه في ذلك أبحاثا مفردة وخواطر شاردة . واذا كان ابن خلدون أول من انتبه الى العناية بأبحاث الدولة والجماعة وأطوارها ، بسبب تنقله الكثير في الاقطار واكتسابه التجارب البليغة في هذا الباب - كما يرى القاريء مما ننشره وما سننشره من تاريخ حياته - فان العلماء الذين جاءوا بعده كانوا قليلي العناية بهذه الجهة من العلم . ولعل أوغست كونت Auguste Comte أول من فكّر في أن هنالك علماً اجتماعياً كالعلم الطّبَعي وأن لعقلية الجماعات سنناً كسنن القوى الطّبَعِية ، وأنه اذا شهد التاريخ على وقوع نظرية اجتماعية تنافي السنن العامة للطبع البشري فيجب أن يعاد النظر في صحة النقل التاريخي أو في صحة تفسير تلك النظرية

وقد صدر الآن بالعربية كتاب جليل النفع في علم الاجتماع بقلم الاستاذ السيد نقولا حدّاد صاحب مجلة السيدات والرجال قضى في درس أبحاثه خمسة عشر عاماً ، واعتمد في تأليفه على أهم المؤلفات باللغات الافرنجية ، مع الاكثار من الامثلة والشواهد الشرقية . والكتاب في مجلدين صدر الاول منهما في هذا الشهر ، وفيه مقدمة عن علل الاجتماعية ومَنشئها وتبويب علم الاجتماع . وثلاثة أبواب أحدها في بنية المجتمع ونسيجه ونظامه ، والثاني في العقل الاجتماعي وسنن المحاكاة والاقتباس - المكانى والزمانى والقويم - والتوازن والاضطراب ، والثالث فى عوامل الاجتماع - وهى القوى الحيوية والنسلية والاجتماعية والبيئية - ثم عمل هذه العوامل واعتراكها وتوازنها . ومجموع أبحاث هذا المجلد خاص بحياة الهيئة الاجتماعية ، أما المجلد الثانى فسيتناول البحث في تطوّرها . وينتظر صدوره سنة ١٩٢٥ . فنشكر للمؤلف والناشر تعاونهما على انتشار هذا الكتاب النفيس

﴿ كتاب الاشجار والأنجم المثمرة ـ للامير مصطفى الشهابي ﴾

المطبعة الحديثة بدمشق ـ المكتبة السلفية بالقاهرة * ٤٥٠ ص بقطع الزهراء : ثمنه ٣٠ قرشا

الامير مصطفى الشهابى مدير أملاك الدولة بدمشق الآن ، ومدير الزراعة العامٰ فيها قبلاً ، في طليعة رجال الشام العاملين على خدمتها بعلمهم وأخلاقهم . وهو شقيق صديقي الشهيد السعيد المرحوم الأمير عارف الشهابى نادرة الاخلاص ورمز التضحية وصاحب المدارك البعيدة المرمى . وقد أتحف الامير مصطفى الناطقين بالضاد في هذا العام بمؤلف له جديد فى فن زراعة الاشجار والانجم المثمرة مع تطبيقه على أقاليم بلاد الشام المشهورة بأثمارها فخدم به الوطن خدمة مزدوجة أحد شطريها تمحيص الحقائق العلمية التي اقتبسها عن أوثق ما اطلع عليه من الكتب الفرنسية في الاحدى عشرة سنة التي مضت على تخرُّجه في مدرسة كرينيون بفرنسا ، والشطر الثانى تدوين اختباراته العملية فى تطبيق حقائق العلم على حالة الاشجار والانجم المثمرة في ديار الشام والبلاد المشابهة لها في الاقليم . واهتم بنوع خاص بذكر ما يهم القطرين : المصري والعراقي . واذا كان المقتطف قد وصف أحد مؤلفات الامير مصطفى الشهابى ـ وهو كتاب الزراعة العملية الحديثة ـ بأنه « كتاب السَّنَة » فان كتابه الاشجار والانجم المثمرة هو من أفضل ما خدم به المشتغلين بالزراعة من قراء العربية فنلفت أنظارهم اليه

﴿ جريدة الشورى ﴾

خطا حضرة الصحفي الفاضل السيد محمد علي الطاهر خطوة واسعة بجريدته (الشورى) على حداثة عهدها فأصبحت مثال الاتقان فى تنسيقها وتبويبها واختيار موضوعاتها وأبحاثها واستمالة كبار الكتاب الى توشيحها بأبحاثهم، فضلا عن مزيتها المشكورة فى ترديد صدى ما يقع فى الاقطار الاسلامية على صفحاتها . فنرجو لها زيادة التقدم والانتشار

فى وزارة الزراعة ـ وهو خريج كلية التعاون بمانشستر وعضو فى بعض جمعيات التعاون البريطانية ـ فقد أخذ على عاتقه مهمة اصدار كتاب يشرح نظريات التعاون الزراعي ويطبقها عملياً على أحوال مصر ، مع بيانات تاريخية جليلة عن نشأته وسيره فى انكلترا ، والكلام على الصناعات الزراعية وغاية التعاون وأصول الاجتماعات بوجه عام . فالكتاب مما لا يستغني عنه المشتغلون بالنهضة التعاونية ولا سيما الزراعية منها

﴿ الموسيقى الشرقية ﴾

ماضيها ، حاضرها ، نموّها في المستقبل

هو عنوان بحث جليل بقلم الاستاذ الفنّان محمد افندي كامل حجاج ، وقد أنشأه لمسابقة أعلنتها جمعية أصدقاء الموسيقى في الاسكندرية فأحرز الاستاذ المؤلف جائزتها الاولى . ولا غروَ فانه في طليعة العاملين على زيادة ثروة الادب العربي بما نقله وينقله اليه من بدائع البيان الغربي ؛ يعلم ذلك كل الذين قرأوا بلذة واعجاب كتابه (بلاغة الغرب) وهو في جزءين تجلت فيهما « أحاسن المحاسن وغرر الدرر من قريض الغرب ونثره »

وقد تناول كتابه الجديد (الموسيقى الشرقية) الكلام على النتف القليلة التي أبقاها لنا التاريخ عن موسيقى العرب في الجاهلية ثم انتقل الى العصر الاسلامي فوفاه حقه من البحث في نشأة الموسيقى زمن معاوية بن أبي سفيان وازدهارها على عهد من جاء بعده من الامويين ثم ظهور عصرها الذهبي في بغداد وما كانت عليه في الاندلس . وألمَّ بما كانت عليه في مصر زمن المماليك وأطوارها من عهد محمد علي باشا الى الآن . ولم يفته ذكر الموسيقى الفارسية والتركية وتأثير الموسيقى الشرقية في بعض الامم الاخرى . وكان قد نشر هذا البحث في جريدة السياسة . ثم طبعته جمعية اصدقاء الموسيقى في كراسة جميلة وزعتها هدية

(الانتخابات النيابية وأحكامها)

المطبعة السلفية ومكتبتها * ٧٧٦ ص بقطع الجاير : ثمنه ١٠٠ قرش

ليس بين علماء القانون فى مصر أحد عالج موضوع الانتخابات علماً وعملا بمقدار ماعالجه الاستاذ القانونى الضليع أحمد رمزى بك المحامي عضو مجلس النواب فقد ألف سنة ١٩١١ كتاب (الانتخابات وأحكامها) وانشأ المقالات الممتعة فى ذلك سنة ١٩١٣ فى جريدة المؤيد . ولما كان قانون الانتخاب لسنة ١٩٢٣ فى دور التكوين نشر فى جريدة الاخبار عشرين مقالة فى الموضوع كان لها تأثير عملي فيه . وعند انتخابه لمجلس النواب شاهد بالعمل مزايا ذلك القانون وعيوبه . وفى هذا الشهر صدر له من المطبعة السلفية هذا المجلد الضخم متضمناً الاصول والاقضية الخاصة بالانتخابات البرلمانية وشرحاً عملياً ونظرياً لقانون الانتخاب لسنة ١٩٢٣ والقانون المعدل له لسنة ١٩٢٤ ووجوه النقد فيهما من البداية الى تأليف المجلسين . وقد قارن فيه بين القانون المصرى وقوانين الامم الدستورية ، وأورد آراء أشهر المؤلفين الاوربيين ولا سيما الفرنسويين . وأيد تفسيره للمواد بأحكام المحاكم المصرية وقرارات لجان الانتخاب والمجلسين المصريين والمجالس الفرنسوية . فجاء أوسع كتاب يلجأ اليه الناخبون ، والقضاة والمحامون ، فى موضوع الانتخاب

﴿ كتاب الجمهور في التعاون الزراعي ﴾

المطبعة السلفية ومكتبتها * ٢٢٧ ص بقطع الجابر : ثمنه ٢٠ قرشا

التعاون مظهر من أعظم مظاهر العظمة التي يتمتع بها الغرب اليوم ، ولا غنى للشرق وهو يلتمس القوة والنهوض عن أن يأخذ من الغرب الانظمة التي توصل الى وضعها للتعاون بكل أنواعه ومنها التعاون الزراعي الذى تدعو الحاجة اليه فى مصر قبل غيره . ولما كان الاستاذ ابراهيم افندى رمزى سكرتيراً لقسم التعاون

في مصر

أنباء علمية أدبية اجتماعية

المصنوعات الوطنية

أخذت فكرة استعمال المصنوعات الوطنية والإعراض عن غيرها ـ بقدر الامكان ـ تنتشر في كل طبقات الشعب المصري، ويتواصى الناس بها في المجامع والصحف. وتولدت عن فكرة استعمال المصنوعات الوطنية فكرة أخرى وهي التخلص من سلطة الاجانب علينا بأزيائهم والاصطلاح على زي يكون شعاراً للمصريين، تتمثل فيه قوميتهم الشرقية، وتجمع بين البعد عن تقليد الاجانب، والنبوّ عن التبذير

مصر وتركيا

تشتمل ميزانية تركيا للسنة القادمة على اعتماد مالي لانشاء منصب سياسي يمثل تركيا فى مصر

النهي عن المسكرات

أجازت مصلحة السكك الحديدية المصرية لجماعة منع المسكرات أن تضع اعلاناتها فى النهي عن المسكرات على جدران المحطات بلا مقابل

مدرسة الهندسة

رصد فى ميزانيات السنوات الثلاث القادمة ٨٥ ألف جنيه مصرى لتوسيع بناء مدرسة الهندسة. لأنها لما أنشئت كان يعلم فيها هندسة الري وهندسة المبانى فقط. فلما زاد على ذلك تعليم الهندسة الكهربائية والهندسة الميكانيكية وهندسة البلديات ضاقت المدرسة بطلابها فأصبحوا أكثر من ٦٠٠ طالب. وستبنى المبانى الجديدة على الارض التي تملكها الحكومة جنوبى المدرسة وينشأ معها معمل للطبيعة وآخر للرياضة التطبيقية ومصنع للحدادة وآخر للنجارة ويزاد بالتدريج عدد الأجهزة في معامل المواد الايدروليكا والآلات البخارية والكهربائية

حسنين بك

منحت الجمعية الجغرافية فى فلادلفيا حسنين بك مدالية (اليشع كانت كاين) الذهبية، اعترافاً باستكشافاته الجغرافية فى صحراء لوبيا. وهذه المدالية لا تمنح الا لكبار المستكشفين

﴿ ايقاظ الغرب للاسلام ـ للورد هدلي ﴾

طبع الاسكندرية ✿ المكتبة السلفية بالقاهرة ✿ ١٣٠ ص : ثمنه ٥ قروش

اللورد هدلي هو النبيل البريطانى الذي يقول « لو ندبت لجنة من الانكليز الاكفاء كاللورد سالسبري واللورد بيكنسفليد واللورد هالدين والمستر بلفور لفحص الدين الصالح لأن يتدين به العالم كله لاجمعوا على اختيار الاسلام » وهو منذ اقتنع بذلك دعته شجاعته الادبية الى اعلان اسلامه وتلقب بلقب سيف الرحمن رحمة الله فاروق وأصبح رئيساً للجمعية البريطانية الاسلامية . ويقول عن نفسه ان دخوله في الاسلام كان نتيجة بحث سنوات عديدة . قال « وقد غمرنى الفرح عند ما وجدت أن كل نظرياتى واستنتاجاتى كانت مطابقة مطابقةً تامة للاسلام » . وكتابه هذا (ايقاظ الغرب للاسلام) يدور حول هذا البحث وهذا الاقتناع . وقد ترجمه حضرة الفاضل اسماعيل افندي البارودي وقدمه الى ملكة بهوبال لتأييدها مبدأ الحجاب

﴿ جغرافية العراق الحديثة ﴾

جاءتنا مع بريد بغداد نسخة من هذا الكتاب الذي ألفه الاستاذ الفاضل السيد هاشم السعدى صاحب مجلة المعلمين البغدادية ، وقال في مقدمته انه لما عزم على تأليفه قام برحلة استمرت ثلاثة أشهر جاب فيها كثيراً من مدن العراق فاكتسب معلومات عملية زيادة على معارفه العلمية عن جغرافية وطنه ثم عرض ما كتبه في ذلك على المستر رايلي صاحب الاطلاع الواسع على جغرافية العراق فأرشده الى تحسينات أخرى . والكتاب يتناول جغرافية العراق الطبيعية والبشرية ، وقد قررته وزارة معارف العراق للمدارس الثانوية ودار المعلمين ، وهو فى ٢٣٠ صفحة . ولا ريب أن انتشار الكتب والمجلات والصحف فى العراق في السنين الاخيرة هو من مظاهر نهضتها الحميدة بعد الحرب الكونية

﴿ تركيا والخلافة ﴾

أشار مصطفى كمال باشا في حديث له مع مندوب (الماتان) فى انقرة الى ما بين الترك والفرنسويين من تقارب الغرائز . ثم قال عن الخلافة انه لا موجب لوجودها الآن ، وقد انفصلت تركيا عن ماضيها الديني ، وبدأت تعمل حرة من كل قيد

﴿ مصر والشرق ﴾

قال الامير شكيب ارسلان في مقال نشره الاهرام خطاباً للمصريين ولا سيما سعد زغلول باشا : ان عقيدة كون مصلحة مصر تقضي بعدم التدخل فى شيء خارج عن مصر وبالنظر الى كل بلاد شرقية كأنها لم تكن الا فى أطلس الجغرافية ــ هذا لم يأت وان يأتى بالنتيجة المطلوبة كما يظن . فليحافظ المصريون على النظام ، وليتابعوا عملهم بالطرق السلمية ، وليقمعوا أحقادهم ولو كانت مشروعة ، وليعلموا أنهم لا يستغنون عن سائر الشرقيين

﴿ فرنسا في الشرق الادنى ﴾

نقل الجنرال فيغان من منصب المندوب السامى في سوريا ولبنان ، وعين الجنرال سراى بدلا منه . وقد قال المسيو أوغست كوفين فى جريدة الديبا ان الجنرال سراى معروف بتشيعه للترك فاذا أصغى الى دعاة المصالح التركية ادّى ذلك إلى إحدى حركتين نرزح تحتها ونختنق وهما الحركة العربية والحركة التورانية

﴿ أوربا والشرق ﴾

علم مرسل (دايلي هرالد) من باريس بطريقة غير رسمية ان النقطة الاولى التي يدور عليها اتفاق الوزيرين ــ تشمبرلن الانكليزي وهريو الفرنسوى ــ هي التفاهم المتبادل المؤسس على خوفهما المشترك من الحركة الاسلامية في افريقية الشمالية وفلسطين وسورية . وستوافق فرنسا على عدم تعضيد الحركة المصرية سراً أو علنا بشرط أن تسمح لها انكلترا بأن تنفرد بمفاوضة اسبانيا بشأن مستقبلها بمراكش

وكتبت جريدة (الفيغارو) الفرنسوية مقالة بشأن العالم الاسلامي قالت فيها : ان فشل اليونان في الانضول والاسبان فى الريف والنزاع القائم اليوم بين انكلترا ومصر ــ هى العوامل الثلاثة لحالة العالم الاسلامى الحاضرة . وبعد ان ذكرت أن الحالة فى الريف وتونس دقيقة جداً أشارت ــ بالحاح ــ الى ضرورة ايجاد جبهة أوربية مشتركة من القسطنطينية الى المغرب

في العالم الإسلامي

أنباء علمية أدبية اجتماعية

﴿ المواصلات في الشرق ﴾

اقترحت انكلترا على مصر الموافقة على انشاء لاسلكي بين انكلترا والعراق يتصل بمحطة اللاسلكي في أبي زعبل واقترحتْ على تركيا الموافقة على انشاء بريد مَناطيد دائم الى الهند بطريق الانضول . وفى النية انشاء خط جوي آخر بين مالطة والبصرة

وقال مكاتب (المورنن بوست) وسيصبح ممكناً عما قريب استعمال الهاتف (التلفون) بين انكلترا والقاهرة من طريق القسطنطينية والشام الى القنطرة

﴿ الهنود ووظائف الحكومة ﴾

رغب الهنود أخيراً عن وظائف الحكومة فقررت انكلترا - بناء على اشارة لجنة اللورد لي - أن تعمل على ترغيبهم فى الوظائف بزيادة التأمين على بقائهم فيها وجعل بعضهم فى المصالح المركزية والتعجيل فى صبغ المصالح الرسمية بصبغة هندية حتى يزداد عدد الهنود ٥٠ ٪ فى خلال ١٥ سنة

﴿ الهند وبلاد العرب ﴾

سمحت حكومة الهند باعطاء جوازات لوفد الخلافة الذي ينوي السفر الى الحجاز ونجد

﴿ منشور السيد السنوسي ﴾

جاءتنا من القدس نسخة من منشور سيدي احمد الشريف السنوسي الذي صدر من المسجد الاقصى في ١٦ ربيع الثاني داعيا المسلمين في أقطار الارض قاطبة الى مدّ يد الاعانة لعمارة المسجد الاقصى المبارك . وقد أخذ المسلمون في مختلف الاقطار يفكرون في خير الطرق لاجابة هذه الدعوة

وبهذه المناسبة نقول ان الهند أرسلت في هذا الشهر ١٨٥٨ جنيها انكليزيا و ١٢ شلنا لعمارة المسجد الاقصى

﴿ مشكلة الاهواز ﴾

في أخبار ايران أن مشكلة الاهواز انتهت باستسلام الشيخ خزعل ، وسينظر في شكل العلاقة بين الحكومة الايرانية وقبائل كعب التي تسكن تلك الديار

﴿ الاتحاد بفلسطين ﴾

علمنا والمجلة ماثلة للطبع أن مندوبي اللجنة التنفيذية والحزبين الوطني والزراعي بفلسطين أدت مفاوضاتهم في القدس الى وضع أساس للاتفاق ، والمنتظر أن تدعى وفود البلاد الى اجتماع يعقد في نابلس لتكون كلمة الاتحاد عامة شاملة

﴿ ديون تركيا وبلاد العرب ﴾

بلغ رأس المال الرسمي للديون التي لاوربا ـ لا سيما فرنسا ـ على تركيا حتى يوم دخولها الحرب ١٦١ مليون جنيه عثماني ذهباً وقد تم توزيع هذه الديون في مؤتمر الاستانة الاخير على تركيا والبلاد المنفصلة عنها . وتنقسم هذه الديون قسمين أحدهما الى حين انفصال طرابلس الغرب وبلاد البلقان عنها (١٧ اكتوبر سنة ١٩١٢) والثاني الى حين دخولها في الحرب (أول نوفمبر سنة ١٩١٤) . وانقسم كل من القسمين مائة جزء : فالاول أصاب منه تركيا ٦٢ر١٣٢٧ وسوريا ولبنان ٨ر٣٢٧٢ والعراق ٣ر٩٤٧٩ وفلسطين ٢ر٤٥٨٩ والموصل ١ر١٥٩١ والحجاز ١ر١٣٣٠ واليمن ٠ر٨٨٥٣ وشرق الاردن ٠ر٦٤٥٨ ونجداً ٠ر٠٩٦٧ وعسيراً ٠ر٠١٩٦ ووزع الباقي على اليونان والصرب والبلغار والارنؤوط وايطاليا . والثاني أصاب منه تركيا ٧٦ر٣٥٨٩ وسوريا ولبنان ١٠ر٢٣٣٩ والعراق ٤ر٨٥١٨ وفلسطين ٣ر٠٢١٩ والموصل ١ر٤٢٤٥ والحجاز ١ر٣٨٠١ واليمن ١ر٠٨٧٩ وشرق الاردن ٠ر٧٩٣٦ ونجداً ٠ر١١٨٩ وعسيراً ٠ر٠٢٤١ ووزع الباقي على اليونان وبلغاريا . وقد اعترضت سوريا وفلسطين وشرق الاردن على هذا التقسيم وطلبت احالة اعتراضها على التحكيم بموجب المادة ٤٧ من معاهدة لوزان

﴿ الموصل ﴾

يسعى أهالي الموصل ـ بمناسبة قرب وصول وفد جمعية الامم الى إقليمهم ـ لتثبيت مطالبهم القومية العربية وانتمائهم الى العراق . وهم يرغبون في ان تكون الموصل عاصمة ثانية للعراق كالاسكندرية في المملكة المصرية . والذي يحملهم على ذلك بنوع خاص ارتباط الموصل بالعراق ارتباطاً اقتصادياً ـ فضلا عن الارتباط القومي ـ فاذا انقطعت علاقاتهم ببغداد والبصرة أصبحوا في عزلة عن أسواق العالم

وقد تم يوم ١٨ ربيع الثاني جلاء الترك الى حدود الموصل التي عينت في بروكسل

في العالم العربي

أنباء علمية أدبية اجتماعية

﴿ في الريف وفي مراكش ﴾

تم انسحاب الجيوش الاسبانية من منطقة (العرائش) على ساحل البحر الاطلنطي ، وبينما كانت تنسحب من (شفشاون) وسواحل البحر الابيض الى تطوان لتعود الى اسبانيا كان العرب يهاجمون مؤخرتها ، ويفتكون بها فتكاً ، حتى أصبح هذا الانسحاب نكبة عليها . وبلغ عدد المراكز التي جلا عنها الاسبانيون فى هذا الشهر مائتى مركز لم يتمكنوا من نقل مافيها من المؤن والذخائر والمهمات الحربية والمدافع ، فاكتفوا بتدمير بعضها ووقع سائرها غنائم فى أيدى مجاهدى الريف . وقد نشبت حول طنجة ثورة أقلقت بال الدول ، وفى خبر من مجريط أن الثورة وقعت فى المنطقة الفرنسوية ولكن لم ترد تفاصيل ذلك

﴿ مصر والحجاز ﴾

أثنى رئيس بعثة الهلال الأحمر المصرى الاهلية على ما لقيته بعثته من الاكرام فى جدّة عقب وصولها اليها

﴿ السلطان ابن سعود ﴾

وصل السلطان عبد العزيز بن سعود الى مكة . وخطب عقب وصوله فقال : ان بيت الله سيعود اليه شأنه السالف ، فاذا فقد العدل فى بلد اسلامى وجد أهله العدل مستقراً فى بيت الله فيأرزون اليه . وستكون مكة مقرًّا لعصبة اسلامية امينة على الاسلام ، وسيكون شأن هذه العصبة السعى لنشر الخير والعدل بين الامم الاسلامية

﴿ شهداء سورية ﴾

شرعوا في بيروت بالاكتتاب لاقامة نصب للشهداء . واشترك فيه الحكام والمجلس البلدي والمصارف والشركات

﴿ في طرابلس الغرب ﴾

لا تزال المعارك دائرة في داخلية طرابلس الغرب بين الايطاليين والعرب . ويتولى قيادة العرب الآن ابراهيم شتيوي نجل رمضان شتيوي الذى انقلب على الايطاليين سنة ١٩١٨ وانضم الى بنى وطنه فلحقت الايطاليين بسببه خسارة عظيمة

﴿ الدولة السورية ﴾

أعلن والمجلة ماثلة للطبع القرار رقم ٢٩٨٠ باتحاد دولتي حلب ودمشق باسم (الدولة السورية) ولهـا مجلس تمثيلي يتألف الآن من اجتماع مجلسي دمشق وحلب وهو يحلّ محلهما ومحلّ المجلس الاتحادى . ورئيس الدولة السورية يعيَّن بالانتخاب بعد انتهاء مدة الرئيس الحالي آخر سنة ١٩٢٧ ويؤازره خمسـة وزراء للداخلية والعدلية والمـالية والمعارف والاشغال ويناط به اختيارهم واستبدالهم . وقد استاء السـوريون مما جاء فى المـادة التاسـعة من هذا القرار خاصاً بقطع صلة الاسكندرونة بولاية حلب مع بقاء ادارتها مرتبطة برئيس الدولة السورية

﴿ الجنرال ڤيغان بالقدس ﴾

قضى الجنرال فيغان الاسبوع الثالث من ربيع الثاني فى فلسطين . والمفهوم مما نشرته التيمس وصحف فلسطين أنه حضر لغرض التعاون بين السلطتين الفرنسوية والبريطانية ولا سـيما فيما يتعلق باقرار السكينة على حدود البلادين، والقضاء على العصابات في الجانب الشمالي من شرق الأردن ، وللمـذاكرة فيما يشـكوه الفرنسويون من تعضـيد انكلترا (!) لفكرة الجامعة العربية ودرء الخطر الوهابى عن سورية وفلسطين فيما لو استفحل أمر ابن سعود ، والاتفاق على خط حديدى يمده الفرنسويون من حيفا الى بيروت تلقاء تنازلهم لفلسـطين عما بين الحمّة ونصيب من الخط الحجازي

﴿ جزيرة العرب والفنون العصرية ﴾

قال الامير شكيب فى مقال له في (الاهرام) بهذا الموضوع : ان الامام يحيى ابن محمد حميد الدين والسلطان عبد العزيز ابن سعود هما المسئولان أمام الله وأمام الامة العربيـة وأعقابهما فيما لو انبسط الجناح الاجنبي فى يوم من الايام على هذه الجزيرة ، اذ ان كلاً منهما يملك من المال ما يكفى لتأسيس معمل أسلحة . وعلى فرض أنه لا يملك كل المبلغ دفعة واحدة فلا يصعب عليه فرض ضريبة خاصة بهذا المشروع . ثم قال : ان الدنيا مؤلفة من مادة ومعنى فالمعنى عامر فى نجد بحول الله فلتعمر المادة أيضاً ، ولتأخذ جزيرة العرب بالفنون الحديثة التي اذا انضمت الى الفضائل المعنوية كانت البغية وقام الجمل

مطبوعات
المطبعة السلفية - ومكتبتها

ص	مليم	
١٢		اصلاح المساجد للقاسمي
٢٠		عدة الصابرين لابن القيم
٣		أربعون حديثاً لابن تيمية
٤		المغني في موضوعات الحديث
٥٠		الموافقات للشاطبي ٤ أجزاء
٨		مقدمة الحضارات الاولى لغوستاف لوبون
١٠		الحضارة المصرية . له
٨		مذكرات غليوم الثاني
٥		الحديقة (مجموعة أدب وحكمة)
٥		قبس من نار الخالدة أديب
١	٥	نشيد سعد باشا زغلول
٨		مجموعة النشاشيبي (مختارات)
٣		البستان (محفوظات) للنشاشيبي
٨		دون كيخوتي فكاهي مصور
٦		كمال البلاغة (رسائل قابوس)
١٢		أدب الكتاب للصولي
١٥		الضرائر الشعرية للالوسي
٢٢		الأدب العصري في العراق جزآن
١٠		نزهة الانام في محاسن الشام
٦		العصبية عند العرب
١٥		تاريخ العرب والاسلام جزآن
٤		طريقة تعليم الف با لساطع بك
٣		مبادئ القراءة الخلدونية »
١٢		دروس في أصول التدريس »
١٢		دروس التهذيب التاريخية

ص	
٥	ديوان خطب النفحات الزينبية
٢٥	تاريخ الموصل للقس سليمان صائغ
١٥	الاقتصاد التجاري
٣	السودان المصري ومطامع الانكليز
١٢	تذكار الحجاز لعبد العزيز صبري
٨	رسائل الأحزان للرافعي
٣	النزلات المعدية المعوية عند الاطفال
٣	الحميات الطفحية « «
٣	الحميات التيفودية « «
١٠	الصحائف للآنسة مي
١٠	شرح المعلقات للتبريزي
٥	أشهر الأمثال للشيخ طاهر
١٠	تهذيب أدب الكاتب «
١٠	التقريب في أصول التعريب «
١٠	التبيان في علوم القرآن «
١٥	المجلة السلفية السنة الاولى
١٠	تقويم المجلة السلفية الاول والثاني
٦٠	احكام القرآن للجصاص
٣	الحنين الى الاوطان
٤	منطق المشرقيين
٣	مبادىء الفلسفة القديمة
٦	الصاحبي في فقه اللغة
٢	الدولة والجماعة
١٠	سيرة عمر بن عبد العزيز
٦	المؤتمر العربي سنة ١٩١٣
٢	الفية السيوطي في مصطلح الحديث

Ancora Imparo

العدد ١ مجلد ١ سبتمبر ١٩٢٧

العصور

AL-AUSOUR — A Critical Monthly

مجلة انتقادية فى الأدب والعلم والسياسة

محررها وصاحب امتيازها

اسماعيل مظهر

حرر فكرك من كل التقاليد والاساطير الموروثة حتى لا تجد صعوبة ما فى رفض رأى من الآراء، أو مذهب من المذاهب، اطمأنت اليه نفسك، وسكن اليه عقلك، اذا انكشف لك من الحقائق ما يناقضه .

ادارة المجلة بشارع الخليج المصرى « ميدان غمره » رقم ٦٧٠ بمصر

مطبعة الترقى بشارع الساحة بمصر

السحاب الأحمر

تكملة على

رسائل الاحزان

في فلسفة الجمال والحب

بقلم

مصطفى صادق الرافعي

Ancora Imparo

العصور

العدد ١ مجلد ١ شعاع الحكمة يجذبنا اليك سبتمبر سنة ١٩٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

« عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون »

وبعد . فهذه مجلة « العصور » نتقدم الى قراء العربية بأول ما نخط فيها من تمهيد نحصر فيه خطتها من النـاحيتين الأدبية والسياسية . ولا مراء فى أن الاقدام على تحرير مجلة تجمع الى العناية بالادب والعلم والفلسفة الاشتغال بمشكلات السياسة العامة والخاصة ، أمر يجعل مسؤولية العمل خطيرة . فان العمل فى الادب والعلم ، وما يحتاج اليه من انتقاد حر صريح ، لا تراعى فيه أية رابطة من الروابط الاجتماعيـة التى تذهب بالنقد عادة فى مزالق لا يؤمن فيهـا العثار ، كالاشتغال بالسياسة وما تحتاج اليه من حيطة وحذر ، والارتباط برأى هيئات تختلف قلة

لهذا نفضل الحكم النيابى بل وندفع عنه غوائل الأيدى الممدودة اليه بالاثم والعدوان . ندفع عن الحكم النيابى ونذود عنه تفضيلا لنظام من المستطاع اصلاحه ان فسد، واكماله ان نقص، على حكم استبدادى لا تزيده محاولة الاصلاح الا فساداً ، ولا يلجئه السعى الى الكمال الا الى التمادى فى الظلم والاعتساف .

***

وهنا نتساءل : هل استقرت الحرية فى بقعة من بقاع الأرض على ذلك الاساس الطبيعى القائم فى نفس كل فرد من الافراد على احترام حقوق غيره من أفراد الجمعية المشترك واياهم فى اقتسام المسؤولية وعبء القيام بالواجب ؟ بهذا نتساءل ويتساءل المفكرون غير عالمين أن فى هذا التساؤل نفسه قسطاً من الغموض ونصيباً من الابهام ، ان حارت فيه عقول النابهين وأهل الرأى من أصحاب السياسة والنظر فى حالات الاجتماع ، فان ذلك انما يرجع الى صعوبة تحديد المصطلحات تحديداً تتحيز معه تحيز الرياضيات فيها .

المسؤولية والواجب . كلمتان وان شئت فقل اصطلاحين غامضين فيهما من المعنى الفلسفى أكثر مما فيهما من المعنى المدرك من ظاهرهما . أما اذا أخذا على ظاهرهما، فكل يقول ان على واجباً وأنى أحمل مسؤولية ، تفرضنى الجمعية تلقاءها حقوقاً تقوم على رأسها حرية الفرد على القواعد المصطلح عليها فى النظام السياسى. فاذا رجعت الى المعنى الفلسفى ، وهو المعنى القائم فى رؤوس كثير من الزعماء فى هذا العصر ، بل وفى كل العصور التى تغلبت فيها الجماهير ، وأكثر عصور التاريخ ملك للجماهير ، ظهر الاصطلاحان فى صورة من ابشع الصور التى فتنت بها عقول البشر منذ أبعد الازمان .

قلما يكون عبء المسؤولية والواجب عبءاً حقيقاً بان يصور على الصورة التى يبثها الزعماء فى عقلية الجماهير . بل غالباً ما يكون العبء غير ذى قيمة حقيقية ، ولكن يزيد فى وزنه الوهم المسلط على عقول الزعماء فيتخذون من الحقوق التى خولها لهم القانون على مقتضى واجباتهم ومسؤولياتهم، ويستمدون من مصورات أوهامهم وأهوائهم ومطامعهم ، ركيزة وسلطاناً ينوؤون به على هامة الجماهير المستكينة الرازحة تحت اعباء ذلك الصرح المشيد فوق عواتقهم من تسلط الزعماء، فيفتكون بالحقوق دفاعاً عن الحقوق زوراً ، ويخنقون الحرية باسم الحرية إفكا

وكثيرة على مقتضى ما تتمشى فيه ميول الرأى العام وتأثيرات الزعماء فيه ، كلاهما سبيل وعر ومرتقى صعب ، كما أن المنحدر سحيق مخيف .

هذه اعتبارات تضطرنا الى الاطناب فى هذا التصدير اطناباً نتوخى فيه شرح المبادئ التى سوف تقوم عليها خطتنا فى الادب والسياسة . والحقيقة أن مناهج البحث وأساليب الأدب ، قد تعددت وكثرت ، حتى انك لا تجد من شيء يبزها تنوعاً وتشكلا الا المبادئ السياسية. ذلك لأن الادب أصبح مرتزقاً، كما أصبحت السياسة سلماً الى الجاه الدنيوى . الى مجالس النيابة ، والى كراسى الوزارة . ولعمرك كيف لا تتعدد الاساليب الادبية ، وكيف لا تتباين المبادئ السياسية ، وقد خضعت جماعها للاهواء وللاغراض وللمطامع الذاتية ، واتخذت أداة لاشباع نهم فريق من المرتزقة يتلقفون الكسر من حول موائد الأدب ، أو فئة من الانتهازيين يحاولون أن يستعلوا على غيرهم إفكا وزوراً من طريق السياسة ؟

والحقيقة أن الدستور قد فتح علينا أبواباً انهمر منها مدرار من النزعات الفاسدة كاد يغمرنا. فكل ذى أجازة فى الحقوق يظن أنه مسلوب الساعة مهضوم الحق اذا لم يكن فى الحقانية وزيراً . وكذلك ينظر المهندس الى وزارة الاشغال، والطبيب الى مصلحة الصحة ، والمزارع الى الزراعة ، والصحفى الى الجميع ، وهلم جرا. فى حين أن مناصب الحكم والنيابة يجب أن تلقى مقاليدها الى من يقال له هى لك ، لا لمن يقول هى لى .

هذه هى احدى مساوئ الحكم النيابى. وهى ليست قاصرة على مصر وحدها. بل أنك تجدها فى كل الامم . وهى فى الامم اللاتينية أشد ظهوراً منها فى الامم الانجلوسكسونية . ولا ريبة مطلقاً فى أن العنصر السامى أقرب العناصر الشرقية الى صفات الامم اللاتينية . فكأن الساميين واللاتينيين من طينة واحدة . وان شئت فقل فى نظامهم وأساليبهم البرلمانية على الأقل.

ولئن كانت هذه إحدى مساوئ الحكم النيابى فى مصر ، بل وفى الشرق تعميما لا نقصد فيه الى حيطة فى ارسال الحكم ، ولا الى حذر فى اطلاقه ، فكيف بك اذا احتكمت فى هذه الشعوب نزعات فرد مطلق الارادة حر التصرف فى الرقاب والاموال والانفس والأعراض ؟ لاجرم أن ذلك يكون الموت ، ولا شيء سواه .

تصور المسؤولية والواجب رهن على تقدير العقول لهما قياساً على حالة خاصة أو بمقدار احتكاكهما بمصالح فئة من الناس .

لقد أثبتت المباحث النفسية الحديثة أن العقل الانسانى أشبه شيء بفلينة طافية فى بحر خضم فائض بصور الجنون مطلق ونسبي . وكما أن هذه المباحث قد زادتنا اقتناعاً بقصور العقل الانسانى عن ادراك الغايات المعقولة الصرفة ، فقد أمدتنا بكل الاسباب التى تثبت لدينا أن فى أكثر مايأتيه النـاس من الافعال زيغ وانحراف عن قواعد محدودة اصطلح على تسميتها «بالفضائل المدنية» وما الفضائل المدنية سوى معقولات فى وضعها موضع التنفيذ والعمل كل مايقصد من الفضيلة مطلقة وبلا حد . ومن أجل أنها فى أصلها معقولات مسايرة لمقتضى حاجة الاجتماع الانسانى على الوجه الا كمل ، يمتنع على الحيوان أن يأتى بها . اذن يكون البعد عنها والانحراف عن مقتضياتها زيغ عن نقطة الارتكاز ، أجدر به أن يريق الدماء ، ويعبث بأخص الصفات البشرية .

فاذا وقعت على شخص يتظاهر بفعل الخـير وهو يخبئ وراء هذا التظاهر غرضاً سافلا ، أو يحتقر فكرة غيره ولو كانت صائبة لمجرد أنها تصادم نزعاته ، أو ينتهك حرمة الناس والحرية لان فى ذلك ارضاء لشهوة التحكم فى نفسه ، أو يخرق القانون ويقبر العدل لان ذلك يرضى نزعة كامنة فيه ، فلا تشك لحظة واحدة فى إن هذه دلائل صريحة على الانحراف وزيغ العقل عن المرتكز الحقيقى الذى يجب أن يرتكز عليه .

ناهيك بالشهوات ومايدل الاسترسال فيها على الانحراف العقلى التام . فالغضب والانتقام وحب السلطة لذاتها ونزوة القتل والفتك بالارواح ، وحب الاستجماع وما يزين للناس من جرائم ومفاسد ، كلها دلائل على أن فى الطبيعة البشرية ميلا الى الانحراف عن نقطة الارتكاز كبيراً .

والامثال على ذلك فى التاريخ فائضة ملآى . فانك تجد عصوراً برمتها وقد صبغت بالدماء ، وكأن الانسانيـة قد أصابها فيها مس من الجنون . وما ذلك المس لدى الواقع الا تحكم الشهوات .

ومهما يكن من أمر الحالات التى قامت خلال عصور التاريخ ، والتى تزودنا بعدد كبير من الامثال والمثلات ، فان تصور المسؤولية والواجب ان أصابته

وجوراً ، ويستبدون ماشاؤوا باسم المسؤولية أن يستبدوا ، ويقوضون من بناء الجمعية ماشاءت الاوهام لهم أن يقوضوا ، ويهدمون من النظام باسم النظام ماشاءت الخيالات المترائية لهم باطلا ان يهدموا ويبيدوا . اذن فالمسؤولية والواجب ، على الرغم من أنهما سلاح ذوى السلطة فى حكومة الجماهير ، اصطلاحان مثاليان خياليان ، ليس فيهما من الحقيقة الا بمقدار ما يدرك منهما كل شاعر بسلطانهما على مقتضى عنصره وطبيعته ومنزلته الاجتماعية .

والامثال على ذلك كثيرة . فأنت أينما تأملت فى نظام الجمعية تقع على أمثال تظهرك على أن تصور الواجب والمسؤولية تصور زئبقى ، للظروف والحالات أكبر الأثر فى تحديده وصبغه بصبغة ما. فتصور المسؤولية والواجب القائم فى نفس المجرم الذى يحاول خلاص رفيقه فى الاجرام ، وفى نفس الاب الشفيق الذى يقتل ولده خوفاً من توقع الموت ، وفى نفس الانانى المحب لذاته الذى يضحى الصالح العام فى سبيل الصالح الخاص ، وفى نفس الزعيم القابض على زمام الجماهير يسخرها خدمة لاهوائه لا ابتغاء الاصلاح ، وفى نفس العالم المكب على دواته وقرطاسه تقوده فكرة ثابتة ومعتقد راسخ ، لاحب البحث وراء الحقيقة لذاتها ، كل هذه انما تستمد من نبع واحد ، وتفيض من ناحية واحدة من نواحى الطبيعة البشرية . ولكن أثر هذا التصور يختلف باختلاف المؤثرات ، وقيام الغايات المتباينة فى نفسية الجماعات وفى أنفس الافراد . واليك مثال من ذلك يحقق صحة ما نذهب اليه .

انسل اللصوص الى منزل وفتكوا باهله ونهبوا أموالهم ، فارضوا فى أنفسهم شهوة التعطش الى الدماء والحطام ، وبعد أن لاذوا بالفرار وأمن كل منهم سلطة القانون ، تفقدوا أنفسهم فاذا بهم يفقدون زميلا تخلف بين أيدى الابرياء لتعمل فى عنقه آلة الجزاء بعد حين. فيعودون خفية متسللين وهم الى الدماء أشد تعطشاً وفى الحطام أكثر رغبة ، تسوقهم المسؤولية نحو رفيقهم ويحدوهم الواجب نحو أنفسهم، الى انتزاعه من يد القانون ، ولو ارتكبوا أشنع الجرائم وأفظع الآثام .

هنا تتحطم القيود الأدبية ويتهدم القانون على رأس واضعيه أمام تصور المسؤولية والواجب، ولوكان الغرض سافلا . وهكذا تتحول أخص مشاعر النفس البشرية دنواً من المثل العليا الى سفالات ومفاسد ، ان أحاطت بها ظروف جعلت

الجمعية ، كان هـذا هو الخير بعينه ، بل أقرب الاشياء الى الحرية الصحيحة وموحيات العقل السليم من الزيغ والانحراف . غير أنا لا نلبث أن ندرك اذا ماتأملنا من هذا الامر ، أن معاهد الدين لم تفصل مطلقاً بين الناحية الذاتيـة ، ناحيتها الطبيعية ، وبين الناحية الموضوعية ، التى تقوم عليها الحكومة مسلطة على مصالح الناس .

جاهد الناس تحت تأثير فكرة الحرية فى سبيل الفصل بين الدين والسياسة ، متخيلين ان الفصل بينهما فى الاعتبار ، كاف للفصل بينهما فى الواقع . ولقد هبت من حول هذه المسألة عاصفة الجدل وقامت قيامة الكلام . ولكن ! هل خلص الدين من مؤثرات العقل المنحرف تحت وهم القيام بالواجب والشعور بالمسؤولية ازاء المعتقد الثابت ؟ لم يكن شيء من هذا ! فانا لانزال نرى فى عصرنا الديمقراطى ان الدين تحت تأثير زعمائه طالما عبر جسر الذاتية البشرية ، التى هى حده ونصيبه من الطبيعة ، الى موضوعات السياسة العملية ، فاختلطت منافع الذوات بأوجه المنافع العملية العامة اختلاطاً أفسد الديمقراطية وجعلها أبعد الاشياء عن الحرية الصحيحة ، اذ يقيد بذلك الناس أنفسهم بقيود من المعتقد، تجعل حرية السياسة فى حيز العدم الصرف .

وأنت ترى ان أهل السياسة ليسوا باسعد حظاً من أهل المعتقد. فكثيرما عمد السياسيون الى التذرع بالكنيسة ومعاهد الدين ليكسبوا عطف الجماهير أو خضوعهم من ناحية المعتقد . فتراهم وقد ألقوا فى روع الناس أن فهم موضوع ما من موضوعات السياسة لن ينفلت عن أقطار الدين. ولهذا ترى عصوراً برمتها فى التاريخ الحديث تخالطت فيها أوجه الحقائق وانتكث فيها فتل العقول ، لان السياسة قد أوحت ، تحت تأثير فكرة يوحى بها انحراف عقلى يقوم فى رأى فريق من السياسيين، بان ادراك مسألة سياسية مالن يتيسر الا اذا ردت جملة ، أصلا وفرعاً ، قاعدة وتفصيلا ، الى الناحية الذاتية ، ناحية المعتقد الصرف واليقين الثابت ، فيختلط فى العقول قليل من العمليات بكثير من النظريات الميتافيزيقية ، وان شئت فقل قليلا من التفكير بكثير من الشعور والعواطف . ولن يكون لهذا التركيب المزجى من أثر فى الخارج الا بقدر ما يقوم من آثاره

حالة من حالات الانحراف العقلى ، سواء أفى الفرد أم فى الجماعات ، أنتج خراباً ودماراً ونقصاً من الانفس والثمرات . وان أصابته فضيلة من فضائل العقل المرتكز حول مبادئ الفضائل المدنية والآداب المثالية العليا ، أبرز مدنية صحيحة على الوجه الاكمل . فالحالة الاولى انتجت الحروب والفورات الفجائية ، وثورات الهدم والتحطيم . والحالة الثانية انتجت عصر النهضة العلمية وكونت روح الآداب السقراطية ، ميراث الفخر والعظمة للنوع الانسانى .

***

وبعد . فهل فى الديمقراطيـة التى يقوم عليها أساس الحكم النيابى ، أثر من آثار العقل المنحرف ؟

أما الديمقراطية كمبدإ اجتماعى نظرى ، ففضيلة من الفضائل المدنية . لانها تحمى الحرية وتفرض تساوى الافراد أمام القانون. أما كنظام سياسى ففيها كثير من صور الانحراف راجع الى قصور العقل والآداب الانسانية عن تنفيذ مثالياتها تنفيذاً يكفل قيام النظام على الوجه الديمقراطى الصحيح .

ان أجمع التعاريف التى وضعت للديمقراطية وأحدها لمعناها تعريفان كلاهما يتمم الآخر . فالاول على ان الديمقراطية عبارة عن كنيسة حرة من حكومة حرة ، أى حرية المعتقد وحرية الحكم . والثانى على أنها حكومة من الشعب وبالشعب وللشعب . ولهذا نتساءل هل خلصت الكنائس ومعاهد الدين القائمة على يقين الناس وعلى الناحية الذاتية من النفسية البشرية من نتائج العقل المنحرف الواقع تحت تصور المسؤولية والواجب ؟ وهل قامت فى ناحية من نواحى الارض حكومة اجتمعت فيها هذه الصفات الثلاث: فكانت من الشعب وبالشعب وللشعب، ولم تنتبها نوبات من تأثير الانحراف العقلى أخرجتها عن تلك الحدود التى لم يجمع بينها فى عصر من العصور الا بطون الاوراق تكنزها ، والشفاه تتحرك بها ؟ وهل يمكن ان تقوم معاهد دينية حرة بعيدة عن زيغ العقل المنحرف فى حكومة حرة ؟ وهل الفصل بين الناحيتين مستطاع عملياً ، وان أمكن تحديده فى حيز النظر ؟ وما هى الكنيسة الحرة ؟ وما هى المعاهد الدينية الحرة ؟ أما اذا كان المقصود من حرية المعاهد الدينية انفصالها عن تسلط الحكومات والرؤساء الذين يجمعون بين سلطة الدنيا وسلطة الدين ، واستقلالها بناحيتها الذاتية من مشاعر

ديمقراطية الجماهير : وهو عبارة عن قيام حكومة تبنى على عاتق الجماهير فتفسد ديمقراطية الافراد فساداً حده الادنى الاستسلام للمشاعر والعواطف فى سياسة الشعب ، وحده الاقصى قتل حرية الافراد إبقاء على حرية فرد واحد ، يدعوه السياسيون عادة «بالديماغوج» وهو الشخص القائم على قيادة الجماهير . فهل خلصت الديمقراطيتان ، ديمقراطيـة الافراد ، وديمقراطية الجماهير ، من آثار ماتوحى به العقلية المنحرفة فى سياسة الامم ؟ هل خلصتامن آثار مايوحى به تصور الواجب والمسؤولية على اختلاف صوره القائمة فى رؤوس الافراد والجماعات ، وعلى تباين نزعات العقل المنحرف عن نقطة الارتكاز الحقيقى ، والتى يجب أن يدور محورها حول التحرر من آثار العواطف والمشاعر واحترام الحرية عامة وخاصة ، فى دائرة القانون والنظام ؟

***

تأمل من التاريخ وقلب صفحات الماضى ، فانك تجد ان كل انقلاب حدث فى عصور الديمقراطية لم يتم الا بثورة تخالطت فيها النزعات وتباينت المقاصد . ثورة دموية أخذ فيها المسالم بذنب المحارب ، وضاع فيها الحق بجانب الباطل ، وتهدم فيها التليد بجانب الطارف ، وسوى فيها بين الهدى والضلال . وهذه الحقيقة الاولية الملموسة تدل واضح الدلالة على ان روح الديمقراطية التى كان من الواجب ان تقود خطا الامم فى ظلمات تطورها ونشوئها من طريق الاقناع والتدليل والنظام ، كما تخيل السياسيون وكما تصور المصلحون ، قد عجزت عن القيام بوظيفتها الاولى، فاخذت تتكون من حولها فكرات وتحوم حفافيها ميول وانفعالات حالت نزعات العقل المنحرف عن أن تخرجها الى حيز الفعل ، فملأت الجو وتصاعدت منها المتفجرات متراكمة حول بيوت النيابة ، فلما ان أدركها النضج تفجرت براكينها ، لا لتصلح ولا لتضع نظاماً ، ولكن لتقع تحت تأثر الوجه الافسد من وجهى الديمقراطيـة . لتقع تحت تأثير الجماهير الشاعرة غير العاقلة ، الفانية فى شخصية الديماغوج، المقودة باهوائه ومطامعه . هنالك ييبس عود الحرية وتينع دوحة استبداد الجماهير التى تبيع فى الواقع حريتها دفاعاً عن حرية بطلها المعبود. هنا تتركز الحرية فتحصر فى شخص واحد ، لتنقلب استبداداً فردياً صرفاً ، خطره الأشد أنه مؤيد من الجماهير التى لن تستقل بذاتها تفكيراً

فى نفسية الافراد والجماعات من اضطراب وفوضى ، يقتضيهما تخالط كفايات العقل الانسانى لتنتج شيئاً عملياً ما .

وما دام هذا شأن السياسة والدين فى عصر الديمقراطية ، فهل نقول بان ذلك النظام السياسى الذى نسميه النظام الديمقراطى قدحقق فى حيز العمل الصرف، ما وضع له فى حيز النظريات والمعقولات من الحرية الفردية والحرية العامة ؟

لن يكون الجواب الا سلباً ، اذا اعتبرت المقدمات التى أدلينا بها من قبل. ولماذا ؟ لان الامر راجع الى طبع ثابت فى الانسان . راجع الى أثر بسيكولوجى لن يمحوه الا التطور ، ان كان فى مستطاع الانتخاب الطبيعى أن يخلص من وسط تلك الكتل البشرية المملوءة بصور الانحراف ، بانماء عقلية عامة تفهم حقائق الاشياء فهماً مستقلا عن مؤثرات المشاعر ، وموحيات المعتقد الذاتى .

***

ثم نتساءل : هل رأبت شريعة الديمقراطية ما خلفت الطبيعة من الصدوع العظيمة التى نلحظها فى نظام الجمعيات البشرية كما تألمنا منها ؟

تؤدى كلمة « ديموقراطية » من المعنى فى العصور الحديثة ، نفس المعنى الذى كانت تؤديه فى العصر اليونانى . واليونانيون أول من وضع هذا الاصطلاح ليعبروا به عن حكم الشعب . والكلمة تتركب من مقطعين « ديموس » Demos أى شعب و « كراتوس » Cratos أى حكم . اذن فاصطلاح الديمقراطية وضع ليعبر عن قيام حكومة الشعب. واذن فالتعريف الذى وضعه الفيلسوف السياسى الانجليزى « جون مورلى » حيث عرف الديمقراطية بانها حكومة من الشعب وبالشعب وللشعب ، صحيح من كل الوجوه .

اذا عرفنا ذلك استطعنا أن نسأل مرة أخرى سؤالا متمما لسؤالنا الاول . نتساءل : هل قامت فى عصر من العصور حكومة ديمقراطية توافرت فيها المثل التى وضعها السياسيون والمصلحون نصب أعينهم عندما قاموا يصيحون بصيحة الديمقراطية ؟

للديمقراطية وجهان . الاول ديمقراطية الافراد . وهو عبارة عن قيام حكومة تتوفر فيها الحرية الفردية بما يستتبعها من حرية الفكر وحرية المعتقد وحرية الكلام والنشر الى آخر ما تنتهى اليه سلسلة الحريات بانواعها . والثانى

فتنقلب هنالك الآية وتصبح الشرائع هيكلا خارجاً من مشاعر الهيئة التى أجازتها، لا أداة لتنظيم الفوضى التى تخلقها حاجة الناس الى شريعة ما .

وإنك لتجد فوق هذا ان الفرق بين الحكومات التى تقوم على ديمقراطية الافراد وبين التى تقوم على ديمقراطية الجماهير ، كالفرق بين الحرية الفردية القائمة على توازن القوات الحزبية ، وبين استبداد الديماغوج القائم على نزول الجماهير عن حريتها ابقاء على حريته . لهذا تجد ان قيام الثورات فى عصور الديمقراطية راجع ، لا الى فساد المثل الديمقراطية ذاتها ، بل الى فساد العقلية المنحرفة عن حب الحرية ذاتها ، الى حب الحرية لاتخاذها وسيلة للوصول الى الغايات الشخصية أو تأييد الديماغوج باعتباره بطلا يعبد فى دون الحرية والحق.

ولكل من الديمقراطية الفردية وديمقراطية الجماهير مثالياتها وخيالياتها . ولكل من الديمقراطيتين ناحية خاصة من تصور الواجب والمسؤلية . ولتخالط عناصر الفكر سوآت . وللفكرة العامة التى تخلقها الاحزاب سقطات من الوهم ونزعات من الضجر والانفعال لها نتائجها . وبقدر ما فى المثاليات التى يقوم عليها الشعور بالواجب والمسؤولية من الرقى أو الاسفاف تكون قوة الحكومات . وبقدر مايدرك الافراد من معنى الحرية تكون قوة الامم . وخير الامم أمة يقيس أفرادها حرية الغير بقدر مايريدون ان يكون لهم من حرية ، وبقدر مايطمعون فيه من استقلال الفكر والعمل .

***

هذا فى القاعدة التى ترتكز عليها نظمنا السياسية فى الوقت الحاضر ، وهى نظم مستمدة من النظم الاوروبية ، أخذناها بمحاسنها وسوآتها . فلنعد بعد هذا الى حركة العلم والأدب ، والى ما ندعوه تجاوزاً بحركة التجديد ، حتى اذا ما سقنا الشرح فيها والبيان ، استطعنا ان نبين حقيقة المبادئ التى سوف يقوم عليها عملنا فى « العصور » .

نسمع بين أونة وأخرى كلمة « التجديد » واصطلاح « التجديد فى الادب » يرن فى آذاننا ويملأ الاجواء بطنين أجوف لا تقع فيه على معنى محدود ولا على غاية مرسومة . سل من شئت من المشتغلين بالادب ماهو التجديد وما يقصد من معنى التجديد فى الأدب ، وأنت لاتلبث ان تعرف ان ما يعنى بالتجديد

أو عملا . وهل فى مظاهر الانحراف العقلى من مظهر أكثر من هـذا بياناً فى الحط من قيمة الديمقراطية كما تقوم فى نفسية الجماهير ؟

***

هل ترقى الشرائع الطبائع ؟ أم ان عكس ذلك هو الحق ؟ هذا سؤال لانريد أن نترك الكلام فى الديمقرطية قبل ان نتناوله ببحث موجز .

نقول مع الذين يقولون بان الطبائع ترقى بالشرائع . لأن الشريعة توجد فى الجو المعنوى الذى تخلقه حاجة الجماعات الى النظام والقانون وجوداً أولياً ، من قبل أن تخطها يد المشترع على الورق . وفى هذا وحده ينحصر السر فى سقوط بعض القوانين ونجاح البعض الآخر . والى هذا يعزى السر فى القول بأن القانون ربيب الجماعة ، أو هو نبت تغرسه طبيعة الجماعات .

نتقدم بهذه الحقيقة لنخلص الى حقيقة أخرى ، هى أن بيوت النيابة التى تخلقها الديمقراطية ، تنحرف دائماً عن حاجة الجماعة انحرافاً تسببه عادة حالة عقلية تخلق فى جو المؤتمرات النيابية ، بعيدة جهد البعد عن حاجة الناس .

كما أنه مفروض ان الشرائع لاترقى الطبائع ، كذلك يفرض بجانب هذا ان المشترع يجب ان يكون فيه من القدرة ما يؤهل به ال السمو الى حيث يدرك حقيقة ما يملأ الجو الذى تخلقه الجماعات من حولها ، ليضع الشرائع على أساس المدرك من الحاجات التى تشعر بها الجماعات ، ولا تستطيع التعبير عنها .

على أننا نجد ان المجالس النيابية ، وعلى الاخص فى العصر الذى تقوم فيه حكومة الجماهير ، لاتنتخب الا من عامة الشعوب . وان انتخبت فى عصر سادت فيه الديمقراطية الفردية القائمة على أساس نسبى من الحرية، تغلبت فيها أحزاب الاكثرية . أما الاكثرية فتتكون عادة من مجموع يسود فيه أولئك الذين لايستطيعون ان يسموا الى ادراك حقيقة مايؤثر فى الجو الذى تخلقه الجماعات من حولها . اذن تصبح الهيئة التشريعية عبءاً ثقيلا يجذب الطبقات المنتقاة فى الجماعة دائماً الى مستواها ولا ترقى الى مستوى تلك الطبقات بفكرة مستقلة بعيدة عن مؤثرات الانحراف ، لتضع من الشرائع مايلائم أمزجة الجماعات ومقتضيات الحالات الاجتماعيـة . وأما اذا القيت اليها شرائع استمدتها عقول مستقلة من حاجة الناس اليها ، نزلت فى يد الهيئة الى مستوى الذين يكونونها .

البعد عن احتذاء اساليب القدماء . غير ان كل ما وصلوا اليه حتى الآن لم يتجاوز بث الروح الى التفكير فى ان الادب العربى يحتاج الى تجديد وان حاجته الى التجديد قد اصبحت فى هذا العصر ألزم للادب واللغة منها فى أى عصر آخر . هذا جهد ماوصل اليه الذين يطلقون على انفسهم اسم المجددين فى الادب . ولا جرم ان هذا الشعور كان قد استمكن من التصور العام منذ ربع قرن فرط من الزمان . ولكن لم يكن من الكتاب الذين قبضوا على زمام الادب خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر فى مصر، من هو اسعد من ادباء هذا العصر حظاً ليعثروا على اصطلاح « التجديد فى الادب » بين ثنايا فكرهم فيرسلوه على صفحات الجرائد والمجلات ويرددوه بين جدران الاندية ودور التعليم ، فيصبحون كهؤلاء مجددين فى الأدب ، وقادة الفكرة الادبية ، وخزنة اللغة العربية ، وزعماء الهدم والبناء .

على ان كل ما خرج حتى اليوم من ايدى هؤلاء المجددين فى الأدب من مؤلفات وأبحاث لا يدل على تجديد صحيح فى الأدب . نعم انه يدل على نزعة الى تغيير فى الاساليب الانشائية والتفكيرية . غير ان هذا وحده غير كاف لان يدعى تجديداً فى الادب . انما يصبح التجديد تجديداً حقيقاً بأن يخلق نهضة جدية اذا قام على مدرسة تبز مدارس القدماء قوة سبك وحسن أسلوب ، ورصانة بحث ، من حيث اللغة والانشاء ، وتتخذ الطرق العلمية فى البحث الادبى قاعدة لما تدعى من تجديد فى الادب . لاننا بهذا وحده نستطيع ان نخلق للادب جواً جديداً لا تسود فيه روح القديم ، وبه نستطيع ان نفخر باننا جددنا فى الادب. أما اذا اتبعنا الطريق الذى نسوق الآن بانفسنا فيه ، ومضينا نعتقد باننا اعتقدنا باننا المجددون فى الادب ، وأننا الهادمون للقديم ، من غير ان نثبت أننا بنينا أساس ما ندعى من تجديد على قاعدة ثابتة من الابتكار الصحيح تفكيراً وبحثاً وأسلوباً ،كان مثلنا كمثل الاقزام اذ يكتسون بجلود الجبابرة ، ثم يدعون أنهم بذلك قد أصبحوا خلقاً آخر .

***

أما وقد بلغنا هذا المبلغ من التعبير عما نرى من رأى فى ركيزتينا ، النظم السياسية والمعاهد الادبية ، فلا نظن أن يكون « للعصور » من غرض ترمى اليه

لايتجاوز الاعتقاد فى ان أساليب الكتابة قد تنوعت وان العربية قد غزتها أساليب جديدة تختلف اقتراباً وابتعاداً عن انتحاء أساليب القدماء على مقتضى المنازع التى ينزع اليها الكتاب . ولست أرى كيف يمكن ان يكون التجديد فى الاساليب تجديداً فى الادب بالذات الا ان يكون المقصود من هذا الاعتقاد بأن تبدل الظواهر دليل على تغيرالعناصر ، أو الاعتقاد بأن تكييف الاعراض دليل على تغير الجواهر . أما اذا اعتقدنا بان الادب جوهر ثابت فان تغير أعراضه وهى الاساليب والنسق ، لايمكن ان تكون دليلا على تغيره والتجديد فيه .

ليس التجديد فى الأدب شيئاً سهل المنال ولا هو بالغرض الهين الطلبة . فانا لا نزال فى هذا العصر نغامر بالأدب فى ظلمات فوضى سائدة شاملة لم تحكم عراها مدرسة أدبية قامت ببث مذهب جديد فى الادب على قواعد متعارفة بين فئة من الفئات . وما دامت هذه حالنا فى الادب ، فمن الاسراف فى القول ان ندعى باننا جددنا فى الأدب شيئاً .

قد يمكن ان نقول بحق أننا سائرون فى السبيل التى تسلم بنا الى التجديد فى الادب ، والى وضع القواعد الاولية التى سوف تقوم عليها حركة التجديد فى المستقبل . والا فليدلنا الباحثون على مدرسة تشابه مدرسة سانت بوف أو جول لامتير فى فرنسا أو جونسون وجولد سميث فى انجلترا أو امرسون فى أميركا او بينديتوكروتشى فى ايطاليا اوجوته وشيللر فى المانيا . مدرسة خلقت من العدم اسلوباً فى التفكير وقاعدة فى البحث غيرت وجه الادب وقطعت به مرحلة تفصل بين الادب الجديد والادب القديم بفاصل بين الحدود والاغراض.

ليس لدينا شيء من هذا . بل لدنيا نزعة الى التجديد سوف تظل هائمة فى فلوات من العماء حتى تجمع بين اغراضها مدرسة جديدة تنتحى فى الادب منحى جديداً يرتكز على اساليب بينة فى التفكير وقواعد مبتكرة فى البحث . هنالك يحق لنا ان نقول جددنا فى الادب ويحق لنا ان نقول بان الادب قد ارتكز على قاعدة ما .

***

لقد اخترع اصطلاح التجديد فى الادب بيننا فئة من الكتاب هم لدى الحقيقة أكثر كتاب عصرنا هذا نزعة الى حب التجديد ، واكثر الباحثين رغبة فى

قابيل ، بعد ان طرد أبوه من الجنة واضطر الى الكدح هو ونسله فى سبيل العيش . على ان رواية آدم قد وجدت فى كل العصور متسعاً من عقول النابهين ليترسلوا فيها بتأملات ترضى نزعاتهم : فقد روى عن المتنبى قوله :

يقول بشعب بوان حصانى أعن هذا يسار الى الطعان ؟
أبوكم آدم سن المعاصى وعلمكم مفارقة الجنان .

ويقول بن الراوندى المتشكك المعروف

أبى آدم باع الجنان بحنطة فلست ابنه ان لم أبع بشعير

والناس أمام هذا الامر ، من مؤمنين ومتشككين ، انما يساقون فى هذه التأملات بعامل الحيرة ، وبحكم وجودهم فى هذه الحياة. فاذا أردنا مثلا ان نتأمل فى أمر هذه الحياة أفليس أول ما يتوارد على اذهاننا ان نتساءل ماهذه الحياة ؟



لورد بيرون ١٧٨٨ — ١٨٢٤

ولماذا وجدنا ؟ وأى قصد أو غاية تختفى وراء هذا الوجود الذى يعقبه خلود على قول البعض ، وفناء على قول البعض الآخر ؟

ولست أرى أنه من المستطاع ان نختم هذه الحيرة الابالرجوع الى تساؤل ديدرو : « هل فى قدرة بشر فان ان يحدث من خطيئة يستحق عليها عقاباً أبدياً » . ؟

وبعد فهذه هى الحياة، كد ونصب، كدح وتعب . وليس لنا يد فى دفع شىء من هذا كله . ولكن حسبنا ان نقول بانه اذا كانت السعادة والشقاء شيئان يوزنان بالكم ولا يقدران بالكيف ، ووضع كل مخلوق فوق هذه البسيطة كمية سعادته فى كفة وكمية شقائه فى كفة، لاتضح له أنه خسرانه كبير . والا فاى شىء اضطر ذلك الشاعر على ان يقول

صرف الزمان يفرق الالفين فاحكم الهى بين ذلك وبينى .
أنهيت عن قتل النفوس تعمداً وبعثت أنت لقتلها ملكين .

فى السياسة والادب الا أن نحصر خطتها فى السعى لخمسة أشياء :

أولا : استقلال وادى النيل بحدوده الطبيعية

ثانياً — العمل على الدفاع عن النظام النيابى كاسلوب للحكم واصلاحه كوسيلة للتربية القومية

ثالثاً — التحرر فى النقد من كل القيود والروابط الشخصية ، باعتبار ان هذا خير وسيلة للنهوض بالادب .

رابعاً — العمل على نشر المعرفة العامة .

خامساً — الاستقلال فى الرأى عن كل الاحزاب والجماعات والاشخاص .

هذه سبيلنا ندعو اليها غير وانين عنها ولا مفرطين فيها ، وعلى هذا نشهد الله وهو خير الشاهدين .

اسماعيل مظهر

تأملات فى الادب والحياة

قابيل — « أهذه هى الحياة ، كد ونصب كدح وتعب ؟ ولماذا أكدح وأنصب ؟ ألان أبى لم يستطع ان يحتفظ بمقامه فى جنة عدن ؟ ماهو ذنبى فى هذا ؟ لم أكن قد ولدت ، ولم أشأ ان أولد ، ولم أحب ان أكون فى هذا المحيط الذى قذف بى فيه ميلادى . لماذا أطاع أبى الحية والمرأة ؟ واذا كان قد أطاعهما فلم يتعذب ؟ وأى ضرر جرته طاعته هذه ؟ غرست الشجرة . فلماذا لاتكون له ؟ واذا لم تكن قد غرست من أجله ، فلماذا وضع بالقرب منها ، حيث أينعت وزهت ، بهجة للنظر فى وسط الجنة ؟ ليس لديهم من جواب على هذه الاسئلة سوى القول بأنه هكذا شاءت ارادته ، وأنه رحيم ودود . فكيف أعرف هذا ؟ أمن أجل أنه أقدر القادرين ، كذلك يكون أرحم الراحمين ؟ أنى أحكم بما انتج العمل من ثمرات : وأنها لمريرة . بل أنى مقسور على ان أجنى هذه الثمار وان استمرئها تكفيراً عن خطيئة ما أنا بمرتكبها »

هذه الكلمات نطق بها اللورد بيرون الشاعر الانجليزى المشهور عن لسان

العقول فراغاً كبيراً فى تلك الازمان التى لم تكن المعارف الانسانية قد وثقت فيها بعد لعامى البيولوجيا والوراثة . أما اليوم فالاعتقاد العملى الصحيح هو ان الانسان مجموعة صفات وراثية وتقاليد لا يستطيع أن ينفك عنها أو ينفك عن طبيعته ذاتها . فهل يصح بعد هذا أن نقول بأن فى مستطاعنا أن نبدأ بحثاً من الابحاث وملء أنفسنا شك قاتل ، ثم ندعى بعد ذلك اننا خاصنا من الوراثة والتقاليد ؟ ألم يقل أناتول فرانس : « قل للذى يدعى بأنه خال من الاوهام هذا أول أوهامك »

***

يقول المعرى :

قالوا لنا الهٌ قديم ... قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا مكان ... ولا زمان ألا فقولوا
هذا كلام له خبىء ... معناه ليست لنا عقول

ولست أدرى لماذا لا تكون لنا عقول اذا اعتقدنا بأن الله بلا زمان ولا مكان ؟

يقول ابن سينا فى رسالة « الحدود » ان الزمان عبارة عن مقياس الحركة من جهة المتقدم والمتأخر ، وعرف المكان بأنه عبارة عن السطح الباطن من الجرم الحاوى المماس للسطح الظاهر من الجرم المحوى . فهل فى هذه التعاريف شىء من الحق ؟

تصور كرة من المادة تسبح فى فضاء أو فى خلاء صرف لا يوجد فيه أى جرم آخر . فكيف يمكن لشخص على هذه الكرة ان يعرف ان كانت ثابتة أم متحركة بسرعة ألف ميل فى الساعة ؟ إنه لا يستطيع ذلك بأية طريقة من طرق الامتحان أو التجربة . لان كل شىء فوق هذه الكرة يظل سائراً فى اتجاه واحد سواء أكانت ساكنة أم متحركة بأقصى سرعة . لهذا نعتقد بان السبيل الوحيد الذى نستطيع أن نحكم به على أى جرم بأنه متحرك أم ساكن ، هو ان نلاحظ ان كان يغير موضعه بالنسبة لأجرام أو أجسام أخرى . فاذا وجد جرم آخر ، فبوجود هذا الجرم يوجد للكرة الاولى مكان . ومن غير هذا تكون بلا مكان . ومن طريق وجود المكان يبدأ وجود الزمان الذى هو عبارة عن قياس الحركة .

أرجع بعد هذا الى الكرة الأولى السابحة فى الخلاء الصرف ، وتخيل أنه لم يحط بها من مشابهاتها المادية شىء ، أفلا تكون فى اعتبارنا بلا مكان ولا زمان ؟ واذا كانت عقولنا تسلم بهذا عن طريق التجربة ، فكيف أنها لا تسلم بان الله بلا

وزعمت أن لها معاداً ثانياً ما كان اغناها عن الحالين . ؟

على ان فى اليقين راحة ، وفى الشك حيرة وتعب . ألم يقل أبو العلاء .

جنت الغوارس واستقل أخو الغنى وسعى المؤمل واستراح اليائس

غير أنى أستطيع ان أقول ان اليأس لاوجود له فى قلب الانسان . ان الانسان ملوء قلبه الامل . وهذا هو السبب فى شقائه وكده ونصبه . فلنكد وننصب على الرغم منا وعلى مقتضى حاجات الحياة .

واذا لم يكن بد من ان نلقى بنظرات من التأمل فى الادب والحياة ، فاى شىء أجدر من هذا بأن نرسل اليه بتأملاتنا ونخصه بتفكيرنا ؟

***

كان مثل صاحب الشعر الجاهلى فى كتابه الادبى كمثل بن خلدون فى كتابه التاريخى. فان بين مقدمة بن خلدون وتاريخه فارقاً بعيداً، كما ان بين منهج البحث فى كتاب الشعر الجاهلى والبحث نفسه صدعاً متنائياً .

أراد الدكتور طه حسين ان ينهج فى البحث منهج ديكارت فى ان يجرد نفسه من كل التقاليد الوراثية من دين ولغة وقومية وميول نفسية الى غير ذلك وان يدخل البحث بكراً صافياً . ولكنه لم يلبث ان أذعن لموحيات من الشك هى فى ذاتها نزعة وتقليد . فهل يحق له بعد ان يعترف بانه يشك بانه خلو من كل تقليد ؟ أو أنه صفى نفسه من كل النزعات ؟ والا فانا نسأله ماهو الشك ؟ ان لم يكن نزعة وتقليد .

ألح على الدكتور طه الشك فى حقيقة الشعر الجاهلى . وهو يعترف بهذا ولا يخفيه . إذن فقد بدأ بحثه شاكا خاضعاً لنزعة الشك ، مقنعاً رأسه لتقاليدها . كذلك ألحت على ديكارت فكرة أنه «كائن» إذ يقول فى أول تأملاته « أناأفكر أنااذن كائن » ـ أى موجود فى الحياة الدنيا . إذن فهو بحكم أنه مفكر وبحكم أنه كائن ، لابد من ان يكون خاضعاً لتقاليد الحياة بأكملها ، وهو ان استطاع ان يقول بانه جرد نفسه من التقاليد نظرياً ، فانه لم يستطع ان يخلص بنفسه من براثن الوراثة عملياً .

وما أظن ان أسلوب ديكارت الا أسلوباً نظرياً لايمكن تطبيقه تطبيقاً عملياً، أو يتبدل الانسان من طبيعته طبيعة أخرى . لقد سد أسلوب ديكارت من

وان ليس لسبب فى هذا الا نقاء هذه السلالة البشرية وعدم تلاقحها مع غيرها من السلالات ، وان هذا هو السر الاوحد فى قوتها الاجتماعية ، وما فيها من صفات المقاومة والمناعة ضد الاندماج فى غيرها من الامم .

هذا ملخص مذهب تشامبرلين فى السلالات البشرية وعليه يبنى مذهبه فى المؤثرات التى كونت التاريخ الانسانى . غير أننا ننظر بجانب هذا من ناحية بيولوجية صرفة فنجد أن علماء الحياة قد أثبتوا بالدليل أن تلاقح السلالات عامل على زيادة خصبها وقوتها الحيوية . فهل يمكن أن يكون هذا المبدأ مناقض لمذهب تشامبرلين ؟

أما إذا نظرنا من ناحية اثنولوجية صرفة لما وسعنا إلا الاعتقاد بان مذهب تشامبرلين صحيح من كل الوجوه . والامثال عليه فى علمى الاثنولوجيا والاجتماع كثيرة لاتحصى . فكيف يمكن التوفيق بين مذهب تشامبرلين القائم على حقائق الاثنولوجيا والاجتماع ، وبين مذهب البيولوجيين القائم على الاختبار وصدق المشاهدة ؟

الحقيقة أن لاتناقض بين المذهبين الا فى الظاهر . فان تلاقح التنوعات والسلالات ان صح بيولوجيا أنه من مهيئات الخصب والقوة الحيوية ، فانه لم يثبت أنه ضرورى للاحتفاظ بالقوميات اجتماعياً . والفرق بين الخصب فى الانتاج والقوة الحيوية للانتصار فى التناحر على البقاء شيء ، والاحتفاظ بالوحدة القومية فى الاجتماع شيء آخر . اذن يتضح من هذا أن نقاء السلالات البشرية اثنولوجياً مفيد من الناحية الاجتماعية ، كما أن تلاقحها وتداججها بالدم مفيد بيولوجياً ، اذا مااعترى السلالة ضعف حيوى كاد يقرضها من الوجود ، كما هو حادث اليوم فى بعض بقاع من فرنسا وبين كثير من السلالات اللاتينية .

***

تقوم فلسفة كونت على قانون وضعه وسماه قانون الدرجات أو الحالات الثلاث . فقال بان كل فكراتنا الاولية ومدركاتنا وكل فروع معرفتنا ، لابد من أن تمر على التوالى بثلاث حالات مختلفة . الاولى الحالة اللاهوتية : أو التصورية التخيلية . والثانية الميتافيزيقية أو الغيبية المجردة . والثالثة اليقينية الواقعة .

هذا هو قانون الحالات الثلاث . ويمكن أن يحصر القول فى هذا القانون

زمان أومكان ، وهو بالقياس الى العالم أشبه بالكرة السابحة فى الخلاء ، لانه منزه عن الشبائه ، على اعتقاد علماء التوحيد ؟

***

هوستون ستيوارت تشامبرلين ، مؤلف انجليزى الدم تيوتونى التفكير . كتب مؤلفاً أسماه « آساس القرن التاسع عشر » والمؤلف فى معتقدى عبارة عن مذهب جديد فى العوامل التى كونت التاريخ الانسانى، يقوم على نظرية السلالات . فهو يعتقد بأن نقاء السلالات الانسانية عامل من أكبر العوامل على بقائها كل قوى الوحدات متلائم الجماعات ، بل أن نقاءها ضرورى لبقائها ذاته . وضرب لذلك مثلا باليهود من بين كل الامم السامية الاصل . فاليهود من بين الساميين من أضعف الامم سياسياً ، وأقلهم عدداً ، ولكنهم استطاعوا أن يحتفظوا بوحدتهم القومية . والحقيقة ان هذه السلالة قد استطاعت ان تقاوم كل العواصف التى تناوحت من حولها خلال كل عصور التاريخ ، وما زالت تتنقل فى منازل البقاء ، حتى أسامت بها الاقدار الى القرن التاسع عشر ، بل والى القرن العشرين ، حقيقة ثابتة راسخة بين أمم الارض . عاش اليهود بلا دولة ولا أرض ولا رئيس سياسى ، مشتتين فى أطراف الدنيا مندمجين فى أمم هى أبعد الامم عن بعضها تجانساً وأقلها ترابطاً ، ومع كل ذلك عاشوا متحدين شاعرين بحقيقة هذا الاتحاد كقوة سياسية عظمى . ويعتقد تشامبرلين ان السبب فى هذه المعجزة هو ذيوع كتاب واحد بين اليهود . هذا الكتاب هو التوراة ، مع كل ما أزيد اليه من الاضافات حتى يومنا هذا . يقول إن هذا الكتاب يجب ان ينظر فيه باعتباره صورة منعكسة عن روح قومية خاصة عملت كلما دقت ساعات الخطر الداهم والكوارث المحتاجة على توثيق الوحدة والالفة الوطنية بعناية رجال خصوا باوسع المدارك ووهبوا قوة الفراسة . غير أن تشامبرلين لا يقف عند هذا ، بل يحاول أن ينتزع من التوراة دليلا يؤيد نظريته . فيقول بان ما بث فى تضاعيف التوراة من الروح الدينية لم يكن فى الحقيقة الا عنصراً من عناصر الرواية التاريخية التى انضوت عليها دفتا التوراة ، وأن عكس ذلك غير صحيح . ولقد مضى فى تدليله طويلا حتى أنه لم يترك شاردة ولا واردة الا اثبتها انتصاراً لمذهبه هذا ، وليثبت ان الشعب اليهودى قد أدمج دينه فى تاريخه ، وأنه صب الدين فى معين التاريخ شعوراً منه بقوة ترابطه القومى ،

الثلاث التى عمد اليها كونت فى تكوين مذهبه الفلسفى، الا اذا رجعت الى تحليل نفسى تاريخى تتناول فيه نشوء الانسان .

فان كثيراً من الفلاسفة قد اظهروا جهلا كبيراً بحياة الانسان وتاريخه فبنوا قواعد ووضعوا مذاهب على الرغم مما فيها من الروعة وأثر الجهد ، فانها بعيدة جهد البعد عن الحقائق الواقعة التى ينطق بها تاريخ الانسان . فبينما تجد أن البعض منهم قد أطرح البحث فى طريقة التفكير التى ينتحيها العقل وصولا الى حقائق الاشياء ، تقع على غيرهم وقد حاولوا أن يفصلوا العقل عن الانسان ليجعلوه ،وضع درس خاص ، يرجعون اليه بعد أن يفرغوا من تاريخه الطويل . فى حين أن تاريخ الانسان وتاريخ العقل شىء واحد ، وما فصلهما الى شيئين الا عبث كبير بالعلم وأساليبه .

كذلك تجد أن كثيراً من الفلاسفة ، سواء أفى العصور الحديثة أم القديمة ، قد زعموا بأن العقل ليس بشىء سوى مجموعة ما يصدر عن الفكر والادراك الشامل . فحصروا العقل فى مجموعة مايدرك ويتصور ويحكم به ويتعقل فيه ويفهم ويعتقد به ويراد فعله . ولكن قليلا من الابحاث النفذة التى قام بها علماء عمدوا الى النظر فى الانسان باعتباره كلا واحداً ، قد اثبتت أن الانسان لدى الواقع لايستطيع أن ينتبه انتباهاً عقلياً كاملا لحقيقة مايدرك أو يتذكر أو يريد أو يحكم فيه . بل برهنوا على أن جزءاً عظيما من تفكير الانسان ، فى كليات المسائل أو جزئياتها ، انما يقع تحت آصار وراثة طويلة ثابتة تجعله خاضعاً لقبول أشياء ومبادىء وحقائق من غير أن يشعر كيف انه قبلها أو سلم بها . وعلى هذا تجد أن حالة الحياة النفسية اللاشعورية قد تستقوى فى أغلب الاحيان على الحالة الشعورية الراجعة الى أحكام العقل على مايدركه أصحاب الفلسفة اليقينية . وهذه المسألة تظهر كأنها أمر طبيعى واقع لكل من يمعن النظر فى الحقائق الاتية :

يدلنا التاريخ الطبيعى على أن هنالك أربع حالات يثبتها البحث فى تاريخ الانسان :

الاولى — حالة العقل الحيوانى — وهذه ندعوها بالحالة الغريزية

والثانية — حالة العقل الطفلى -- وهذه ندعوها بالحالة اللاهوتيه

والثالثة — حالة العقل الوحشى — وهذه ندعوها بالحالة الغيبية أو الميتافيزيقية

العقل الانسانى فيه بطبيعته كفاءة لان ينتحى ثلاث طرق للتـأمل من حقائق الاشياء . وطبيعته فى كل من تلك الطرق تختلف عن الاخرى تمام الاختلاف . بل اننا لا نبالغ اذا قلنا انها تتناقض . ومن هنا ينتج ثلاثة ضروب من الفلسفة، أو بالاحرى ثلاثة أساليب للتفكير فى اكتناه حقيقة الظاهرات ، كل منها تنافر الاخرى — أما الاسلوب الاول فخطوة ضرورية يبـدأ بها العقل فى سبيل تفهم الحقائق والبحث عن مصادرها . وأما الاسلوب الثالث فيمثل العقـل فى آخر حالات ارتـكازه على الحقائق البارزة . وليس الاسلوب الثانى الا خطوة انتقالية بين الاسلوبين الاولين

ففى الحالة اللاهوتية يبحث العقل فى طبيعة الاشياء وحقائقها وفى الاسباب الاولى والعلل الكاملة . يبحث فى الاصل والماهية والقصد من كل الاشياء التى تقع تحت الحس ، وعلى الجملة يبحث فى المعرفة المطلقة ، وهنالك يضطر الى التسليم بان كل الظاهرات انما ترجع الى الفعل المباشر الصـادر عن كائنات تقع وراء عالم الطبيعة المنظور . وفى الحالة الثانية ، وهى حالة محورة عن الحالة الاولى ، يتبدل العقل من فرض الـكائنات السائدة على الطبيعة بفرض قوات مجردة أو شخصيات محققة الوجود ، يكون فى اسـتطاعتها احداث مختلف الظاهرات . وليس ما يعني فى هذه الدرجة من تفسير الظاهرات الاعبارة عن نسبة كل منها الى مصدرها الاول. وفى الحالة الثالثة يطرح العقل طريقة البحث الضائع وراء الاسباب المجردة وأصل الوجود الـكونى ومنقلبه والعلل الاخيرة التى تعود اليها الظاهرات ، ويلقى بكل جهده فى سبيل معرفة السنن التى تحكمها ، أى صلاتها المتشابكة وتلاحقها ومشابهاتها. هنالك يتحد العقل والمشاهدة ليكونا أساس المعرفة . فاذا تـكلمنا فى هذه الحال فى تفسير حقائق الـكون ، فلا نخرج عن إيجاد صلة ما بين ظاهرة من الظاهرات وبين مجموعة من الحقائق العامة التى يقل عددها تدرجاً بنسبة تقدم العلم اليقينى .

هذا هو مذهب كونت . ولـكنك اذا فكرت قليلا فى الاصل الذى نبع منه ذلك الشيء المبهم الغامض الذى نسميه « العقل الانساني » وجدت أن هنالك حالة مر بها العقل يمكن أن تكون بمثابة قاسم مشترك اعظم يضرب فى مجموع هذه الحالات التى بنى عليها كونت فلسفته — على انك لا تستطيع بجانب هذا أن تدرك حقيقة هذه الحالة ، أو أنها ذات أثر خالد باق فى مجموع الحالات

تاريخ النضال

بين العلم والدين

مراجعة وتلخيص عن كتاب الاستاذ درابر Draper

— ١ —

بدأ المؤلف كتابه بمقدمة استهلها بان الطبقات المستنيرة في أوروبا وأمريكا أخذت تبتعد عن الاعتقاد بسلطان الاديان ، وأن نفوذ رجال الدين لم يعد يؤثر في السياسة العالمية ، وان الروح الحربية الدينية قد اضمحلت وانمحت ، على الرغم من أن البابوية لاتزال تدعى تمثيل آراء ثلثي سكان القارة الاوروبية ، وتزعم أنها تسيطر على أرواحهم ، ثم يرجع الى الكلام في الزمان الذى كان للمسيحية فيه سلطة سياسية ، فيعده مبدأ النضال بين الدين والعلم . وكذلك تاريخ المعرفة فانه لا يقتصر في اعتقاده على الاكتشافات التى تواترت خلال العصور الحديثة ، بل يقول بان المعرفة كانت نتاجاً لتنازع قوتين متعارضتين : الاولى — رغبة الذكاء الانساني في التوسع من جهة ، والثانية : الميل الى الاعتقاد مع الرغبة في المحافظة على المصالح الذاتية من جهة أخرى .

***

« نشوء العلم » — بدأ الاستاذ « درابر » بوصف حالة بلاد اليونان قبل المسيح بأربعة قرون ، فقال بان الاغريق في ذلك العصر كانوا قد سبقوا بالعلم ما وصلت اليه تعاليم أديانهم بمراحل كبيرة . فان النظريات والمبادىء التى وضعها فلاسفتهم قد أعانتهم على تحرير عقولهم علميا الى حد بعيد . وكان مؤرخوهم قد وصلوا بطريقة البحث التى انتحوها الى الوقوف على الاسباب التى أدت الى النتائج التى بدت لهم جلية

---

(١) احتفظ المؤلف لنفسه بحق اعادة الطبع وبحق الترجمة ويؤمل الملخص أن لا يعمد أحد الى الانتفاع ماديا من هذا التلخيص لان المقصود منه هو أن يقف العالم العربى على امتع ماجادت به قرائح مفكرى الغرب .

والرابعة — حالة العقل المتمدين — وهذه ندعوها بالحالة الاثباتية أو اليقينية

أما الأولى فبحثها مقصور على علم النفس المقارن. Comparative Psychology

وأما الثانية فبحثها مقصور على علم النفس التحليلى. Genetic or Analytical Psychology

وأما الثالثة فبحثها مقصور على علم الانسان والشعوب. Anthropology & Ethnology

وأما الرابعة فبحثها مقصور على علوم التاريخ والاجتماع وعلم النفس الاجتماعى History, Sociology & Social Psychology

ومن مجموع هذا ننتهى بالنتيجة الآتية :

الحالة الاولى — العقل الغريزى أو الحيوانى Instinctive = Animal

الحالة الثانية — العقل اللاهوتى أو الطفلى Theological = Child

الحالة الثالثة — العقل الغيبى أو الوحشى Metaphysical = Savage

الحالة الرابعة — العقل اليقينى أو المتمدين Positive = Civilised

أما وقد ثبت أن الاصل فى العقل للغريزة ، وثبت بجانب هذا أن الانسان مجموعة صفات وراثية قديمة العهد ، فانا لا يمكننا أن نسلم بأن الحالات الثلاث الاخيرة قد تخلصت تخلصاً تاماً من قواسر الحالة الغريزية الأولى ، وعلم النفس الحديث يدلنا على أن الادراك اللاشعورى لا يزال ذا صفة غالبة فى كل مايصل اليه العقل الانسانى من نتائج البحث فى حقائق الاشياء .

فيلوبونس

عن داروين

لما أراد العلامة شارلز داروين أن يلتحق ببعث الكابتن فتزروى للطواف حول الارض رفض رئيس البعث قبوله زاعماً أن شكل أنفه يدل على البلادة . و بعد لأى قبل أن يكون معه . فكتب داروين بعد أن حاز واسع الشهرة وأخرج كتابه اصل الانواع في مذكراته : « انى اليوم معتقد تمام الاعتقاد بان ما استنتجه الكابتن فتزروى من أنفي كان خطأ محضاً »

بهذا دخل عنصر جديد فى مجال اختباراتهم . ولا يغرب عن أفهامنا أن انتصار الفارسيين قد عقبه هدم المعابد والهيا كل اليونانية دون أن يجرأ اله من آلهتهم الكثر على أن يحرك ساكناً أو يبدى اعتراضاً ! وما مثل هذه الحوادث التجريبية فى التاريخ الا كمثل النيران المتسعرة التى تصهر المعادن لتفصل عن العناصر النقية الفضلات الزائفة . هذه حوادث تبعث على الفكر ناراً تصهره فى أتون الزمان ، لا لتمحوه ولا لتحلل أجزاءه ، ولكن لتنقيه من الاساطير التى يرثها عادة من أزمان قصية ويقبلها على أنها حقائق واقعة بحكم ما فيه من اخلاد للمنقول عن الاوائل دون اختبار أو تمحيص .

وما وصلت الحوادث الى هذا الحد حتى بدأت فكرة التوحيد الزرادشتية ، بعد أن امتزجت بمذهب الازدواج — رجوع العناصر الى أصلين اثنين — وغيرها من النظريات المجوسية القديمة ، تهىء أفكار اليونانيين لقبول عناصر جديدة ، زادت الى ما كان لديهم من مهيئات النشوء والارتقاء .

وبعد أن مات الاسكندر المقدونى ، وتربع بطليموس (سوتار) على عرش مصر ، أم الاسكندرية ان طوعاً أو كرهاً أرهاط من اليهود توالى نزوحهم اليها حتى لقد كان لجماعاتهم شأن يذكر بين سكان هذه المدينة ، وكانت البقية إما مصريين أو إغريق . ومن هذه الطريق امتزج الدين الاغريقى والفلسفة الاغريقية بالالهيات العبرانية ، ومن هذا التركيب المزجى فى الآراء والافكار والمعتقدات والفنون تكونت النواة التى قامت عليها مدرسة الاسكندرية . ولقد توالت بعد ذلك الاستكشافات العلمية وكثرت المخترعات ، حتى أصبح الدين وسيلة لاخضاع العامة تسهيلا لقيادتهم وضماناً على اخلادهم للقانون ، لا أقل من هذا ولا أكثر . وإنا لا نغالى اذا قلنا بأن نواة العلم الحديث قد غرست فى أول عصورها فى مدرسة الاسكندرية ، ومنها أينعت دوحة العلم . على أننا لا ننسى أن نذكر للصين وما بين النهرين أثرهما فى علم الفلك وما استكشفا فيه من حقائق وما نثرا حوله من آراء .

***

وهنا ينتقل الاستاذ « درابر » الى البحث فى نشوء النصرانية ، ومن ثم يتكلم فى نزعتها الى الامبراطورية ، ثم فى صلتها بالعلم ، ثم يقول : ان النصرانية هى الهبة الكبرى التى وهبتها الدولة الرومانية لسكان هذه الارض ، وان التوسع

على صفحات الدهور ، فازداد الشك فى المعجزات والخوارق الطبيعية ، وبدأت الثقة بالتقاليد التى تناقلتها الاجيال عن الاولياء والقديسين تقل وهناً على وهن وحالا على حال . وكان للتجربة أكبر الاثر فى ذلك . فانهم لم يقفوا على أثر لمارد من المردة ولا بطل من ابطال الاساطير ، على الرغم من أنهم جابوا أنحاء العالم المعروف فى زمانهم ، فمخروا عباب البحار ورصدوا النجوم . وكان التجديف والالحاد أول الاسلحة التى تسلح بها العامة وطالبو القوت ورجال الدين ضد العلماء وأرهقوهم بها ارهاقا ، فنفى منهم من نفى وشتت من شتت وقتل من قتل . وليس لهذه الظاهرة فى سبب اللهم الا اكبار الخروج على التقاليد والآراء التى عكف عليها السلف القديم منذ أجيال بعيدة . وأكثر ما فى هذه الظاهرة من قوة ليس له من سبب الا سلامة النية وحب القديم وان كان فاسداً .

ولما اشتد ساعد العلم ومضى الباحثون يظهرون ما فى التعاليم المقدسة من بطلان ، لجأ المغرضون الى التمويه والسفسطة مدعين أن أغراض العلم والفلسفة انما تنحصر فى القصد والغاية لا فى الصورة ، وفى المعنى لا فى المبنى ، وفى الباطن لا فى الظاهر . وقد رموا المجددين بأنهم انما يأخذون ببحث الاعراض تاركين الجواهر التى تحمل تلك الاعراض ، وبدؤوا يفسرون التعاليم المقدسة ، عاملين على أن يرتقوا كل فتق يظهره العلم فيها ، وفى معتقداتهم بالاستنباع ، بآراء وتعاليم جديدة ، كانت تقترب شيئا فشيئاً من حقائق العلم ونظريات الفلسفة الجديدة رغم أنوفهم ، حتى أخفقوا فى الاحتفاظ بالهيكل القديم كما كان ، فأخذ يتهدم حجراً بعد حجر ، حتى اندثر وباد مع ما درس من آثار الاقدمين .

ولقد كان للحروب التى وقعت بين الاغريق والفارسيين أثرها المحتوم . فقد أتاحت الحروب لأبناء إغريقية أن يتعدوا حدود بلادهم ضرباً فى الارض ، فوقعوا خارج أوطانهم على أشياء تشابه تلك الخوارق والمعجزات التى نسبوا حدوثها الى أبطالهم وآلهتهم ، بل وجدوا أشياء تبز فى عظمتها ومجدها ما زين لهم الوهم وما صور لهم الخيال . ومع هذا فلم يعثروا على أثر أو شبه أثر يدل على أن الشعوب التى خصت بهذه العظمة الارضية كانت تعبد مثل ما يعبدون من آلهة . ناهيك بما وقفوا عليه من مذاهب دينية جديدة ، جذبت الى ناحيتها عقول فلاسفتهم وخيال شعرائهم ومعلميهم ، بل العامة من مختلف الطبقات .

لعله أول نظام قام على هذه الفكرة فى تاريخ الدنيا ، اندمج فيه الفرد فى المجموع ، وأصبح للكل ما كان ملكا للفرد ، فكان لليتامى والمرضى والمساكين والارامل وأبناء السبيل والمستضعفين ، نصيباً مماثلا لنصيب أى فرد مهما كانت حالته من الصحة والقوة والقدرة على الانتاج . وعلى الجملة أصبحت ثروتهم مشاعاً .

وكان لقيام هذا النظام على أساس من الدين سبباً فى ان تقوى شوكة الكنيسة وأن يمتد نفوذها ، حتى تشعبت سطوتها السياسية ، وأصبحت قوة زمانية كما هى قوة روحية ، وأخذ سلطانها يمتد الى احشاء الممالك المستعبدة ، فتهافت الناس عليها رغبة منهم فى حمايتها لمصالحهم وأرواحهم . وهكذا بسطت المسيحية جناحيها السحريين على آسيا الصغرى وعلى جزائر البحر الأبيض المتوسط ، ثم هاجمت بلاد اليونان وولايات الرومان النائية . وكان الفضل الاعظم فى كل هذا للمبشرين ، ولطريقة التبشير ، وهى طريقة فات كبار المفكرين منذ أول عصور التاريخ ان يتخذوها ذريعة لبث أفكارهم ومذاهبهم ومعتقداتهم .

على أننا لا نلبث على هذا غير قليل حتى نرى روما مباءة لبث هذه الدعوة الروحية . وفى هذه المدينة القديمة وضع القديس بطرس الاسس الاولى التى قام عليها بناء المسيحية المشمخر . ذلك لان بيت المقدس لم يكن فى ثراه من الصلابة ما يحتمل ان يقوم عليه مثل هذا البناء . ولم يكن فى بيت المقدس من قابلية الفكر ولا من الاستعداد الطبيعى ، ماتستند اليه مثل هذه الاسس الكبرى . فى حين ان روما كانت ملتقى البحر والبر ، كما كانت أقل مقاومة للفكرة الحديثة من فلسطين ، مربض اليهودية ومعقلها التاريخى . كذلك كانت روما فى دور انحلال اجتماعى فشت فيه منازع الاستهتار والتهتك . ولكن بيت المقدس كانت مركزاً لدعاية أمة مستعبدة مشتتة فى أطراف الارض ، مدفوعة بكل مالديها من قوة الى مقاومة كل ما تشعر بان فيه قضاء على كيانها أو دينها .

واستيقظ الرومان من غفوتهم . ولكن بعد فوات الوقت . فرأووا الخطر المحدق بميراثهم الدينى والاجتماعى ، فاعملوا السيف فى المسيحيين ، ولكن على غير جدوى . فان الحزب الجديد كان نفوذه قد أخذ فى التضاعف والازدياد ، حتى ان الامبراطور قسطنطين ، رغبة منه فى توطيد ملكه ، قد خضع للحقيقة الملموسة فانضوى تحت لوائه قسراً فى الواقع ، وان كان قد ترأس الحزب فى الظاهر . ولقد مدت اليه

الاستعمارى الذى جرت عليه الدولة الرومانية قد دثر ممالك عديدة ، وباندثارها محيت آثار آلهتها التى احتكمت فى تصورات أبنـائها الازمان الطوال ، كما محى من صفحات التاريخ ذكر ملوكها ومعاهدها و نظاماتها . وكانت روما بداءة ذى بدء مضطرة لأن تشرك مع آلهتها آلهة أخر تستمدهم اقتراضاً من الامم الاخرى . ولـكن جاء زمان اضطرت فيه مقتضى الحـال أبناء روما على أن يردوا القرض لأهله ، أو ينثروه فى الهواء ، أو يذروه مع الريح . فأخرجوا من حظيرة الآلهة كل اله دخيل عليهم غير أصيل فى خيالهم . وكان لذلك أثر كبير . فبعد أن تعددت آلهة الرومان وكثرت بتعدد أبطالهم الفاتحين وتكاثر ضروب المصالح الدنيوية ، وتضارب صور الفكر التى تستتبعها فى الوجود ، واضطروا الى محو كل أثر للآلهة الدخيلة عليهم ، أنتج هذا المحو والاثبات شعوراً قال من خطر الآلهة فى نظرهم على وجه الاجمال ، اقلالا كان له أثره الثابت فى الحضارة الرومانية . أضف الى ذلك تعارض تينكما النظريتين : النظرية الغربية القائلة بتأليه البشر بعد تربعهم فى عرش السماء : والنظرية الشرقية القائلة بتجسد الآلهة السماوية وظهورهم بمظهر البشر

ولم يكن بعد هذا كله من مفر من أن يتجه اعتقاد الرومان الى التوحيد كنتيجة لقيام امبراطوريتهم العظيمة ، التى جرهم قيامها الى الانغماس فى الترف والتمادى فى اتباع الهوى والتهافت على كبائر الاثم والفواحش

وكان لهذه الفوضى نتائجها العكسية . على ان هذه النتائج لم تظهر جلية واضحة الا عنـدما اقترب عهد الانحلال وظهرت آثاره البينة فى أجزاء تلك الامبراطورية الـكبيرة . هنالك كثرت جمعيات التقوى والزهد فى جميع أنحائها . وحدث فى سوريا ان التف من حول يوحنا المعمدان جماعة ، كما التفت حول غيره جماعات أخر . وفى هذه البيئة بثت تعاليم المسيح فوجدت أرضاً خصبة قوية العناصر . كيف لا وقد كان اليهود ينتظرون هبوط المخلص للاقامة بينهم والاخذ بيدهم ليرد عليهم مافات من إزدهار عصورهم الأولى . غير ان كهنتهم قد شعروا بمرارة عندما رأووا أن صاحب الدعوة الجديدة قد جرأ على ان يهاجم بعض شعائرهم ، فاضمروا له الحفيظة وباتوا له على دغل وحقد ، ثم أسلموه الى الذين صلبوه انتقاماً وارواء لظمأ التشفى الذى أكل صدورهم . غير ان موته كان سبباً فى أن يكثر اتباعه ويتضاعف عددهم مرات ، حتى لقد انشؤوا نظاماً شيوعياً ،

١ — هل تسبب الموت عن خطيئة آدم أم هو أمر طبيعي لازم ؟
٢ — هل كان الموت موجوداً قبل خلق آدم ؟
٣ — اين صنع الله السماء والارض ؟
٤ — ماذا كان يصنع الله قبل أن يخلق السماوات والارض ؟

وهنـا حاول فريق أن ينقض المزاعم الدينية — اللاهوتية — ببراهين علمية ، كما حاول فريق آخر أن لا يسلم بصحة النظريات العلمية الا اذا أولت بما يوافق ماجاء في سفر التكوين معتمدين على أقوال القديس أوغسطين، واستخفوا بالتطبيق والطرق الاختبارية . ومن أمتع ماتقع عليه في جدل اللاهوتيين قولهم عند ماحاولوا ان ينفوا كروية الارض : « هل من المعقول أن نتصور الساكنين في الجهة المقابلة لنا من كرة الارض معلقين بارجلهم ورؤوسهم ملقاة الى أسفل ؟ وكيف يتاح لهؤلاء أو يروا الاله هابطاً الى الارض يوم القيامة من السماء ؟

أما علومهم اللاهوتية فاليك مثال منها في الجغرافية :

« الأرض منبسطة متوازية الاضلاع . طولها سفر أربعمائة يوم من الشرق الى الغرب ، ومائتى يوم من الشمال الى الجنوب ، وهي محاطة بجبال بسط عليها الافق . أما شمال الارض فرتفع كما أن جنوبها منخفض . ولذلك يسرع انحدار الدجلة والفرات ، في حين يبطئ انحدار النيل »

ولقد كان لهم في اثبات أقوالهم طرق طريفة فعالة . فكان اذا قال لهم قائل ان العشرة اكثر من الثلاثة مثلا قالوا كذبت فالثلاثة اكثر . أما البرهان فنار متلظية وعذاب مقيم. فكان من أيسر الامور التسليم بصحة البرهان . وأما النظرية فمن ذا الذي يجرأ على أن ينقضها ؟ (يتبع)

عمر عنايت

في الفخر

قال مهيار: قومي استولوا على الدهر فتى — ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهمو — وبنوا أبياتهم بالشهب
قد قبست الملك عن خير أب — وقبست الدين عن خير نبي
وضممت الفخر من اطرافه — سؤدد الفرس ودين العرب

الأيدى من جميع انحاء الامبراطورية لتنصره ، فكبت مزاحميه وانتصر عليهم ، وتوج كأول أمبراطور مسيحى ، فكان ذلك الحادث سبباً فى ان يدخل الناس فى دين المسيح أفواجاً ، لاعن اقتناع بتعاليمه ، ولكن طمعاً فى حمايته . وهذه الخطوة هى الخطوة الاولى التى أدت الى انتشار كل الاديان على اختلاف ألوانها وتباين درجاتها .

وأنت ترى ان استعداد العقل البشرى لهضم الآراء والفكرات الجديدة لايتحول عن مجراه القديم بسهولة مهما كانت قوة العوامل الداعية لنشر الجديد من المبادئ أو المذاهب أو المعتقدات . لهذا انتج اندماج غير المقتنعين بصدق تعاليم النصرانية فى تضاعيفها نزعة جديدة صبغت المسيحية بالصبغة الوثنية التى لاتزال آثارها بارزة حتى اليوم فى جبين الكثير من طقوسها . فنظام القديسين وانارة الشموع واطلاق البخور والانحناء للصور وتقديم النذور ، كلها طقوس وثنية أخذت تصطبغ بالصبغة المسيحية حالا على حال حتى أصبحت كأنها من أصول الدين المسيحى ، شأن كل الاديان فى ترابط صورها وانتقال نظاماتها بالالقاح . ثم انسلت فكرة التثليث من مدرسة الاسكندرية ، وكانت قد تشبعت الى حد كبير بتعاليم الكهنة المصريين الذين أدمجوه ، وعلى رأسهم اتناسيوس المصرى ، فى اللاهوت المسيحى . وكان هذا مبدأ خلاف عنيف وجدل عقيم بدأ بالتساؤل عن امكان المساواة بين الاقانيم الثلاثة الآب والابن والروح القدس . ثم تطور البحث تطوراً آخر فتناول جوهر الابن والطبيعتين والمشيئتين ، ثم عمد الى ادخال عبادة العذراء ، وما تبع ذلك من الفظائع التى اقترفت وكانت «هيباشيا[1]» احدى ضحاياها ، فقضت الاضطهادات الدينية على كل أثر للفلسفة فى مدرسة الاسكندرية ، وكان هذا مبدأ النضال بين الدين والعلم اذ طرحت على بساط البحث موضوعات كان لابد من ان تؤدى الى هذا النضال . واليك أمثال منها .

---

(١) هيباشيا (٣٧٠ — ٤١٥ بم) من كبار من اشتغل بالرياضيات والفلسفة ولدت بالاسكندرية وعاشت بها . وهى ابنة ثيون — Theon — وكان فيلسوفا رياضياً . وقد علق على مبادىء اقليدس وعلى كتاب المجسطى فى الفلك . ويقال بأن لابنته أثراً كبيراً فى هذه التعليقات المدرسية . وكان قد اعترف بها كرئيسة لجماعة الافلاطونيين الذين كان يطلق على مذهبهم اسم الافلاطونية الجديدة . وكانت على جانب كبير من العلم والفصاحة وبلاغة التعبير .

عنصر الحياة الاعظم ومبعث الحركة فى الانسان والحيوانات . ولا شبهة فى أنهم اعتبروه المبدأ الاول أو « السبب » فى الحياة الحيوانية

ومن هنا نستدل على أن كلمة « حيوان » قد دلت لدى البدء على « الكائن المتنفس » ولكن مدلول الكلمة قد اتسع سريعاً ، فاصبح يدل على كل الكائنات التى تنشط للحركة ولولم يرمن ظاهرها انها تتنفس بالهواء ، كالحشرات مثلا . أما الفكرة العامة فى الحيـاة فقد ربطها القدماء بفكرة « النماء » . ولذا أصبح علم « الحياة » عندهم يدعى « الفزيولوجيا » وهو اصطلاح ينتهى بمقطع « لوجيا » ويبدا بكلمة « فيوزيس Phusis » وهى تدل على النماء فى أوسع معانيه . أما كلمة « فزيولوجيا » القديمة فقد استعملت ازماناً مديدة لتدل فى علم الطب على علم « حياة الانسان » حتى ان هكسلى قد أدرك أنه من الضرورى ان تنسج كلمة جديدة ، فوضع كلمة « بيولوجيا » Biology لتدل على الحياة فى أوسع معانيها . أما اشتقاق هذه الكلمة فعبث باللغة اليونانية ، لان كلمة « بيوس » Bios لم تستعمل مطلقاً لتدل على الحياة بالمعنى العام فى تلك اللغة . ومع هذا فان كل المهوشات الفكرية قد اتقيت باستعمال هذا الاصطلاح والجرى عليه . ولهذا يتعين علينا قبوله ، على الرغم من ضعف اشتقاقه لغة . وكما ان الفكرة فى الحيون قد انحصرت فى الدلالة على كل ما « يتحرك » ، كذلك الفكرة فى الحياة قد انحصرت فى الدلالة على كل ما « ينمو » . ولقد مضت هذه الآراء خلال الازمان الأولى متنقلة فى ثنايا الفكر الانسانى على ذلك النمط الكامل من التفكير الذى يخيل الينا أنه من أوضاع العصور الحديثة ، لتدل على المقصود من معنى « العلم » . غير ان هذه الآراء قد أضلت القدماء السبيل . إذ ليس كل متحرك بحيوان . فمثلا يخرج عن حدود هذا التعريف كل قذيفة بركانية وكل نيزك منقض ، ولو اتصفا بالحركة . كما أنه ليس كل نام بحى . فكرة من الجليد تنحدر من فوق جبل جليدى أو بلورة تتعلق بسائلها الاصلى ، كلاهما ينمو ، ولو أنهما بعيدتين عن حقيقة الحياة .

يعرف العلم الحياة بانها « الحالة التى يكون فيها كائن ما قادراً على النماء وإعقاب مثله من طريق التناسل » . والنماء المقصود هنا مختلف تمام الاختلاف عن نماء كرات الثلج أو البلورات . فان ازدياد الحجم فى الكرات والبلورات إنما يحدث باضافة مادة جديدة توضع فوق سطوحها فى طبقات تتراكم فوق مادتها الاصلية

الزولوجيا

أو مبادىء علم الحيوان

— ١ —

الغرض من علم الحيوان

اشتقت كلمة زولوجيا — أى علم الحيوان — من كلمة « زوون » Zoon اليونانية وكان يعنى بها حيوان ، ومن مقطع « لوجيا » Logia وكان يعنى به « بحث أو علم » . فهذا الاسم ، كما يتبادر الى الذهن ، يدل على علم الحيوانات ، ولذا تراه أضيق مدلولا فى مراميه من علم « البيولوجيا » — أى الحياة — وهو علم يتناول البحث فى كل شيء حى ، ويتضمن علم الحيوانات باعتباره فرعا من فروعه .

لهذا يعترضنا الذى البدء سؤالان جوهريان : الاول — ماهى الحياة؟ والثانى : ما هو الحيوان ؟ ولست تجد من سؤالين يصعب عليك أن تجيب عليهما جوابين شافيين كهذين السؤالين . فاذا جارينا هربرت سبنسر وعرفنا الحياة بانها « التعديل المستمر بين العلاقات الداخلية والعلاقات الخارجية » فمن ذا الذى يشعر بانه ازداد بالحياة علماً ، أو بلغ الى تصور فيها أفضل وأمجد من تصوره الاول ، اذا ما وقف على هذا التعريف ؟

ان أمثل طريقة تؤدى بنا الى صحة البحث فى هذه المعضلة هى الطريقة التاريخية . فبدلا من أن نتساءل ماهى الحياة ؟ أو ما هو الحيوان ، نرجع الى البحث فى كيفية نشوء تلك الآراء المتحيزة التى تتضمنها اصطلاحات « الحيـاة » و « الحيوان » وما الى ذلك ، وكيفية تأصلها فى العقول

فكلمة حيوان Animal مشتقة من ذات الأصل الذى اشتقت منه كلمة « أنيما » Anima وهذه الكلمة كانت تدل أصلا على « الريح » أو « النسيم » . ومن ثم استعملت لتدل على التنفس : أى حركة الهواء الذى يؤخذ شهيقاً ثم يرد زفيراً بواسطة الرئة لدى التنفس . فالتنفس قد عرف له القدماء أهميته واعتقدوا بأنه

وان كائناً مامن الكائنات الحية قد يقال بانه حيوان أو نبات باعتبار الخصائص التي تتصف بها الفصيلة التي يتبعها ، ولو أن خصائصه الفردية ، في بعض الاعتبارات ، لا يمكن أن تنطبق عليها التعاريف الموضوعة للحيوان أو النبات . فان النباتات الحساسة قد تتدلى أوراقها أو تقفل عند اللمس ، كما يفعل الحلزون إذ يسحب ملامسه وينكمش داخل صدفته عندما يزعجه مزعج خارجي . ومع هذا فالنبات ذو الحس يعتبر نباتاً ، لان كل خصائصه وصفاته ، تنطبق على فصيلة الحمص من النبات مثلا . والنباتات المفترسة لها وعاء كالكأس يكون في أعلى الوريقات ، به تقتنص الحشرات اذا ما ولجته ، إذ تتشبث بها خصل من الشعر منحرفة الوضع ، وغير ذلك من الوسائل . فاذا اقتنصت هذه الحشرات ماتت وهضمت ، ومن ثم تمتص الانسجة النباتية التي تقوم بوظيفة الجدران المعدية في الحيوان ، هذه البقايا جملة . ومع هذا فاننا نسلم بأن هذه النباتات المفترسة هي نباتات صحيحة الصفات ، لانها في كل مفصلات تركيبها ، كالخشب والاوراق والازهار ، تشابه النباتات العادية . ونجد من جهة أخرى بعضاً من الكائنات الحية الصغيرة الحجم خضراء اللون . وهي تعيش على أبسط المركبات الكيماوية شأن النباتات تماماً . ومع هذا نعترف بانها حيوانات اعتماداً على مشابهتها لكائنات حية أخرى لا نشك مطلق الشك في أنها حيوانات . ولا مناص لنا من التسليم بان الشك الذي يداخلنا في تحقيق مركز « النباتات الحيوانية » أبلغ من الشك الذي يحيط بنا في تحقيق مركز « الحيوانات النباتية » التي أشرنا اليها قبلا . ولا يدلك على مقدار ذلك الشك من شيء ، مثل معرفتك ان الاساتذة والمعلمين في كلا العلمين ، علم النبات وعلم الحيوان ، يحاضرون تلاميذهم في هذه الفصائل بذاتها ، فيتناولها علماء النبات على أنها نباتات ، وعلماء الحيوان على أنها حيوانات ، بل إن المتون المدرسية التي توضع في كلا العلمين لا تخلو من ذكر هذه الفصائل . فقد تقع في كثير من الحالات على حيوانات خضراء اللون ذات أحجام ظاهرة ، وفي الوقت ذاته تكون قادرة على الغذاء بمركبات كيماوية بسيطة . غير ان هذه الظاهرة قد عللت بانها ترجع الى حقيقة ان أجسام هذه الحيوانات تكون بمثابة مباءة لعدد عديد من النباتات المجهرية «الميكروسكوبية» الصغيرة الحجم ، تنمو فيها وتصبغها بلون النبات الطبيعي ، بان يشع ذلك اللون من خلال الجسم الحيواني الذي تزيد

التى تبقى ثابتة كمركز . أما الكائن الحائز لصفة الحياة أو كما ندعوه عملياً « الكائن الحى أو الكائن العضوى » فان النماء انما يحدث فيه بانغماد مواد جديدة تحشى بين فجوات أرق الدقائق التى يتكون منها الجسم القديم . وهو يسمى عملياً «النماء بالانغماد» Growth by Intussusception . وبهذه الطريقة ينمو الطفل ليبلغ الى الرجولة . فاذا نظرت فى الوجه مثلا وجدت أنه على الرغم من ان حجم الملامح فيه قد بلغ إلى أكثر من مضاعفه ، فان النسب العامة من حيث التناسب بين الاجزاء قد ظلت محفوظة . أما التناسل أو إعقاب النسل فيقصد به تكوين كائنات حية جديدة بانفصال أجزاء صغيرة تدعى الجراثيم Germs وتأتى الى الوجود من طريق الانقسام عن أجسام حية تسبقها فى الحياة . وهذه الجراثيم الصغيرة تستمر فى النماء حتى تبلغ مبلغ الاجسام الاولى التى تولدت عنها والتى هى مدينة لها بالوجود أصلا ، وهذه هى السبيل الوحيدة التى تتكون بها كل الكائنات الحية . كما ان كل صور الحياة الجديدة انما تحدث من طريق الاتصال بصور حية كانت موجودة من قبل ، وعلى هذا يكون التناسل عبارة عن حالة خاصة من حالات النماء . وإنه لمن أروع الاشياء التى نشاهدها فى الطبيعة ان ننظر متأملين كيف ان الكائنات الحية على الرغم من انحدارها فى سبيل الموت كل يوم ، وعلى الرغم من أنها تتحول الى مادة ميتة غير قادرة على الحركة أو النماء ، فان المواد الميتة فضلا عن هذا ، يمكن أن تتحول الى مادة حية ـ أى الى جزء حى من كائن حى ـ اذا تغذى بها أو امتصها كائن فيه خصائص الحياة .

خدمة للاغراض التى يرمى اليها العلم ، يعرف «الحيوان» بانه كائن حى يتحرك ويحتاج للاحتفاظ ببقائه الى غذاء يحتوى بالجملة على مركبات كيماوية متخالطة تسمى « البروتيدات » . وفى أغلب الحالات تؤكل هذه المركبات فى صورة مادة صلبة ، ثم تهضم : أى أنها تذوب داخل جسم الحيوان . أما النباتات فتعرف بأنها كائنات حية تكسب غذاءها فى صورة سوائل أو غازات ، ولا تحتاج فى التغذية الا لمركبات كيماوية بسيطة ، ولا تتحرك الا بمقدار ما يدرك من الحركة محمولة على صفة النماء . غير أنك اذا رجعت الى الطرق العلمية الصرفة وجدت ان هذه التعاريف لا يعتمد عليها دائماً . والسبب فى هذا ان الحيوان والنبات كليهما يمكن أن تقسم الى فصائل أعضاء كل منها تشابه بعضها بعضاً أقرب المشابهة ،

البشرى ، بل بين كثير من السلالات التى يعتبر أفرادها أنفسهم متحضرين . وما تقوم هذه الفروض الا على « السحر » أو غير ذلك من الخرافات والاساطير ، فهى غير قائمة على قواعد امتحنها العقل واختبرها اختباراً كاملا . أما الصفة الغالبة فى العلم فكونه لايقبل من شىء على أنه أساس أو قاعدة ، سوى ما نقته التجاريب ، وصفته الاختبارات والابحاث العميقة . ولقد اثبتت المشاهدات الواقعة ان الانسان من طريق الاساليب العلمية وحدها ، يمكنه ان يحوز شيئاً من أسباب التسلط على الطبيعة ، وعلى العكس من ذلك يكون حاله اذا لجأ الى السحر والشعوذة التى كانت الطابع البارز فى جبين المعتقدات القديمة .

والآن نذكر السبب فى أن علم الحيوان ــ الزولوجيا ــ ذو قيمة كبيرة . السبب فى هذا أننا «حيوانات » . فان أجسامنا انما تتركب من نفس المواد التى تتركب منها أجسام الحيوانات ، وتخضع لنفس النواميس التى تخضع لها . وسواء أكان الروح Animus الحال فينا يختلف كلياً من حيث الكيف والنوعية ، أم جزئياً من حيث الكم والمقدار ، عن الروح الحال فى الحيوانات ، فذلك بحث يخرج عن الحيز الذى يتناوله علم الحيوان . فان العلم الذى يعنى بان يجيب على مثل هذه الاسئلة يدعى علم « النفس المقارن » أو البسيكوجيا .

ومن أجل ان الانسان حائز على قوة النطق ، وهى قوة ليست لشىء آخر من عالم الحيوان ، أصبح فى قدرته ان يستكشف ويبحث وراء معرفة الروح Animus الذى يحل فى كل من رصفائه من الانسانية . ولكن الطريق الذى يمكننا به ان نصل الى بحث صميم الادراك فى الحيوان ، موصود أمامنا . وليس لدينا من وسيلة أخرى تمهد لنا طريق الوصول الى استكشاف ذلك التيه القصى . فالزولوجيا اذن إنما تحصر البحث فيما يمكن ان يرى مباشرة فى الحيوانات ، أى فى تراكيب أبدانها وطريقة عملها ، من غير أن يعير التفاتاً الى ما يمكن ان تدرك تلك التراكيب أو ما تشعر به .

على ان درس تراكيب الاجسام الحيوانية وطريقة استخدام تلك التراكيب وعملها ، أمر يساعدنا كثيراً على معرفة الاسلوب الذى تجرى عليه أعضاء الانسان فى العمل والتوظف . وما من سبيل آخر نقف به على المنافع الكثيرة التى تختص بها أجزاء الجسم البشرى الا بملاحظة مايحدث عندما يقتطع جزء من مجموع الجهاز كله .

أو تقل شفافيته على حسب الحالات . فى حين ان هذه النباتات لاتلبث ان تهضم داخل أجسام تلك الحيوانات التى تعيش فيها ان سريعاً أو بطيئاً ، فتكون لها غذاء . أما « النباتات الحيوانية » التى لم يستطع الى الآن تحقيق ذاتيتها فعبارة عن صور مجهرية صغيرة جهد الصغر . كما ان النظر فى العديد الأوفر من صورها والبحث فى أيها يلحق بعالم النبات وأيها يلحق بعالم الحيوان ، والحكم فى ذلك حكماً مقطوعاً بصحته ، مرهون على وزن ظواهرها وزناً اختبارياً صحيحاً ، مع نقد مايؤيد كلا من وجهتى النظر ، وما يناقضهما .

ومن أجل أن نسد كل الحاجات العملية فى البحث العلمى ، ينبغى لنا ان نقنع بتعريف الحيوان على أنه كائن حى ، أو كائن عضوى ، يقدر على الحركة ، ويغتذى بمواد صلبة احتواؤها على « البروتيد » شرط أساسى فيها . فان هذا التعريف ، فضلا عن جودته وانطباقه على الظواهر الحيوانية ، يعبر أحسن تعبير عن « الفكرة » التى تتوم فى رؤوس رجال العلم عندما يذكرون كلمة « حيوان »

—٢—

علم الحيوان وأهميته من الوجهة العملية

أما وقد ألممنا بفكرة اجمالية فى الموضوع الذى يتناوله « علم الحيوان » ـ الزولوجيا ـ فانا نعمد فى هذا الفصل الى تزويد الباحث بتصور فى قيمة هذا العلم من الوجهة العملية الصرفة . بيد أنى استعمل كلمة « عملي » لندل على أوسع المعانى المحتملة . فلا أتقيد بفكرة قيمتها من حيث أنها تهيىء الانسان بالاسباب التى ينال بها رزقه ، بل بفكرة مساعدته على أن يدرك حقيقة علاقته بهذا الكون الفسيح الذى يجد نفسه عائشاً بين جنباته الرحيبة . وحق مايقال من ان استيعاب تصور عقلي فى العلاقة الحقيقية التى تربط الانسان بالكون ، هو الامر الوحيد الذى يمكن به التفريق بين انسان متمدين وآخر همجى متوحش . فمنذ ان حاز الانسان القدرة على التفكير ، حاك من خيوط فكره تصورات حصر فيها علاقاته التى تربطه بهذا الكون ، ويمكننا ان نصطلح على تسميتها « بالفروض التصورية » على أن هذه الفروض لاتزال حية فى عقول سلالات كثيرة من سلالات النوع

قوة تقتدر بها على تركيز بصرها تركيزاً تاماً قوياً . ومن أجل ان هذه الطيور قد خصت بغريزة الطيران بسرعة فائقة ، فهى تحتاج الى تغيير مركز بصرها بسرعة عندما تقترب من فرائسها . ولا مرية ، اذا وعينا هذه الحقائق ، فى ان نوقن بان تثقيف أى انسان يريد أن يعالج بطريقة ارتقائية ناجعة ، وليس بطريقة التقاليد ، درس الادواء التى تصيب الجسم الانسانى ، لابد من ان يبدأ باستيعاب شيء من مبادئ الزولوجيا ، باعتبارها ضرورة تضطره اليها طبيعة الشيء الذى يكب على درسه وتفهمه .

بيد أن الوقوف على مبادئ الزولوجيا أمر كبير الفوائد جم المنافع من نواح أخرى . فان جزء عظيما من غذائنا إنما يستمد من أجسام حيوانية . فالبروتيد الذى هو جزء من أعظم الاجزاء التى نعتمد عليها فى التغذية ، يمكن الحصول عليه مباشرة من تلك الاجسام . وعلى الرغم من ان قليلا من السلالات الانسانية غير العريقة فى المدنية ـ أى النصف متمدينة ـ تعيش اطلاقاً على النباتات ، فان أكثر السلالات البشرية الغالبة الضاربة فى معارج الحضارة والمدنية ، تعيش على اللحوم . وكذلك الحال فى الانسان الهمجى الأول ، فانه اتخذ الصيد حرفة ، وكان من أكلة اللحوم . وكثيراً مانجد ان الانسان المتمدين ، تحت ضغط الظروف والحاجات الماسة ، يخلع ثوب المدنية ويرتد الى غريزة آبائه الاولين ، فيصبح قانصاً ، يصيد الحيوانات ليغتذى بها .

أما اليوم فقد أصبح استيلاد الانعام والعناية بتربيتها والقوامة عليها ، على القواعد العلمية ، فرعاً من علم الحيوان التطبيقى ـ أو الزولوجيا التطبيقية ـ أخذ الاهتمام بأمره يزيد على تتالى الايام . ولقد ظل الزارعون طوال تلك الازمان التى قنع فيها الانسان بتربية الانعام فى الممالك العريقة فى المدنية كفرنسا ومصر وأواسط آسيا وانجلترا ، عاكفين على القواعد التقليدية القديمة . ولقد كفتهم تلك القواعد الحاجة وسدت الضرورة من غير احتياج الى علم الزولوجيا . أما بعد ان بدأت ممالك حديثة فى المدنية تعالج مشكلة تربية الانعام الداجنة فى أراضيها وتحت مناخها الذى يختلف اختلافاً كبيراً أم يسيراً عن مناخ البلاد الاصلية التى تجلب منها تلك الانعام ، فقد أصبحت المعلومات الزولوجية ضرورة لايمكن الاستغناء عنها . ولما أصبح الاتجار باللحوم المقددة أو المبردة مورداً

غير ان هذه الطريقة عرضة لكثير من التحاديد الخطيرة النتائج .

قيل بانه اذا اعتل جزء تتأثر باعتلاله كل بقية الاجزاء . اى ان بقية الاجزاء لايمكن مع اعتلاله ان تعمل على صورة قياسية تامة . ولقد يتعذر عليك فى بعض الحالات ان تفصل بين التأثيرات الناتجة عن ضياع عمل كان يقوم به جزء خاص فى الجسم ، والتأثيرات التى ترجع الى قيام بقية الاجزاء بعملها على صورة خارجة عن القياس الطبيعى . غير أننا نجد فى فصائل الحيوانات التى هى أشد قرباً وصلة بالانسان ، أجساماً مركبة من نفس الاجزاء التى تتكون منها أجسامنا . والفرق ان تلك الاجزاء تختلف أحجامها نسبياً . فنجد أنه اذا ازداد حجم جزء من تلك الاجزاء ازدياداً كبيراً فان ضرباً من العمل الذى يقوم به الجسم يصبح مبالغاً فيه ، وأنه اذا انضمر جزء من الاجزاء انضماراً كبيراً ، فان ضرباً من العمل الجسمانى يكون على وشك ان يفقد بتاتاً . ويمكننا فى هذه الحال ان نستنتج ، وملؤنا الثقة ، ان هنالك علاقة غير مفصومة بين التركيب المبالغ فى حجمه وبين ما يحدث من فعل . وكذلك بين التركيب المبالغ فى انضماره وبين مايفقد من أثر . غير أننا فى علم الحيوان ، لا نعنى بالبحث الا فى عضويات حيوانية تعمل أجزاؤها متناسقة مؤتلفة تمام الائتلاف .

خذ لذلك مثلا بسيطاً . فان فى الجسم الانسانى حزمة من الالياف تصل بين العينين مارة من تحت المخ وتسمى عامياً « الوصلة البصرية » Optic Chiasma ويعتقد الباحثون ان الوظيفة التى تقوم بها هذه الالياف ، هى ان تركز العينين على شبح ما حتى تستبينه بدقة . ويقوم هذا الاعتقاد على حقيقتين : الأولى — ان الوصلة البصرية فى الاسماك التى تكون أجسامها نصلية الشكل ، سواء أقرب شكلها من النصل تماماً أم بعد عنه قليلا ، مفقودة البتة . وهذا ماننتظر ان يكون اذا صحت نظرتنا التى نرجح الاعتقاد بها فى حقيقة الوصلة البصرية ، لان هذه الحيوانات لامحالة تعجز أو هى لا تحتاج الى ان تركز عينيها الموضوعتين فى جانبى الجسم ، على شبح ما تحاول استبانته . والثانية — ان الوصلة البصرية فى الطيور الحشرية آكلة الحشرات Insectivorous insects تبلغ أقصى مبلغ من الكبر والنماء ، وهذا ماننتظر ان يكون فى طيور تضطر الى مطاردة فرائسها الصغيرة الطائرة من مكان الى مكان ، الحائمة من موضع الى موضع ، اذ يلزمها

من ان يملأ باخلافه كل بقاع الكرة الارضية فى زمان قصير . لان الحيوانات تتكاثر بنسبة رياضية تتضاعف بتضاعف عددالافراد المتناسلة . فقد حسب بعض العلماء ان طير الطاووس اذا فاز زوج واحد منه بان ينقف كل البيض الذى تضعه أنثاه عن أفراخ صغار ، وقدر لكل الافراخ التى تنسل عن هذا الزوج وعما تخلف هى بدورها من نسل ، ان يبلغ الى طور البلوغ ، وان تضع جميعها من البيض عدداً قياسياً على التوالى خلال ثمانية عشرة سنة فقط ، فان ذلك يكون كاف لانتاج عدد من الطواويس اذا وضع الواحد منها بجانب الآخر تلاصقاً كست سطح كرة الارض بما فيها البحار ، بل ويظل عدد منها حائماً فى الجو لايجد موضع قدم يقر فيه . بيد أنه لايجب ان نغفل عن ان فى عالم الحياة أنواعاً أخصب انتاجاً من الطاووس وأسرع تناسلا . فان نوعاً من الحوت Cod مثلا تبيض أنثاه أكثر من ٩٫٠٠٠٫٠٠٠ بيضة فى فصل واحد . وما من شىء فى هذا الوجود يمنع كل ما يمكن ان تحوى البحار من مواد الغذاء ان تتحول «بالابدال» Metabolism الى حيتان حية صغيرة فى مدى عام أو عامين ، لولا ذلك الهلاك البين الذى ينتاب صغار الحيتان كامناً بين أنياب أعدائها التى تتخذها بالافتراس طعاماً

ولا شبهة فى أننا نستطيع ان نقرب الموضوع من أذهاننا اذا مثلنا لكرة الأرض بسهل رحيب كسته الحشائش اليابسة ، ومثلنا للانواع التى تعيش فوقها باقباس من النار اشعلت فى ذلك الهشيم . فكل قبس من اقباس تلك النيران يحاول ان يمتد الى خارج حدوده التى اشعل فيها حتى يغشى كل جوانب ذلك السهل المتسع . غير ان انتشار كل منها محدود بانتشار غيره . وكذلك الانواع الحية فى الطبيعة .

ان السائر على شاطىء نهر «الكليد» يلاحظ وجود صائد للاصداف مكب على اقتناء غذائه . إنه طائر يغتذى فى أكثر الامر على الاسماك الصدفية التى تبقى معرضة للانظار عند الجزر . وهنا يقوم فى عقل الباحث ان يتساءل : كيف ان كل الصخور لم تتجرد من آهلاتها الصدفية بفعل هذا الطائر ؟ والجواب على هذا السؤال هو ان أفراخ صائد الاصداف يفترسها بدورها أعداء آخرون ، وبذلك يمتنع على هذا النوع ان يبلغ من الكثرة مبلغاً غير مرغوب فيه . وقد يحدث فى بعض الاحيان ان يهبط نوع من الحيوانات ـ أى أفراد منه ـ أرضاً جديدة ،

تجارياً ، زادت الحاجة الى علم الزولوجيا . فقد لوحظ ان اللحوم المبردة التي كانت تستورد الى انجلترا غالب ما تكون موشاة بندوب حلقية الشكل تسببها ديدان توجد حيث تظهر تلك الندوب . وهنالك بدأ الناس يتساءلون هل مثل هذه اللحوم مضرة بالانسان اذا اغتذى بها ، أم أنها ليست بذات ضرر ؟ ولم يكن لغير الزولوجيين أن يجيبوا على هذا السؤال . وكان جوابهم ان البويضات التي تبيضها تلك الديدان ، لابد من ان تمر خلال دور جوهرى من أدوار نشوئها الجنينى فى أجسام نوع من الذباب لايوجد فى انجلترا ، وبهذا يمكن ان يغتذى باللحوم الموبوءة بهذه الديدان من غير ان يحدث الاغتذاء بها ضرراً ما .

وكذلك الحال اذا عدنا الى البحار . فان البحار تزودنا بمقدار كبير من مواد الغذاء الحيوانية . ففى سنة ١٨٩٧ وجد ان مصايد الاسماك فى كندا على الرغم من سوء حالتها الادارية ، تنتج من مواد الغذاء ماهو أكبر قيمة مما تنتج سهول « مانيتوبا » الشهيرة من غلة القمح . ولقد تساءل الناس عما اذ كنا نستنفد الموارد التى تزودنا بها مصايد الأسماك ؟ فانه لما بدأ استعمال السفن التجارية الصغيرة المجهزة بالشباك الغائرة وهى أرقى وسائل الصيد ، علت الصيحة من جانب صيادى الاسماك الذين يزاولون حرفتهم على طول الشواطئ البحرية ، بأن نظراءهم إنما يجهزون بهذه الوسائل على المصايد ، لانهم يفسدون بيوض السمك ويفنونها . وهنا رجع الناس الى الزولوجيين مرة أخرى باعتبارهم المرجع الوحيد الذى يمكن ان يحكم فى هذا الاشكال حكماً مقطوعاً بصحته ، فوصلوا ببحثهم الى نتيجة حاسمة محصلها ان البيوض التى تبيضها أثمن الاسماك وأغلاها قيمة ، تمضى سابحة فى الماء ، وبذلك تكون بعيدة عن تأثير الشباك الغائرة التى جهزت بها سفن الصيد الحديثة . ولا شبهة فى ان علم الزولوجيا سيزيد تطبيقه فى المستقبل على المسائل العلمية التى تتعلق بما « تغل البحار » من المواد الغذائية .

غير أنى أرى ان أخطر مايؤدى اليه علم الزولوجيا من النتائج وفيه تنحصر أهميته الحقيقية ، مقصور على جهة أخرى من جهات تعاليمه الكثيرة . فاننا اذ نكب على درس حياة الحيوانات بشىء من العناية والصبر يأخذنا العجب بما نجد بينها من أوجه المنافسة والمغالبة التى تقوم بين كثير من أنواع الحيوان . فاذا قدر لنوع من الانواع ان يبقى كل ماينتج من نسل حياً ، فان هذا النوع لابد

هؤلاء المنافسين والاعداء على أتم أهبة وأكمل عدة لان يهاجموننا فى أجسامنا وتراكيبنا العضوية كما يهاجمون غلاتنا وأنعامنا . فان بعضاً من هؤلاء الاعداء الالداء الذين اعتادوا العيش سابحين فى دمائنا ، قد يثورون علينا ساعة ، فلا تنتج ثورتهم الاالالم والمرض والموت المحتوم . ولا يمكننا ان نتقى شرهم وندفع عنا غوائلهم ، إلا بان ندرس تاريخ حياتهم وكيفية نشوئهم وتطورهم الحيوى . فان بمثل هذا الدرس استطاع البيولوجيون فى أمريكا أن يجعلوا مقاطعة بوغاز « بناما » من أطهر بقاع أمريكا من الأمراض ، بعد ان كانت مقبرة الاوروبيين منذ أزمان بعيدة .

أما الناحية الثانية التى تعرض لذهن الباحث المفكر إذا ما لزم النظر فى التناحر على البقاء والمنافسة بين الاحياء فعلاقة هذا النظام الطبيعى بالسلائل البشرية . فما لا شك فيه ان عدد النوع الانسانى ظل مصدوداً عن الزيادة العددية عشرات الألوف من السنين بفعل أعداء غزوه من الداخل ومن الخارج ، بمثل ماحصل لعدد ذلك النوع من الطير الذى سميناه صائد الاصداف . ولكن الانسان فى خلال الالفين ، لا بل فى مدى المائتين ، وعلى الأخص فى الخمسين الفوارط من السنين ، قد بدأ يعرف كيف يتغلب على أعدائه وينتصر عليهم . وكانت نتيجة ذلك ان عدد السكان فى الامم المتمدينة أخذ يزداد بنسبة مزعجة ، خلقت للانسان كل أنواع المشكلات الاجتماعية . على ان طبيعة هذه المشكلات لا ينبوعها نظر الزولوجى الخبير ، ونتائجها تكاد تكون فى حكم الضرورات عنده . ولكنها بلا شك تكون من أغلق المسائل لدى الذين ندعوهم مفكرين عن غير ان يكون لهم المام بعلم الزولوجيا . ولولا اطلاع أهل هذا العلم على دقائق الطبيعة الحية لما سمعنا بان جمعيات (١) كثيرة قد علت صيحتها فى وجه الحكومة لتعنى بمسألة تغذية أولاد الفقراء من الاطفال ، أخذاً بيد أضعف طبقات الجمعية الانسانية ، ومساعدة لافرادها على التكاثر الذى يعود على الامم بالخير والعظمة . أما وقد عزمنا على أن نصد سير الطبيعة عن انتخاب الاصلح فى جمعياتنا الانسانية ، أى إهلاك الافقرين والاضعفين ، فلابد من ان نستبدل هذا النظام بنظام من الانتخاب يكون من وضع يدنا وننفذه باعيننا ، والا فلا شك فى أننا نكون غرضاً لما يصيب الرجال الذين وهت قلوبهم ووهنت عزائمهم ، فى الوقت الذى تدق فيه على أبوابهم أيدى المعضلات (٢) .

---

(١) نأسف اذ نقر بانه ليس عندنا شيء من أمثال هذه الجمعيات .
(٢) نعتمد فيما نكتب من هذه الفصول على الاستاذ مكبريد عضو المجمع العلمى البريطانى

فلا يجد فيها من أعدائه قوة تؤثر من اقلال عدده بنسبة كبيرة . واذ ذاك يتزايد عدد ذلك النوع تزيداً كبيراً ، فينتشر انتشاراً مروعاً يهدد بالزوال والانقراض كل صور الاحياء التي تكون قاطنة في تلك الارض من قبل . فاذا نجح في النهاية وبلغ هذه الدرجة ، فان هذا النوع بذاته يحدد بنفسه مقدار ما يمكن ان تبلغ اليه زيادته العددية أو ينتهي اليه انتشاره ، لانه عند بلوغه هذا الحد يستنفد آخر ما يكون لديه من مواد الغذاء . فان نوع الارنب الانجليزي عندما أدخل الى أوستراليا ازداد عدده ازدياداً كبيراً تعذر معه على الماشية ان تجد في المراعي ماتقتات به ، فاضطرت الحكومة الى تخصيص مبلغ كبير من المال ينفق كل سنة متخذة به كل الذرائع التي تقف بها سرعة انتشاره وتصده عن التكاثر .

ولهذه الحقائق أهميتها من ناحيتين : الأولى : أن الانسان المتمدين يلجأ استيفاء لحاجاته الى تربية قطعان وافرة العدد من بضعة أنواع داجنة ، والى انتاج محصولات كبيرة بازدراع بضعة أنواع من النباتات . ووجود مثل هذه القطعان الغفيرة من الافراد التابعة لنوع واحد ، المحشورة في بقعة ضيقة من فضاء الأرض ، أمر نادر الحدوث في الطبيعة . وما تكون هذه القطعان أشبه بشيء الا بحزم القش والهشيم أخذتها النيران ، اذا هي غزاها عدو منافس قدر له النجاح وكتبت له الغلبة . وكيف يمكن للانسان ان يحمي نفسه من عدو مثل دودة اللوز القرنفلية (١) اذا غزت حقول القطن التي يزرعها ؟ أما أمثل جواب يجيب به علماء الحشرات – الانتومولوجيون – Entomologists فلا يخرج عن الآتي : — « إن أقوم طريق يمكن ان يسلك لمواجهة مثل هذا الاشكال هو درس عادات الحشرة المعادية وتاريخ حياتها . فان مثل هذا الدرس لابد من أن يؤدي بنا الى معرفة أضعف ناحية من نواحي ذلك العدو ، فنهاجمه فيها وننتصر عليه » . إذن فالعلم بدقائق الزولوجيا ضروري لحماية مزروعاتنا وقطعان أنعامنا . والا فكيف يمكننا أن نحميها ؟ ألسنا نحن بذواتنا عبارة عن نوع من أنواع الحيوان يصعب علينا ان نحتفظ بحقنا في الحياة الا بخوض معركة حامية الوطيس من التناحر على البقاء ازاء كثير من المنافسين والاعداء ؟ بل ونزيد على هذا ان

---

(١) هذه الدودة عبارة عن يرقة حشرة من الحشرات تدعى في اللسان الحيواني هليوثس ارميجيرا Heliothis Armigera

دون متناول حواسنا فلا سبيل لادراك وجودها الا بمشاهدة الآثار التى تتولد عنها . ولازدياد ادراكنا لاهميتها فى النظام الحيوى كان الخطر كل الخطر فى امتصاص جو بلادنا الصناعية ـ انجلترا ـ المشبع بالدخان لهذه الاشعة . والنور فوق البنفسجى سريع الانتشار ، ولذا نكتسب مقداراً هاماً منه من انعكاس الضوء من السحاب ومن الثلوج والماء فى المناطق التى يتوفران فيها .

إن النوع الانسانى يتأثر تأثراً خاصاً بالضوء ، اذ أن تأثير الضوء الشفائى المنعش لايخفى على أضعف الناس مشاهدة . وآية ذلك المرح والانتعاش اللذان يعقبان التعرض له ، ورد الفعل السريع الفعال فى صحة الاجسام الناشىء عن رياضة البدن فى يوم أشرقت شمسه وطاب هواؤه . بيدان هذا الانتعاش الناشىء عن التعرض للضوء قد ينقلب الى خمول وتعب واسترخاء اذا طال أمده فوق الحد الواجب . وقد ثبت بالمشاهدة والتجربة ان الانتعاش والتقوية التى يكتسبها الجسم بتعرضه للضوء تسرى الى العقل فتبعث فيه النشاط والحياة متى كان ذلك بقدر وقصد . وهذه الحقيقة لها خطرها فى التربية . ومن ثم كان لتهوية الغرف وحسن اضاءتها شأن عظيم . إن كثافة زجاج النوافذ العادى كبيرة بحيث لا ينفذ منها الضوء فوق البنفسجى وهذا أمر يبعث على التفكير فى استعمال الزجاج المعروف بزجاج « فيتا » وخاصيته الخطيرة تنحصر فى نفوذ كمية كبيرة من الضوء الفوق البنفسجى المستمد من ضوء الشمس الى ماوراءه . ويجب ان لا يعزب عن البال أن تأثير الضوء الفوق البنفسجى فى الاجسام الحية يتوقف على مقدار سطح الجلد المعرض له . لان قوة سريان هذا الضوء فى الجسم ضئيلة بحيث لا تمتص فى الجسم الا الامواج الطويلة منه وهذه أقل الامواج فائدة فى الشفاء .

إن فعل هذه الاشعة فى كيان الجسم الحى لاشك عائد الى التأثير الناشىء فى الجسم الذى تنفذ اليه ويمتصها ، وهو تأثير على الرغم من أن طبيعته لا تزال مجهولة لدينا الى الآن ، فان العلماء قد بدؤوا يقفون على حقيقته تدرجاً . والتعرض لمصدر ملائم من مصادر الضوء فوق البنفسجى يعقبه احمرار فى الجلد . وينجم عن ذلك الاحمرار أو الالتهاب السطحى اكساب الدم مؤقتاً قوة جديدة تمكنه ، كما تحقق العلماء أخيراً ، من قتل الكائنات التى تفرز السموم . ويعقب ذلك رسوب المادة الملونة فى الجلد ، ومقدارها راجع لقدرة الفرد على انتاجها .

العلاج بضوء الشمس

تأثيره فى النفس — خطر التعرض الكثير

(للسر هنرى غوفين)

أن ضوء الشمس عامل ذو خطر كبير فى منع الداء ووقف سريانه ، فضلا عن أنه من الحاجيات الحيوية لجميع الاحياء وعلى الاخص للاطفال الآخذين فى أسباب النمو . ولولا ضوء الشمس لما دبت فى هذا الكون حياة ، اذ هو احدى الدعائم التى تقوم عليها ، كالهواء والغذاء والماء وبداهة ضرورته هى التى تحجب عنا التفكير فى أهميته . ولقد كان الانسان فى العصور الأولى يعبد الشمس كما كان يعبد مصادر القوة الأخرى . وسجلات التاريخ تحوى أمثلة من العلاج الشمسى ولو أنه كان فى ماضى بطريقة غير منظمة . ولم تتوجه العناية الى درس المزايا الحيوية للضوء دراسة علمية الا حديثاً ، حيث استخدم بطريقة نظامية عملية لحفظ الصحة ومنع الداء وشفائه . إذا مرت أشعة الشمس خلال عدسة موشورية تحلل النور الابيض الذى تتكون منه الى أشعة تظهر فيها ألوان قوس قزح حيث تتدامج الالوان بعضها فى بعض . وتميز هذه الاشعة بالحمراء والبرتقالية والصفراء والخضراء والزرقاء والبنفسجية ، وهى تكون موشور طيف الشمس المعروف . ولا ترى العين سواها اذ تحدث اشعاعات عند كل من طرفى الموشور الضوئى . وهناك أشعة يطلق عليها اسم « دون الحمراء » تدركها الحواس بالحرارة التى تنشأ عنها . وأخرى تسمى « فوق البنفسجية » ويستدل عليها بتأثيرها الكيماوى ، ويطلق عليها عادة اسم الاشعة « الأكتينية » . ولهذه الاشعة الأخيرة أعظم تأثير بيولوجى ، ولذا كان لها قيمة وشأن خاص .

الاشعة فوق البنفسجية

لهذه الاشعة أثر خطير فى حياة النبات والحيوان اذ تمتصها الفضلات الجوية غير النقية كالغبار والدخان ولا تمر من الزجاج العادى الذى يمتصها . ولما كانت

الا لمن يقوى على رد الفعل الذى تستلزمه هذه العوامل والمؤثرات . أما الاطفال النحفاء والذين سبق لهم الاصابة بالتدرن الرئوى ، فان العلاج المنتظم المدرج باشعة الشمس يفيدهم أجل فائدة فضلا عن جليل فائدته فى النقة من عدة أمراض معدية.

التدرن الرئوى

وفى بعض الامراض المزمنة أتى علاج ضوء الشمس بفائدة عظيمة فى تعجيل الشفاء . وأهم هذه الامراض هى ما يطلق عليها اسم أمراض التدرن الرئوى ، اذ ان تطبيقه فى علاج التدرن الرئوى تحفه بعض الاخطار التى تذهب بصلاحيته الا فى بعض الحالات المشخصة تشخيصاً دقيقاً . وفى هذه يجب مراعاة الحذر المتناهى . أما فى التدرن الخبيث (الذى يتطلب العلاج الجراحى) فالعلاج بالضوء ذو فائدة مقررة لا شك فيها إذ يساعد على تعجيل الشفاء . ففى علاج العظام المتدرنة يساعد كثيراً فى اعادة التكليس (المادة الجيرية) ويظهر أثره كذلك فى الغدد المريضة . وكثيراً مايشفى التدرن التقرحى . وفى حالات الجروح المصابة بالتسمم ، يساعد على الشفاء ، اذ تتغير طبيعة التقيح ويتغير لون الجروح وتشفى دون ان تترك ندوباً . ولقد ظهرت فائدة العلاج بضوء الشمس ظهوراً واضحاً فى علاج الامراض الناشئة عن فقر التغذية وأخصها الكساح ، اذ يحصل الشفاء دون الحاجة الى تغيير نوع الغذاء . وقد تقف صدمة المرض الاولى بتعريض المصاب للاشعة فوق البنفسجية . وقد ظهر بالتجربة ان تعريض الطعام لهذه الاشعة يكسبه خاصية التغلب على الكساح .

الامراض الجلدية

للعلاج بالضوء أثره النافع فى بعض الامراض الجلدية وأكثر مايكون نفعاً فى عدوى التدرن الجلدى . وخير علاج لهذه الحالة هو الجمع بعناية ودقة بين التداوى الموضعى والعام بالضوء الفوق البنفسجى ، ويمكن علاج بعض حالات الصلع وكذلك الربو وعرق النساء . وفى عجالة كهذه لا يتيسر ذكر جميع الامراض التى يمكن علاجها بضوء الشمس. بيدان فائدته محققة بلاريب فى الاشخاص الذين فيهم استعداد للاستفادة منه . لكن هنالك شروط لتنظيم هذا العلاج تحتم ان

ومن ذلك يتولد اكتساب البشرة لذلك اللون البرونزى المعروف . والجلد المكتسب لهذا اللون له قيمته وشأنه فى الوقاية من مضار الافراط فى التعرض للضوء ، فضلا عن مزايا أخرى قد تكون مجهولة لدنيا الآن .

التغييرات الكيماوية : وتحدث فى نفس الوقت تغييرات فى تركيب الدم الكيماوى وفى تكوينه . فتزداد التفاعلات الكلسية (الجيرية) والفوسفورية والحديدية وتتغير الكمية النسبية للخلايا فى دورة الدم وذلك تبعاً لمدة التعرض للضوء ولاستعداد الشخص الذاتى .

والواجب أن لايقوم بهذا العلاج سوى الاطباء الواقفين على سر هذه التغييرات وآثارها . اذ أن الفوائد التى يجنيها ذو الجسم السليم أو الطفل المعالج بعناية وانتظام أثناء الرياضة على شاطئ البحر قد تنقلب ضرراً بالغاً عند المرضى وضعاف الاجسام اذا لم يستعملوا الحيطة والحذر فى العلاج .

أن للأشعة المرئية للعين قوة تنفذ فى الجلد ومنه تمتصها قنوات الدم تحت الجلد حيث تتحول طاقتها الى حرارة وهذا التأثير الموضعى الناشئ فى الدم عن الحرارة مفيد ماأحسن استخدامه . بيد ان المغالاة فيه ، كاستعماله بلا حيطة أو حذر فى المناطق الاستوائية ، قد يحدث ضربة الشمس . وهذه تنشأ عن تسخين المخ تسخيناً موضعياً فوق الحد المطلوب . اد أن الأشعة المرئية تنفذ بسهولة الى فجوة الجمجمة متى كانت الرأس عارية عن الوقاية . ولذا كان من الاهمية بمكان تغطية الرأس ووقايتها وقت الحر . ولما كان الماء يمتص الاشعة دون الحمراء بسهولة فهذه تحدث التسخين السطحى بسرعة ، ويتولد عن ذلك احساس باللسع على الجلد لدى تعرضه للشمس . وباختصار متى كانت المعالجة باشعة الشمس منظمة محكمة ، فهى مفيدة لتأثيرها المقوى المنعش للجسم والعقل .

وفضلا عن ذلك فهى عنصر فعال فى الشفاء من الامراض المنهكة للقوى عند ضعاف الاجسام اذ تعجل النقه . ومتى اقترنت باستنشاق الهواء البليل البارد كانت ذات فائدة قصوى فى زيادة قوة الجسم وقدرته على العمل . وبزيادة الاوكسيجين فى الدم تعوض عن الحرارة التى فقدت بالاشعاع من الجسم المتعرض للشمس . فضلا عن تجديد الانسجة ، وهذا يتطلب تنشيط حركة الهضم وشحذ الشهية لزيادة تمثيل Assimilation الجسم للغذاء . ولذا لايفيد هذا العلاج

الضوء الصناعي : قد جعلت الاحوال الجوية من المستحب الاستعاضة عن ضوء الشمس بضوء مستمد من مصادر صناعية أو تكميل النقص فى كميته . بيد أن من سوء الحظ انه لم يستنبط للآن ضوء صناعي يقوم مقامه تماما فى القوة و بعد الاثر . ومع ذلك فلدينا الآن من وسائل الضوء الصناعي ما ينتج الفائدة الشفائية الكبرى خصوصاً فى علاج الامراض ، خصوصاً فى علاج الامراض الجلدية السطحية حيث أن الارشادات التى وضعها «فنس» فى هذا الصدد أتت بفوائد موضعية جليلة ويمكن العلاج «بحمامات» الضوء من مصابيح قوسية تضاء بالكربون أو غيره كمصابيح البخار الزئبقي وهى مصدر غنى بالاشعاع الفوق البنفسجي ذى موجة اقصر مما فى الطيف الشمسى ، ولكن فائدته الشفائية عظيمة . والضوء المستمد من هذه المصابيح يقال عنه غالباً الضوء الصناعي . وهناك مصدر غنى جداً بالاشعة فوق البنفسجية وذلك هو قوس تونجستن ، ويظهر انه فعال فى علاج حالات عديدة . وقصارى القول أن العلاج الضوئى ذو مزايا شفائية جليلة وقد يكشف لنا المستقبل عن فوائد أخرى لم تدرك بعد(١). م . ر

هكم

قال شاعر — :

وانى لعف عن مطاعم جمة   اذا زين الفحشاء للنفس جوعها

وقال هكسلى — :

خير للانسانية أن يقضى عليها مذنب ضال فى الفضاء يصدم الارض صدمة العدم والفناء اذا عجزت المعارف الانسانية عن تهذيب الاخلاق وصقل النفوس بالفضائل

---

(١) مفى الكتاب يستعملون اصطلاح فوق البنفسجة ودون الحمراء للاشعة المستمدة من ضوء الشمس . فهل هناك مانع من حذف حرف واحد من كل من الكلمتين ونصطلح على تسميتها بالاشعة الفوبنفجسية والدوحمراء فيصبحان اصطلاحين كل منهما يتكون فى كلمة واحدة فنقتصد بذلك في الفراغ والنطق ونضع بذلك مصطلحات تصقل مع الزمان وتقبل في الاستعمال العلمى مع التكرار ؟

لايجرى الابارشاد الطبيب اذ ان نتيجة العلاج مرضية ناجحة فى حالات عدة ، حتى أن الكثيرين يقبلون عليه طمعاً فى النجاح الذى يشاهدونه فى غيرهم من المرضى أمثالهم ، حتى ولو لم يكونوا ذوى استعداد للعلاج بالاشعاع الشمسي . وهذا الخطر محقق عند رجال الطب ، ولو لم تدركه العامة من الناس .

رياضة الصيف : وبينا نشاهد ان العلاج باشعة الشمس مفيد للضعفاء والمرضى اذا بنا نجده أجدى وأنفذ فى الاصحاء والاقوياء . فان كثيراً من منافع الرياضة الصيفية انما يعود الى التعرض لاشعة الشمس والهواء الطلق . ولا يمكن ان نغالى فى تبيان فوائد « الحمامات الشمسية » للاصحاء المنهوكى القوى من العمل . اذ أن انبعاث الأشعة الفوق البنفسجية يزداد بالضوء المنعكس من البحر ولان الاستحمام فى البحر سواء أسبق التعرض لضوء الشمس أم أعقبه فانه مفيد كل الفائدة . الا أنه يجب تجنب الاطالة فى البداية خصوصاً لذوى اللون الاشقر . والفائدة كل الفائدة فى التدرج من بضع دقائق الى نصف ساعة كل يوم حتى تكتسب البشرة اللون البرونزى المعروف .

وفوق ذلك فالاحمرار والفقاقيع التى تطفح على الجلد من طول التعرض ضاران بالجسم ويجب على من يستحم بضوء الشمس الفياض ان لايشعر بحرارة أو برودة متزايدتين بل الحالة المستحبة الواجبة هى الاحساس بالنشاط والانتعاش . أما الانهاك والتعب والسآمة ودوار الرأس فهذه علامات الافراط فى التعرض وفى هذا الصدد يجب ان يسن كل فرد قانوناً لنفسه ، وان احساساته لاصدق دليل له . أما الممعودون فلا يجب ان يتعالجوا بالضوء الا وفق اشارة الطبيب . على ان الفائدة التى تكتسبها صحة المرء من التريض لتزداد زيادة عظمى من تعريض الجسم تدريجياً لاشباعه بالهواء الطلق وضوء الشمس . كما ان الصغار وهم فى سن التلمذة يستفيدون كثيراً فى عطلتهم الصيفية من برنامج محكم يضمن للائقين منهم الاستفادة من هذا العلاج فى فترات متقطعة ، اذ لو استعمل باستمرار كان فى ذلك مضيعة لكثير من فائدته . وليست أكثر المناطق شمساً هى الافضل فى هذا الميدان لأن العلاج الشمسي أجدى فى الاجواء المعتدلة منه فى المناطق الاستوائية ، حيث تجعل الحرارة البالغة العلاج ضاراً وبلا جدوى

قال لوثر فى رده على كوبرنيكوس: « يصغى الناس الى منجم مأفون يحاول أن يثبت أن الارض تدور ، وليس كذلك السماوات والافلاك والشمس والقمر . ولاجرم ان كل من يريد أن يحوز شهرة اللباقة والنهى ، يحاول أن يبث مذهباً جديداً زاعماً أنه أصح المذاهب وأصدق الحقائق . غير أن هذا الممسوس يريد اليوم أن يقلب قواعد علم الفلك رأساً على عقب ، فى حين أن نصوص الكتاب المقدس تدل على أن « يوشع » قد أمر الشمس أن تقف ، ولكنه لم يأمر الارض »



مارتن لوثر — عن نسخة قديمة نادره
١٤٨٣ — ١٥٤٦

أما ميلانكوتون ، فانه لم يقتف خطوات لوثر ، فكان أكثر وداعة والين عريكة . فقال فى كتابه المعروف « عناصر الفوسيقى » والذى طبع بعد موت كوبرنيكوس بستة أعوام مانصه :

« انا بصارنا نشاهد السماوات تدور فى مدى أربعة وعشرين ساعة . غير أن ناساً دفع بهم حب التبشير بالجديد ، قد أذاعوا أن الارض تتحرك ، وأن ليس كذلك الفلك الثانى ولا الشمس . أما اذاعة مثل هذه المبادىء علناً ، و بثها فى الناس عياناً ، فليس من سمو الهمة ولا من الامانة فى شىء . لان ذلك يعطى الناس مثلا خطراً مبغوض النتائج . والواجب على من يطلب الخير وينشده ، أن لايحيد عن الحق كما انزله الله فى كتابه ، وان يخلد له »

ومضى ميلانكوتون بعدذلك ذاكراً مقطوعات من المزامير والمتون الكنسية رأى أنها تؤيد بجلاء وصراحة مذهب أن الارض ثابتة تماما وان الشمس تدور من حولها ، مضيفا الى ذلك ثلاثه براهين أخرى أيد بها زعمه مستخلصاً منها : « ان الارض لايمكن أن تكون فى مكان مالم تكن فى وسط الكون » وأمعن بعد ذلك فى القول بانه من الواجب أن تفرض عقوبات شديدة تصد الذين يريدون أن يبشروا للناس بتعاليم كوبرنيكوس عن تبشيرهم ، وتزجرهم عن غيهم .

تهم الهرطقة

يرثها القرن العشرون عن العصور الوسطى

شهد العالم منذ أربعة قرون بدء معركة حامية الوطيس بين الدين والعلم . وعلى أن المعركة فى الواقع كانت بين صور اللاهوت المذهبى وبين العلم ، لا بين الدين والعلم ، فان فئة من أشهر كتاب القرن الماضي وعلى رأسهم العلامة درابر فى أمريكا والعلامة ليكى الايرلاندى فى أوروبا ، قد مضوا يعبرون عن المعركة بانها معركة بين الدين والعلم ، حتى ظهر كتاب العلامة الكبير جون ديكسون وايت فاظهر ان النضال لم يقم بين الدين والعلم ، وانما قام بين صور اللاهوت المذهبى وبين العلم .

ولقد انصرف كثير من الكتاب فى نهاية القرن التاسع عشر يحملون الكنيسة الرومانية تبعة كل ما يرويه التاريخ من وقائع هذا النضال الكبير ، ويعزون اليها السبب فى صد خطى العلم . كأنه لم يقم بجانب هذه الكنيسة كنيسة أخرى ، هى الكنيسة البروتستانتية ، كان لها من الاثر فى مقاومة العلوم الحديثة ما لا يقل عن غيرها من الكنائس . والحقيقة أن تاريخ النصرانية يقص علينا من الوقائع ما يساوى عند المؤرخين بين مسئوليات الكنائس المختلفة ازاء هذا الامر . على أن كل ما فى استطاعتنا أن نقول هو أن الصراع مع الدين ميراث ورثه لوثر واتباعه عن أساطين الكنيسة الرومانية وقديسيها الذين ظهروا منذ أبعد عصور النصرانية حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

لما أظهر غاليليو ما فى نظرية كوبرنيكوس من حق ثابت ، وأظهر للمنكرين من خلال المنظار جبال القمر وكلف الشمس وأوجه الزهرة ، أخذت الكنيسة الرومانية الامور فى يدها وعهدت الى محاكم التفتيش بان ترد الهرطوق عن غيه وان ترجعه الى حظيرة الكنيسة ، لا بالبرهان ولا بالدليل ، ولكن بالمخلعة والسندان وغيرهما من آلات العذاب التى لم يكن لدى الكنيسة سواها من وسائل للاقناع طوال القرون التى احتكمت فيها مذاهب اللاهوت فى النفوس والعقول . غير أن هذا لم يقعد لوثر وأتباعه عن أن تتحرك أقلامهم بما يزيد النار ضراما والعقول خبالا .

ولم يلك رينولدباسعدمن زميله حظاً. فانه فضلا عن اقتناعه وايمانه بصحة المذهب الجديد ، كان مقسوراً على أن يدافع عن المذهب القديم الفاسد ، وان يلقنه لطلبته ، وكان مجبراً على ان لايذكر الفكرات الكوبرنيكية ، الا لينصر عليها فكرات بطليموس . على أنه لم يكن بذلك فى مأمن من أن يناله الأذى والكفران. فقد عهد بتدريس علم الفلك فى تلك الجامعة بدلا عنه الى أستاذ غيره يدعى بيوسر وذلك فى حدود سنه ١٥٧١ . وقد أعلن حينذاك ان فى هذا الاستاذ الجديد من حسن التقدير ورجاحة العقل قدراً حمله على ان يرفض نظرية كوبرنيكوس معلناً فى محاضراته أنها « مناقضة لبديهة العقل وغير جديرة بان تلقن فى معاهد العلم » . ومن أجل أن تصبح تلك الفكرات اللاعلمية أكثر استقراراً فى التعاليم التى كان يذيعها البروتستانت فى ألمانيا ، وضع الكاهن هنسل مختصراً يدرس فى دور العلم عنوانه « الرجوع الى النظام الموسوى فى أصل الكون » أظهر فيه ان مبادئ كوبرنيكوس الفلكية مناقضة لنصوص الكتاب المقدس .

ولا شبهة فى ان هذه الحملة الكبيرة كان لها أثر بعيد . غير ان صداها مازال يتجاوب فى حقب الزمان حتى انتهى الى البروتستانتية الحديثة حيث رن صداها ثانية فى طرد السلطات المشيخية لدكتور «وودرو» فى كارولينا الجديدة ، وفى طرد السلطات العهادية للاستاذ « توى » فى كنتكى ، وفى طرد الاساتذة من جامعة بيروت الامريكية تحت تأثير السلطات البروتستانتية . وكل هذا وقع فى بضع السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر .

***

من بين الكتب التى ظهرت بارشاد الكنيسة الرومانية بعد ادانة غاليليو أمام محكمة التفتيش رامية الى اقتلاع جذور النظرية الكوبرنيكية من عقول الناس ، نختار كتابين نتخذهما مثالا للآراء اللاهوتية وعظة نتقى بها تحكم الروح الدينية فى وضع برامج الجامعات . الاول كتاب خطته يراعة «سيبيو شيارمونتى» وأهدى الى الكردنيال « بربرينى » ومن بين البراهين التى أقامها ضد دوران الأرض نذكر البرهان الآتى :

« للحيوانات التى تتحرك أطراف وعضلات . أما الأرض فليس لها أطراف ولا عضلات . فهى على ذلك لاتتحرك . أنها الملائكة التى تحرك زحل والمريخ

ولم يقتصر الامر على لوثر وميلانكوتون ، بل شايعهم فى ذلك كثير من شعب الكنيسة البروتستانتية . فان كالفن قد تبوأ بكتابه « تعليقات على سفر التكوين » مكان الزعامة من هذه الشعبة فى الحملة على كوبرنيكوس وأشياعه ، وأعلن كفران كل من يقول بان الارض ليست فى مركز النظام الكونى . وبعد أن عمد الى المزامير يستدر وحيها مستنداً الى مقطوعات أخذها عن المزمور التاسع والثلاثين تساءل : « من من الناس يجرؤ عن أن يضع سلطة كوبرنيكوس فوق سلطة الروح القدس . »

وعلى هذا الرأى كان « تريتان » خليفة كالفن المعروف . فانه أذاع ، حتى بعد أن مكن كبلر ونيوتن لنظريات كوبرنيكوس وغاليليو وأنمياها ووضعا لها قواعدها الثابتة التى لاتزول ، مختصره اللاهوتى ، محاولا أن يثبت ، مستعيناً بكثير من نصوص الكتاب المقدس ، ان السماوات والشمس والقمر انما يدرن من حول الأرض ، التى هى ثابتة فى مركز النظام الكونى .

وأنك لتقع فى انجلترا على مثل هذا الجهد اللاهوتى ، حتى بعد ان اثبتت التجاريب أنها جهود بائرة لا نتيجة لها . فان هتشنسون فى كتابه « مبادئ موسى » ودكتور « صموئيل بيك » فى كتابه « الفلسفة المقدسة » وهورن والاسقف هورسلى والرئيس فوربس فى كتاباتهم الكثيرة ، قد قاوموا مبادئ نيوتن كل مقاومة ، بل هاجموها مستعينين على نقضها بنصوص من الكتاب المقدس . وكذلك دكتور جون أوين وهو علم من أعلام المذهب البيوريتانى ، فانه أعلن ان نظام كوبرنيكوس ليس باكثر من « خيال وفرض مناقض لنصوص التنزيل » . ولم تعد هذه القاعدة « جون ويسلى » فانه أعلن ان الآراء والمبادئ الفلكية الجديدة « انما تسوق الى الكفر والالحاد . »

فى أواسط القرن السادس عشر عاش فى « ويتنبرج » مركز الدعاية البروتستانتية ، فلكيان حاز كلاهما شهرة واسعة وصيتاً بعيداً ، هما ريتيكوس ورينولد ، وكلاهما درس مذهب كوبرنيكوس واعتقد بانه حق ، ولكن لم يسمح لهما بان يلقنا ذلك الحق الثابت لطلابهما . فلم يستطع ريتيكوس ، لا فى محاضراته ولا فى مؤلفاته التى نشرها ، أن يذيع المذهب الجديد . ولما ضاق بذلك ذرعاً ، ترك منصب الاستاذية فى ويتنبرج حتى يتاح له أن يبحث حراً وراء الحقيقة ، وأن يذيعها .

فوق الأرض ، وما دامت الحركة الدائرية تستلزم وجود شيء ثابت من حوله تحصل الدورة ، إذن فالارض ثابتة في وسط النظام الكوني . »



بطليموس الفلكي — بدأ ابحاثه بالاسكندرية سنة ١٢٧ وختمها سنة ١٥١ بعد الميلاد

على هذا كان رأى الكنيسة الرومانية ازاء غاليليو . على ان الكنيسة البروتستانتية لم تكن باقل نشاطاً وحذقاً في مقاومة المبادئ الجديدة في علم الفلك من الكنيسة الرومانية . فان العلم المقدس الذي وضع أصوله أول المصلحين من اتباع لوثر قد انتقل الى الاجيال التالية كاقدس ميراث وأثمن تراث ، ولم يزد في القرن الثاني الا قيمة وتقديساً ، وعلى الاخص بتأثير كالوفياس ، فان سعة علمه وصلابته المستمدة من روح الكثلكة ، قد عقدت له لواء الزعامة على اللوثريين . غير أنه رفض كل رفض ان ينزل على حكم العلم الصحيح والحقائق الثابتة فلجأ الى اللاهوت مستنداً الى القول الذائع في رجوع الظل على مزولة الملك حزقيا (١) . وفي وقوف الشمس ليوشع ، منكراً دوران الارض ، نافياً كل ماظهر من آيات العلم الحديث ، على اعتبار أنها مناقضة للتنزيل . وحتى اليوم —

(١) «في تلك الايام مرض حزقياً الملك للموت فجاء اليه أشعياء بن آموص النبي وقال له : هكذا يقول الرب . أوص بنيك لانك تموت ولا تعيش . فوجه حزقياً وجهه الى الحائط وصلى الى الرب وقال : آه يارب اذكر كيف سرت أمامك بالامانة وبقلب سليم وفعلت الحسن في عينيك . وبكى حزقياً بكاء عظيماً . »

« فصار قول الرب الى أشعياء اذهب وقل لحزقيا . هكذا يقول الرب آله داود أبيك . قد سمعت صلاتك . قد رأيت دموعك . هانذا أضيف الى أيامك خمس عشرة سنة . ومن يد ملك أشور أنقذك وهذه المدينة . وأحامى عن هذه المدينة . وهذه لك العلامة من قبل الرب ، على ان الرب يفعل هذا الامر الذى تكلم به . هأنذا أرجع ظل الدرجات الذى نزل في درجات آحاز بالشمس عشر درجات الى الوراء . فرجعت الشمس عشر درجات من الدرجات التي نزلتها . » — عن الاصحاح الثامن والثلاثين من سفر أشعياء .

والشمس وغيرها في دورتها . فاذا كانت الارض تدور ، فينبغي ان يكون لها ملك في مركزها يدفعها الى الحركة . ولكن لايأوى في مركز الأرض الا الشياطين . فلابد من أن يكون شيطان ذلك الذى يعطي قوة الحركة للارض . »

« ان السيارات والشمس والاجرام الثوابت انما تتضمنها فصيلة واحدة ، هي فصيلة النجوم . وظاهر أنه من الخطأ الفاحش أن توضع الارض ، وهي مباءة القاذورات ، بين تلك الاجرام السماوية ، التي هي أشياء قدسية نقية طاهرة »

أما الكتاب الثاني فكتاب « بولاكو » المسمى « الكاثوليكي ضد كوبرنيكوس » وقد أراد فيه كاتبه أن يوجه لهرطقة غاليليو سهماً مسدداً فقال :

« ينص الكتاب المقدس دائماً على ان الارض ساكنة ، وان الشمس والقمر ماضيان في حركتهما . ولكن اذا رأينا يوماً أنهما ثابتان لايتحركان ، فان الكتاب المقدس ينص على ان ذلك إنما يكون لمعجزة كبرى . »

« أن هذه الكتابات يجب أن تحظر حظراً باتاً ، لانها تبشر بمبادئ في موقع الكرة الارضية ودورتها تناقض نصوص الكتاب المقدس ، وتنافى التفسير الكاثوليكي لتلك النصوص ، وتزعم بان هذه المبادئ حقائق لامجرد فروض تخيلية »

ولما أراد ان ينقض الحق الجديد ببراهين مقتطعة من المشاهدات الطبيعية قال :

« اذا سلمنا بان الارض تتحرك ، لما أمكننا ان نعلل السبب في ان سهماً يطلق عمودياً في الهواء يعود الى الهبوط في نفس المكان ، بينما تكون الارض وكل ماعليها ، حسب التعاليم الجديدة ، مندفعة في الوقت نفسه بسرعة فائقة ، متحركة نحو الشرق . ومن ذا الذى لايرى ان فوضى عظيمة في نظام الاشياء من اللازم ان تترتب على مثل هذه الحركة . »

ولما عمد الى الغيبيات الفلسفية قال :

« إن حركة الارض حسب نظرية كوبرنيكوس أمر مخالف لطبيعة الارض ذاتها . لانها ليست فقط متبردة صلبة ، بل أنها تحوى في عناصرها طبيعة البرودة أيضاً . ولا خفاء ان البرودة تقاوم الحركة ، بل أنها تمنعها بتة ، كما هو الظاهر في الحيوانات ، فانها تعجز عن الحركة إذا بردت . »

ولما رجع الى أسلوب التفكير اللاهوتي قال :

« مادام في مكنتنا ان نثبت من نصوص التنزيل ان السماوات تتحرك من

آمريكا خلال العام الفارط ولماذا طرد الاستاذ سكوبس من جامعة من أشهر جامعات الدنيا الجديدة لانه بشر لتلاميذه بنظرية النشوء والارتقاء .

***

من بين مجموعة النقوش الكاتدرائية التى تعبر عن كثير من حقائق اللاهوت فى القرون الوسطى ، نقش يمتاز بالتعبير عن مذهب لاهوتى فى أصل الكون ، ظل موضع الاحترام والاجلال أزماناً طوالا .

الواحد القهار فى صورة بشرية جالس بوداعة ولين ، يصنع الشمس والقمر والنجوم ، ويعلقها فى القبة الصلبة التى تحمل من فوقها السماوات العلا ، وتظلل الأرض السفلى .

أما علائم التفكير الظاهرة فى تقطب جبينه فتنم على أنه أجهد نفسه امعاناً فى التدبر والاستبصار ، كما يدل انتفاخ عضلات ذراعيه على أنه قد اضطر الى أن يكد وينصب . ومن الطبيعى ان يكون المثالون والمصورون خلال القرون الوسطى ، وفى بدء العصور الحديثة ، قد عمدوا الى تمثيله على مقتضى ما تصوره كتاب ذلك العصر ، اذ كانوا يقولون بانه استراح فى اليوم السابع واضطجع فى هدأة ، مصغياً الى تراتيل الثناء التى زفتها اليه سكان السماء .

ومن حول هذه الفكرات العتيقة التى فاضت بها الكنيسة ، وفى غيرها من الآراء التى عبرت عنها النقوش والصور وتلوين الزجاج وزخارف الفسيفساء والحفر خلال العصور الوسطى ، وقرنين فرطاً من بعد تلك العصور ، تكثفت نواة من الاعتقاد كانت قد أخذت تتكون خلال ألوف من السنين ، ومضت محتكمة فى كل ما أبرز العقل الانسانى من صور الفكر حتى نهاية القرن التاسع عشر .

أما بدايات ذلك الاعتقاد فترجع الى أعرق عصور التاريخ الانسانى قدماً . فاننا نجدها فى بدايات كل مدنية من المدنيات العظمى . بيد أنها شغلت فى كل الكتب المقدسة التى ذاعت فى نواحى العالم ، على تعددها وكثرتها ، مكاناً علياً . ففى كل المدنيات تقع على فكرة وجود خالق ، ليس الانسان الا صورة منه غير كاملة ، وأنه خلق الكون المنظور ، بطريقة مباشرة مستخدماً فى الخلق يديه وأصابعه .

من بين تلك النظريات عدد غير صغير مضى محتكما فى اللاهوت الكلدانى .

فى القرن العشرين قرن النور والمدنية – يردد اللوثريون فى أميركا براهين كالوفياس وعلى الاخص من كان منهم ذا نزعة كاثوليكية فى ميوله الدينية .

ولقد حدث فى انجلترا أن أعلن دكتور «سميث» وهو من أعظم اللاهوتيين ان الجمعية الملكية العلمية انما هى جمعية تعمل ضد الدين ، وان أعضاءها ملحدون . وكان من بين البيوريتانيين العلامة « جون أوين » الذى أذاع ان مستكشفات نيوتن « قد قامت على ظواهر غير ثابتة وأنها مبنية على فروض عقلية تعارض النصوص الصريحة التى جاء بها الكتاب المقدس . » وأنك لتعجب اذ تعرف ان الشاعر ملتون الانجليزى قد وقف متراوحاً بين الناحيتين . ففى أول كتابه الثامن من قصيدته المشهورة « الفردوس المفقود » ينطق بلسان آدم مكرراً ما اعترضه من صعاب فى فهم النظام البطليموسى ، فيرسل اليه ملك يعيد على سمعه ما أجاب به رجال الكنيسة فى تفسير ذلك النظام الكونى . ولكن الظاهر ان ملتون قد رجع بعد قليل الى النظر فى نظرية كوبرنيكوس نظرة نقد وتحليل .

على أن النزعة الانجليزية الى روح الكثلكة مازالت تبرهن على وجودها . فان « جون ويزلى » بلجوئه الى تلك الطريقة التى تفرض على العقل ان يمضى عاكفاً على نصوص التنزيل لايعدوها ، قد حمل على ان يعلن « ان صناعة السحر اذا لم تكن حقيقة واقعة ، فلن يصح لدنيا من شئ جاء به الانجيل » . بل أنه مما يدلك على حقيقة هذه العقلية ، ان هذا الباحث بعد ان اقتادته خطواته الى القول بفساد نظرية بطليموس واقرار نظرية كوبرنيكوس على وجه عام ، انقلب أزاء مستكشفات نيوتن شاكا غير ثابت اليقين . على أنه من حسن الحظ أن كرامة محتده ونبالة أرومته ، قد حالت بينه وبين التردى فى مهاوى الحقد ، أو أن يذهب ضحية لروح العداء ، أو أن يمضى متأثراً بشئ من موحيات التعصب المذهبى ، التى كان من شأنها ان تعوق خطا الذين يأتون من بعده عن بلوغ الحق واليقين .

***

وما قولك بموقف الكنيسة ازاء الخلق والنشوء . فانك ان وقفت على بضع تصورات فاضت بها الكنيسة على العالم فى القرون الوسطى معللة حقيقة الخلق فانك ولا شبهة تعرف كيف ان اللاهوت المذهبى لايزال مؤثراً أثره فى تصورات رجال الدين فى القرن العشرين ، وتعرف لماذا حرم تدريس مذهب النشوء فى

بين آونة وأخرى ظهر من بين اللاهوتيين « خوارج » امتازوا بشيء من رجاحة العقل وسعة النظر ، حاولوا أن ينظروا فى خلق بعض أجزاء من مفصلات الكون نظرة أمعن من سابقتها تغلغلا فى صميم الروحانيات وعلى الأخص «غريغورى النياسى » والقديس « أوغسطين » . وكانوا على استعداد لان يقبلوا النصوص الحرفية التى جاءت فى المتون المقدسة ، لهذا ثاروا ضد ذلك التصور ، تصور أن العالم خلق بتأثير ذات كلية القدرة ، كونته بيدها وأصابعها ، وتابعهم فى ذلك « بيده » Bede وقليل غيره . غير أن آراء أكثر من غيرها إمعاناً فى الماديات ، كانت لاتزال سائدة على العقول ، حتى إنك تجد آثارها ظاهرة فى النقوش وزخارف الفسيفساء وتلوين الزجاج فى الكاتدرائيات ، وفى الرسوم التى تحلى بها كتب القداس والمزامير ، حتى فى الاناجيل المصورة ، وكتب المعرفة العامة التى ظهرت خلال القرون الوسطى .

أما فى العالم الأنجلو سكسكونى فقد أحكم عرى هذا التصور المادى القديم شاعران ، خصت أشعارها بالتوقيع على أوتار تلك المشاعر الدينية العميقة . ففى القرن السابع عشر فسر الشاعر « كادمون » Coedmon الاقوال التى جاءت فى سفر التكوين وفصلها تفصيلا أفرغ به ذلك التصور المادى فى خلق الكون فى حلة محبوكة الاطراف على ظاهر المتون المقدسة . وبعد ذلك بألف سنة أخذ « ملتون » Milton من النصوص الكثيرة التى جاءت فى كتب العهد القديم قدراً مزجه بفكرة لاهوتية فى « الكلمة الخالقة » استمدت فى أصلها من كتب العهد الجديد ، ومضى على هذا يصف كيف خلق الاقنوم الثانى من الثالوث الآلهى ، العالم بتفاصيله ، فجاء وصفه صورة من الافكار اللاهوتية والنصوص المقدسة ، لاتدانيها صورة أخرى لزوماً لظاهر الجمل والالفاظ .

قال فى أسلوب شعرى رائع :

« أخذ البيكار الذهبى الذى كان معداً فى خزائن الله الأبدية السرمدية ليخطط حدود الكون وكل المخلوقات . ووضع أحد طرفيه فى المركز وأدار الطرف الآخر دورة حول تلك الاغوار البعيدة القصية ثم قال : الى هنا تمتد حدودك والى هنا ينتهى محيطك : أيها الكون . »

هذا هو التصور الاورثوذوكسى فى الاسلوب الذى خلق به العالم .

ومن الواجب علينا أن نخصه بشيء من العناية والتقدير . فان النقوش الاشورية التي استكشفت حديثاً ، و نقلها الى العالم الحديث أعلام من أمثال لايارد ، وجورج شميث وسايس وغيرهم ، لترينا أنه قد تغلغلت فى تضاعيف الاديان الكلدانية والبابلية ، قصة فى حقيقة الخلق ، من أهم مزاياها وأخطر تفاصيلها ، أنها لابد من ان تكون النواة التى فرخت منها تلك القصص التى نقع عليها فى كتبنا المقدسة . ولقد ظهر باجلى بيان ان تلك الفكرات التى تشغل أعلا مكانة فى أسفار الكلدانيين ، قد استمدت من ذلك النبع الذى فاض على المدنيات الكلدانية البابلية والاشورية والفينيقية بتلك القصص التى وضعت فى حقيقة خلق العالم . ففى تينك القصتين اللتين تخالطتا معاً فى سفر التكوين ، وفى تلك الرواية التى يمكن ان يستدل عليها باشياء فى سفر أيوب يتمثل لك بكل مايستاع أن تتخيل من العظمة والقدرة ، نفس ذلك التصور فى حقيقة الخلق والخالق ، وهو تصور خليق بالمدنية إذ هى بعد فى مهد طفولتها وغرارتها ، إذ يبرز لك الخالق فى صورة بشرية مكبرة ، وهو يكد فى العمل بأطرافه ، ويمثل لك الخلق مصنوعاً بيده . ولقد نشأ ، تعقيباً على هذا التصور ، اعتقاد فى الخالق على أنه شخص بعد ان قذف من راحة يده الى الفضاء بكل السيارات لتجوب كل أنحاء المكان ، جلس فى العلاء فوق العرش المستقر على فلك السماء ، جاداً أبداً فى ان يحكم سيرها ويهديها طريقها .

ومن هذه النظرية الموضوعة فى حقيقة الخلق ، نشأت مع الزمان فكرة أخرى ، أكثر ارتقاء وأنبل قصداً . فمفكرو القدماء ، ومفكرو مصر على الاخص ، كما اتضح منذ عهد قريب ، قدمضوا معتقدين بان السبب المباشر فى الخلق ليست يد الخالق ولا أصابعه ، بل صوته . ومن هنا تخالطت بالمعتقدات الفطرية الاولى التى ذاعت فى أصل الارض والاجرام السماوية بقدرة الحى القيوم ، فكرة أكثر للشعور مساً ، وأعمق فى التصور تغلغلا ، فقيل بأنه « تكلم وأنها خلقت » ، وأنها برزت الى عالم الوجود بتأثير « الكلمة » .

أما هذه النظرية العامة فى أصل الخلق ، فتقدمضت مستبدة بامرها فى تصورات آباء الكنيسة الاولى ، وأصبحت معتقداً مستفاداً من معتقداتهم . حتى أنهم الزموا النصرانية تدرجاً ، وعلى مر الزمان ، الثبات على الاعتقاد بأن الكون قد خلق تاماً كاملا بيد الله أو صوته .

الامر اتفق البابا بيوس التاسع فى مختصره الديني ، وكنيسة وستمنستر فى كتاب أصول الايمان .

وبعد أن فرغ اللاهوتيون من الكلام فى طريقة خلق الكون ومادته ، رجعوا الى الكلام فى « الزمان » الذى تم فيه ذلك العمل العظيم .

هنا اعترضتهم مشكلة . فان أولى الروايتين اللتين جاءتا فى سفر التكوين تنص على ان عمل الخلق قد تم فى ستة أيام ، كل يوم نهار وليل ، بما فى ذلك تفصيل كل ماتم فى كل منها ، على صورة تامة من الدقة والضبط . أما الرواية الثانية فتذكر « اليوم » الذى صنع فيه « الله الارض والسموات » . ولقد كان لما اتصفت به الرواية الاولى من الدقة وملاءمتها لطبيعة ماتكونت عليه عقول العديد الأوفر من متقدمى اللاهوتيين ، قوة حازت بها قسطاً من الاسبقية وقوة البقاء . غير أن مفكرى اليهود من أمثال « فيلو » ومفكرى النصارى من أمثال « أوريغن » ، وقد حاولوا أن يكونوا فى الخالق وخلقه تصورات أرقى نزعة وأنبل قصداً ، لم يقنعوا بهذا ، فالقوا فى بحر اللاهوت النصرانى المضطرب المتدافع القوات ، بفكرة أن الخلق كان موقوتاً وفى لحظة واحدة . ولم تستمد هذه النظرية عناصر القوة من الجزء الثانى من أساطير سفر التكوين وحدها ، بل كان يؤيدها النص القائل ، « تكلم فخلقت العوالم ، وأمر فبرزت ثابتة . » أو كما جاء فى النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس ، « تكلم فصنعت العوالم . وأمر فخلقت . »

كان من نتائج ذلك أن برزت من ثنايا العقل فكرة أن أقوم طريق وأسلم سبيل يتبعه المؤمنون هو الاعتقاد الكامل بكلتا النظريتين ، وأن الله بطريقه خفية قد خلق الكون فى ستة أيام ، بيد أنه أبرزه الى الوجود فجأة وفى لحظة واحدة . وعلى الرغم مما أهاب به عدد عديد من عظماء اللاهوتيين مثل افرايم سيروس وغيره من أن الكون قد خلق فى ستة أيام تامة كل منها أربعة وعشرون ساعة ، فان نزعة التوفيق بين تينك الروايتين المتناقضتين قد أيدها القديسان اتناسيوس وباسيل فى الشرق ، والقديسان أوغسطين وهيلارى فى الغرب .

ولقد نشأت صعاب اعترضت سبيل اللاهوتيين فى التوفيق بين هاتين النظريتين ، اللتين لن يقوما معاً فى عقل قياسى ، لما بينهما من الخلاف والتناقض. غير أنهم بما خصوا به من المهارة والحذق فى تأويل النصوص وقلب ظواهرها ،

***

أما المسألة الثانية التى أنشأها ذلك التصور اللاهوتى ، فكانت ذات علاقة « بالمادة » التى صور منها العالم ، ومضت الاغلبية العظمى من أهل اللاهوت مقتنعة بأنه لم توجد مادة ماقبل خلق الكون وأن « الله خالق كل شيء من لاشيء. »

من اللاهوتيين فئة خصت بشيء من الشجاعة والاقدام ، أشاروا اعتماداً على النصوص الاولى التى وردت فى سفر التكوين ، الى فكرة أخرى مغايرة لتلك الفكرة ، ومؤداها أن الكتلة المادية قد وجدت قبل وجود الكون ، ولكنها كانت « بلا صورة وفى خلاء لامتناه » . غير أن هذا المذهب اكتسح سراعاً من عالم المعرفة .

أما معتقد آباء الكنيسة فكان جلياً واضحاً إزاء هذا الامر . فان « ترتيليان » Tertullian قد انتحى أكثر الطرق حزماً وشدة ازاء الذين كانوا يعتقدون بأية فكرة مضادة للفكرة التى اعتنقها زعماء الاورثوذوكسية . بل أعلن بأنه اذا وجدت أية مادة أولية صنع منها الكون، فلابد من أن تكون الكتب المقدسة قد أشارت إليها . أما وأن هذه الكتب لم تشر اليها ، فان الله قد أمدنا بانصع برهان يدلنا على أنه لم يوجد قبل الخلق شيء كهذا وعلى أسلوب فيه من العسف قدر لم يعرف له مثيل فى أى خلاف لاهوتى آخر ، هدد « هرموجينيس » وكان من مؤيدى الرأى القائل بقدم المادة ، « بالويلات التى تنصب على أولئك الذين يزيدون الى الكلمة القديمة أو ينتقصون منها . »

أما القديس أوغسطين ، وكان ممن أشار تلميحاً الى الاعتقاد بوجود المادة قبل الخلق ، فقد وفق بين ماكان يرى من رأى و بين المعتقد السائد فى حدوث المادة ، ببرهان ساذج بسيط اذ قضى : « بانه على الرغم من أن العالم لابد من أن يكون قد صنع من مادة ما ، فانه من المحتوم أن تكون هذه المادة ذاتها قد خلقت من العدم بداءة ذى بدء . »

فى الطريق التى رسمها هؤلاء العظماء سارت الكنيسة العظمى هادئة مطمئنة . ولقد صرح المجمع اللاتيرينى الرابع بان الله قد خلق كل شيء من لاشيء. وأنك لتجد حتى اليوم أن أرهاط المؤمنين سواء أكانوا كاثوليك أم بروتستانت ، لايلقنون ازاء هذا الامر من شيء سوى مايوحى به هذا المذهب . وعلى هذا

« يوجد ثلاث فصائل من الارقام . الاكمل والكامل والناقص . وهذا بنسبة ما يكون فى مجموعها من الزيادة أو المساواة أو النقص عن العدد الاصلى . والعدد ستة هو اول عدد كامل . وعلى هذا لايجب أن نقول أن العدد ستة كامل لان الله قد انتهى من كل أعماله فى ستة أيام ، بل لان الله قد انتهى من كل أعماله الخلقية فى ستة أيام ، لان العدد ستة هو العدد الكامل .

ولقد ظلت جنبات الكنيسة تتجاوب باصداء هـذه الاقوال طول القرون الوسطى حتى لقد ردد صـداها بعد أن استكشفت أمريكا بعام كامـل مصبوبة فى القالب الآتى : —

«ان خلق الاشياء قد تتضح حقيقته بالعدد ستة ، الذى تشير أجزاؤه الثلاث الاول ، واحد واثنين وثلاثة ، الى صورة مثلث »

هنا أصبح الاعتقاد بان الخلق قد حدث فجأة فى حين أنه تم فى ستة أيام كل منها نهار وليـل ، اعتقاداً عاما شاملا ، حتى لقد اجازه بطرس لومبارد وهوغو السانفكتورى ، وكلاهما جهبذ ذووزن وصيت ، بل الزما العقل الكنسى أن يمضي له خاضعاً عصوراً طوالا .

على أن الامر لم يقف عند هذا الحد . فان طرق هـذا التأمل الذهنى — فى القول بان كل شيء قد خلق من لاشيء ، والتوفيق بين الخلق الفجائى والخلق فى ستة أيام — قد نما وتطور من طريق فئة أخرى من كبـار المفكرين فى القرون الوسطى. فان القديس «هيلارى بواتييه» قد حاول أن يوفق بين التصورين فقال :

« على الرغم مما هو واضح مما جاء به موسى من الظواهر الدالة على اتباع نظام مطرد فى تثبيت القبة الزرقاء ، وفى تمهيد الارض اليابسة ، وفى تجمع المياه بعضها مع بعض ، وفى تكوين الاجرام السماوية ، وفى قيام الكائنات الحية فى الارض والماء ، فان خلق السماوات والارض وبقيـة العناصر قد رؤى أنه نتيجة عمـل وقع فى برهة واحدة » .

أما القديس توماس اكونياس فقد استخلص ممـا جاء به القديس اوغسطين تفصيلا دقيقا فيه حذق ولباقه ، ذلل خـلال عصور طوال كثيرا من الصعاب التى كانت تعترض هـذه القضية إذ قال بان الله خلق مادة الاشياء فى لحظة واحدة ، ولكنه قضى ستة أيام فى العمل الابداعى مفرقا بين العناصر ، مصوراً

وبما جبلوا عليه من القدرة على اللعب بالالفاظ والجمل ، وبما لجؤوا اليه من طريقة الجنوح الى الاساليب الغيبية وكثرة ما استخدموا من نظريات مابعد الطبيعة ـ الميتافيزيقي ـ استطاعوا ان يصلوا الى التوفيق بينهما ، حتى أصبح الناس وهم يعتقدون بأنهم اعتقدوا ، بأن خلق الكون كان فجأة وفي برهة واحدة، يبد أنه امتد الى ستة أيام سوياً .

من الجهود التي بذلها اللاهوتيون في سبيل التوفيق بين هاتين النظريتين نزر يسير كان خصب الانتاج متعدد الآثار ، حتى لتجده خليقاً بأن يخص بقسط من عناية الذكر . فان آباء الكنيسة ، في الشرق وفي الغرب ، قد كونوا من مجموع ماكان بين أيديهم من روايات سفر التكوين والاشارات التي وردت في المزامير والامثال وسفر أيوب ، هيكلا ضخما من العلم المقدس ، كل جزء منه يمت الى هذه النظرية بسبب . أما خلق الكون جملة ، فقد لجؤوا لدى النظر فيه الى القول بما تصوروا من قوات سرية خفية منبثة في تضاعيف بعض المكونات العددية . فان « فيلويهوداوس » بينما مضى معتقداً بنظرية الخلق الفجائي ، قد أعلن بجانب هذا الاعتقاد ، أن الكون قد صور في ستة أيام ، « لان العدد ستة ، من بين كل الاعداد ، هو الاكثر انتاجاً . » ولقد أظهر أن خلق الاجرام السماوية لم يقع الا في اليوم الرابع ، « لما في العدد أربعة من صفات الالفة والاتساق . » وأن خلق الحيوانات كان في اليوم الخامس ، أشارة الى الحواس الخمس . وأن خلق الانسان في اليوم السادس فيه تلميح الى مافي العدد ستة من الفضائل التي وضعت ذلك العدد كحد نهائي للعمل الخلقي الخطير . ثم عمد الى هو أكبر من كل هذا فأشار الى ان راحة اليوم السابع ، انما تشير الى تلك الفضائل العظيمة السرية الكامنة في العدد سبعة .

ولقد أيقن القديس « جيروم » بأن السبب في ان الله لم يصف ماتم من العمل في اليوم الثاني من أيام الخلق بأنه « حسن » ، إنما يرجع الى شيء هو شر بذاته مفروض وجوده في العدد اثنين . وهذا الرأي قد تردد صداه عن طريق « بيده » وفي جنبات بريطانيا العظمى ، بعد عصر القديس « جيروم » بقرون طوال .

أما القديس أوغسين فقدم الزم الكنيسة بهذا الاعتقاد متبعاً طريقة التدليل الآتية . فقال :

بمقدار مافى كتابات هذا الاستاذ من حرية الفكر يكون بعد الذين يعتقدون بصحة ماقال عن الخلاص وعن الاخلاد لروح الكنيسة .

غير أنه على الرغم من أن التهم التى وجهت الى الاستاذ دايفى قد رفضتها الاغلبية العظمى من رجال الكنيسة المشيخية ومجمعها الاعلى فان تكرر مثل هذه الحوادث دليل على أن ميراث القرون الوسطى لايزال شديد الاثر فى نفوس فئات من رجال اللاهوت فى القرن العشرين ، عصر النور والعرفان .

التباين فى الكائنات الحية

(بحث علمى)

ان أظهر خاصية فى أفراد الكائنات الحية من نبات وحيوان هى تلك النزعة التى كانت وما زالت أساس كل الابحاث البيولوجية التى تتناول تكون الانواع الا وهى نزعة الفرد لأن يباين بقية أفراد النوع وينحرف عن صفاتهم القياسية إما فى صفة اوخاصية جسمانية بعينها، واما فى مجموعة من الخواص والصفات . فاذا كان هذا التباين قاصراً على صفة واحدة فقط ، وجدت فى أفراد كثيرة بحيث يؤلفون مجموعة أو فرقة تمتاز عن بقية أفراد النوع الذى يشملها ، فأنها تدعى عند علماء الحياة والتاريخ الطبيعى « تباينا » أو « تغايرا » . واذا تعدى التباين Variety والانحراف إلى أكثر من صفة أوخاصية واحدة اعتبره العلماء « نوعا » قائما بنفسه . أما البحث فى موضوع التباين أو التغاير والفروقات القائمة بين أفراد النوع الواحد، فلم تقم على قاعدة علمية إلا منذ قيام داروين وولاس ، وابانا ماله من الشأن فى جميع المباحث البيولوجية والتاريخ الطبيعى ، وأنه الاساس الذى يجب أن يبنى عليه كل نظريات العلماء ومباحثهم فى الوراثة ونظريات التطور والانتخاب باقسامه من طبيعى وصناعى ولاشعورى .

على أن العلماء الذين عاصروا داروين والذين اتوا من بعده ، قد أخذوا عليه أنه أقام نظريته فى الانتخاب الطبيعى على فرضين دون أن يقيم البراهين على

للاشكال ، منمقاً فى التفاصيل .

ولقد قبل متقدمو المصلحين هذا الرأى ونحوه ، وكان لوثر فى مقدمتهم ، فاعلن بما عرف فيه من شجاعة واقدام أن موسى « قد تكلم فى صراحة وجلاء ، ولم يلجأ الى المجاز والاستعارة » . وعلى هذا « يكون العالم وكل ما فيه من المخلوقات قد خلق فى ستة أيام » . ولكنه مضى بعد ذلك مظهراً كيف أن كل الموجودات بتأثير معجزة كبرى ، قد خلقت فجأة وفى لحظة واحدة . وكذلك ميلانكتون فانه صمم على القول بان العالم قد خلق من لا شىء بطريقة خفية وفى لحظة واحدة وفى ستة أيام معاً ، معتمداً على النص القائل « تكلم فخلقت » (١)

* * *

هذا بعض ما أورثتنا إياه العصور الوسطى من صور اللاهوت المذهبى . ومما يؤسف له أن هذا الميراث لايزال شديد الأثر فى عقول فئة من رجال الدين فى هذا العصر استحلت فى أمريكا أن تطرد استاذاً من اساتذة العلم لقن لطلابه مبادئ النشوء والارتقاء على القواعد الداروينية . وما نظن أن الذين يرثون عقلية القرون الوسطى يمكن أن يكونوا أقل مما رأينا تعصباً أو أكثر تسامحاً مع من يقولون بان الجاذبية سبب النظام الكونى أو ان النشوء سنة الخلق .

ولا تزال هذه الروح الخبيثة متفشية حتى اليوم فى كثير من انحاء الارض . ففى التاسع من شهر يوليو الماضى التأمت الجمعية العمومية للكنيسة المشيخية فى ايقوسيا بمدينة بلفاست ، لتستعرض بهيأتها الموقرة تهم الهرطقة التى وجهت الى أحد اساتذة جامعتها اللاهوتية دكتور ج . ا . دايفى . وكانت أخطر تهمة وجهت الى هذا الاستاذ أنه لقن تلاميذه على الطريقة العقلية فخرج بذلك عما تجيزه الكتب المقدسة وناقضها . وكان القائم بالاتهام مستر مونغميرى . فقال بان الاستاذ دايفى قد لجأ الى طريقة النقاد المحدثين وفضل هذه الطريقة على السنن الذى اتبعته الكنيسة المشيخية منذ أقدم العصور حتى اليوم . وان النقد الحديث وما يدعونه بالتجديد قد لعنه كل الذين لا يزالون حتى اليوم خاضعين لله منيبين اليه ، ولكلمته القديمة . وقال يوسف جوليغر أنه قرأ ما كتب الاستاذ دايفى فاذا به يؤيد تلك الطريقة التى تبعد الانسان عن روح الدين وترمى به فى احضان الشك واللاأدرية ، وانه

---

(١) نرجع فى كل هذا الى كتاب تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم فى عصور النصرانية .

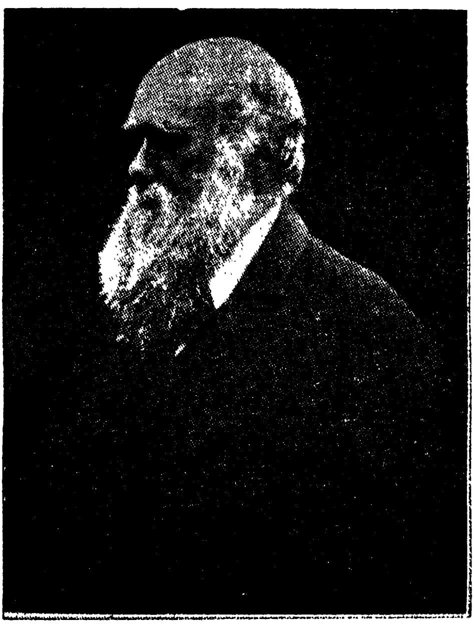
الانواع ومنشأها وقالوا ان هذه الانحرافات الشديدةالظهور ليست شاذة قاصرة على بضعة أفراد ، بل انها تتناول أفراداً كثيرة وتظهر دفعة واحدة دون استعداد أو ظواهر سابقة فى أفراد النوع ، فيتكون بذلك اما تباين أو نوع جديد . وقد دعا هوجودى فريز نظريته هذه « بنظرية التحول الفجائى » «Mutation» اشارة الى أن النوع الجديد يظهر فجأة .

وأما علماء الوراثة الباحثون فى هذه التباينات وأنواعها فمنقسمون بين انفسهم إلى قسمين . وعلى الرغم من أن كثيراً من الباحثين يحاولون التوفيق بين القسمين بارجاع نظريتهما الى أمر واحد ، فان كليهما متفق على أن التباينات والانحرافات تنتقل بالوراثة الى جميع أفرادالنوع. أما القسم الاول فيقصرطريقته على وصف ضروب التباين ، حاصراً كل بحوثه فى وصفها لاغير. وأما القسم الثانى فهم « القياسيون » Biometricians الذين يعكفون على الطرق الرياضية فى قياس هذه التباينات التى تقع بين أفراد النوع الواحد وبين التباينات بعضها وبعض . وقد يستعملون الرسوم البيانية لمعرفة مقدار تكرر هذه الانحرافات وتفاوتها وقيمتها الحسابية وغير ذلك


الفرد روسيل وولاس ١٨٢٣ — ١٩١٣

هذا ولايجب أن يفهم من معنى التباين ظهور صفات جديدة لم تكن موجودة قبلا فى أفراد النوع ، بل الحقيقة أن التباين هوتأليف جديد لصفات كانت موجودة بنسبة جديدة فى كمية الخاصيات والصفات التى يتألف منها الكائن الحى ، وبذلك يبتعد التباين عن النوع الاصلى بنسبة حسابية يمكن تحديد كميتها . فالتباينات فى عرفهم ، حتى الوصفية منها ، جماعها تباينات فى الكم ، قبل كل شيء . وهنا يجب التمييز بين مجموع الصفات التى يتألف منها الفرد ، وبين كل صفة من صفاته على حدة . فالغواة الذين يربون الحيوانات الأليفة أويزرعون

صحتهما . فالفرض الأول هو تسليمه بأن أكثر التباينات فى الكائنات الحية تدريجية متسلسلة تسلسلا لا اضطراب فيه ، حتى أن مباينة جمع من الافراد لبقية أفراد النوع قد يمكن أن يتألف من مجموع صور الانحراف التى طرأت على الافراد فى سلسلة تدرجية متصلة الحلقات تبدأ بأضعفها ظهوراً وتنتهى بأوضحها وابينها . وأما الفرض الثانى فهو تسليمه دون بحث بأن التباين الفردى القاصر على فرد أو بضعة أفراد قد يؤدى إلى تكوين نوع جديد . أما أن الفرض الأول غير صحيح فقد حقق ذلك العلم الحديث اذ اثبتت التجارب العلميه بأن كل التباينات مفصومة العرى ، وأنه توجد هوة سحيقة تفصل بين كل تباين وآخر ، وأن درجات التفاوت فى الافراد المؤلفة لنوع واحـد مثلا على الرغم من ظهورها فى بعض الاحيان بمظهر من الضؤولة بحيث لا تدرك ، فانها على كل حال موجودة كائنة . وبالرغم من أن داروين كان يرى أن أصل الانواع يرجع الى فروقات أو انحرافات أو تباينات ضئيلة جداً تقع بين أفراد النوع ، ثم تتراكم بالتدريج على مدى اجيال طويلة دون أن يؤبه لها ، ثم تظهر فجأة ودفعة واحدة ، حتى لقد يظن الناظر اليها انها تباينات جديدة ، فانه رغم ذلك قد ذكر عدة حالات شاذة لهذه القاعدة ، فكأنه لم يغفل الانحرافات العارضة الشديدة الظهور . على أنه لم يكن يرى شأناً كبيراً لها ، فلم يعتبرها سبباً من أسباب حدوث أنواع جديدة ، بل كان يعتبرها أعراضاً تزول وتفنى لعدم تكافؤها مع الحالات الطبيعية التى تحف بها .

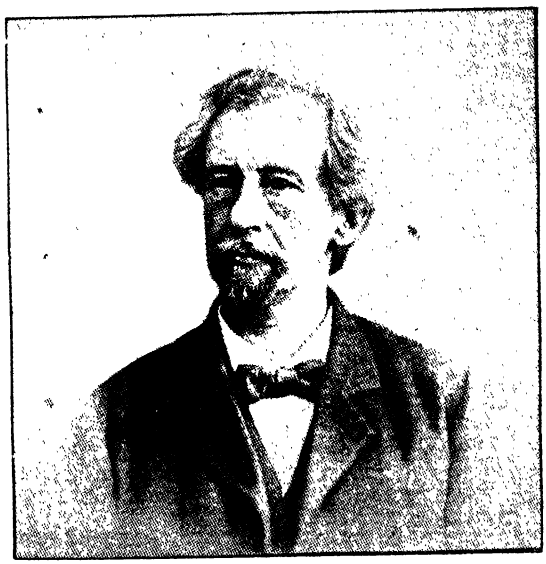


شارلز داروين — ١٨٠٩ — ١٨٨٢

أما العلماء الذين أتوا من بعده وخصوصاً باتيسون وهوغودى فريز فقد رأوا ، اعتماداً على تجاريبهم العلمية أن الانحرافات الفردية كثيراً ما تكون أصلا لاستحداث

هذا والتباينات الوصفية على أربعة ضروب : (١) تباين جسمى قاصر على التركيب والصفات الجسمية (٢) تباين فى مقومات الجسم وصفاته التى عليها يتوقف قوام البنية الجسمية (٣) تباين عضوى عددى خاص بعدد الاعضاء والاجزاء التى يتألف منها الكائن الحى (٤) تباين وظيفى خاص بتأدية الوظيفة الفسيولوجية .

(١) فالتباينات الجسمية تشير الى الفروقات فى الحجم. وفى الكائنات الحية عمالقة وأقزام . ففى الخيل مثلا يوجد نوع قصير القوائم صغير الجسم ، ونوع آخر طويل القوائم عظيم الحجم . وكذلك تنطبق هذه الحالة على قطعان الغنم والابقار والخنازير والنباتات . وهذا الضرب من التباين كمى ترجع أسبابه الى مقدار العوامل الخاصة والى النشاط الخلوى فى تكوين كل خلية منوية (بلاسما جرثومية) فهو لا يتوقف على حجم الخلية ، بل على نشاطها وعلى الوحدات الفسيولوجية الموجودة فيها كما سنبينه بعد



(هوغو دوفريز)

(٢) أما التباين الخاص ببنية الجسم ، وقوامه الداخلى ، فراجع مثلا الى صفات العضل ونوع اللحم الذى يغذيه ، ونوع لبن الحيوان وفى النبات لون الفاكهة وطعمها ولونها ومذاقها الخ وعلى الرغم من أن هذا التباين وصفى كيفى صرف فانه من المستطاع قياسه، باعتبار أن الأصل فى ذلك ناتج عن تركيب كيماوى يرجع الى التركيب الذرى الخاص بالعناصر التى تؤلفه.

(٣) أما التباين فى عدد الاعضاء المتكررة وتأليفها فيشير الى زيادة هذه الاعضاء أو نقصانها عما هى عليه فى بقية أفراد النوع ، وتركيبها تركيباً يخالف المألوف عادة فى الكائن القياسى . والأصل فى هذا التباين أن الفرد ليس وحدة ، بل مجموع وحدات تظهر بصورة أعضاء وجوارح . وقد يظهر هذا التباين خاصة فيما هو معروف عند علماء

النباتات مثلا ، يتخذون الفرد اساسا لانتخابهم الصناعى . فالفرد عندهم هو الوحدة التى يجب أن تبنى عليها تجاريبهم واختباراتهم فى الكائن الحى الذى يرغبون فى استحداثه نباتاً كان أم حيواناً

على أن علم الحياة يتجاوز ذلك العرف ويتخطاه بل ويتجاهله ، وعنده ان الوحدة الحقيقية للابحاث العلمية المحضة هى الصفة الواحدة والخاصية الواحدة ، لاالفرد الذى يعتبره مجموع صفات ومجموع خاصيات كل منهاوحدة قائمة بنفسها . أما الاسباب التى يرجع اليها علماء الحياة هذه النظرة فقدا تضحت الآن وما زالت تسفر يوماً بعد يوم عن حقائق جديدة منذ أن أقام وايسمان الالمانى وأرجع كل الصفات المنتقلة بالوراثة الى تكوين الخلية المنوية أو البلاسما الجرثومية Germ-Plasm الى أجزائها المتناهية فى الصغر والانقسام، والتى يؤلف كل جزء منها وحدة فسيولوجية

على أنه يوجد ضرب آخر من التباين غير هذين الضربين ، وهو التباين الذى يصحبه تباين آخر واصطلاحاً « تبادل التغايرات النسبى » Correlated Variation والحقيقة انه لايوجد تباين قائم على خاصية أو صفة واحدة ، بل ان كل خاصية أو صفة شاذة فى بقية الصفات تكون غالباً مصحوبة بخاصيات أخرى جديدة تطرأ على النوع ، فتؤلف فى مجموعها تبايناً جديداً . فاذا شذ عضو من الاعضاء ، أو وظيفة من الوظائف أو خاصية من الخاصيات فى كائن حى عما هى عليه فى فرد آخر من نوعه ، فأيقن بأن ذلك الشذوذ ليس قاصراً على ذلك وحده ، بل انه يتناول أيضاً صفات أو خاصيات أخرى فى هذا الفرد نفسه . وقد لاحظ الغواة الذين يشتغلون بتربية الحيوانات والنباتات ملاحظات جوهرية فى هذا الموضوع . فالسيقان الطويلة فى بعض الحيوانات مثلا تكون دائما مصحوبة برؤوس طويلة ، وذكر القط الابيض ذو العيون الزرقاء ، يكون فى الغالب أصما ، وكذا اللون والبنية الجسمية يتباينان معاً . فالخراف البيضاء والخنازير البيضاء تتأذى وتمرض من أكل بعض أنواع النباتات Paint - root بينما لايتأذى منها الافراد الداكنة اللون . والقرون الطويلة يصحبها دائما عنق قوى . والكلاب العديمة الشعر أسنانها ناقصة التركيب والنمو . والحيوانات الطويلة الشعر لها عادة قرون كثيرة طويلة . والحمام الهزاز يصحب الريش الصغير الموجود فوق أصابع رجليه نواتىء وأغشية لحمية . والحمام القصير المنقار أرجله قصيرة بخلاف الحمام الطويل المنقار فهو طويل الارجل .

فى وسط العمود الفقارى ، بل يوجد اما فى مقدمته أو مؤخرته ، أى فى أسفله أو فى أعلاه .

ثالثا — اذا وجد شذوذ فى طرف من الاطراف فانه لايكون مصحوبا غالباً بشذوذ فى الطرف الآخر . أى أن نزعة النوع تتغلب على الشذوذ فتحتفظ بالتناسق الجانبى المتقابل « Bilateral Symmetry » واذا ماثل عضو زائد جديد عضواً قديماً فان تلك المماثلة تكون عادة على نسق العضو التالى له مباشرة . فالفقارة الزائدة فى مقدمة العمود الفقارى مثلا تماثل الفقارة المخية المؤخرية . وقس على ذلك .

(٤) أما التباين الوظيفى فانه يشمل ثلاث حالات : أولا — التباين فى درجة نشاط الوظائف الطبيعية للافراد المختلفة التى يتألف منها النوع . وذلك مثلا كافراز اللبن فى أفراد متنوعة من نفس النوع . أو تفاوت السرعة فى الخيل ، أو الاختلاف فى قوة النظر أو اللمس أو السمع ، أو افراز السكر ، أو فى القوى الحيوية ، والخصب وقوة التناسل . ثانيا — التباين فى درجة نشاط الوظائف الطبيعية فى نفس الشخص وذلك يشمل التباين اليومى والدورى فى تأدية الوظيفة تبعاً للسن والعادة والاستعمال والاغفال ، والتغذية والظروف المباشرة . ثالثاً — تغير فى تأدية الوظيفة الفسيولوجية تبعاً للظروف الخارجية . مثال ذلك النتوات التى تنتج من تأثير ميكروب السل ، أو البندقة التى تنتج فى شجر البلوط من الافراز الخاص الذى تفرزه بعض أنواع الذباب ، أو التحام العظام التحاما غير منتظم تبعاً لضغط شديد ، أو ظهور خصلة من الشعر كثيفه على خد سيدة جميلة .

ومن الامثال على ذلك النتائج التى تترتب على بتر عضو التناسل فى بعض الحيوانات . فذكورة السرطان مثلا بتأثير هذا الفعل لا تنمو أكتافها نمواً كافياً ويتأثر بهذه العملية فى الحيوانات الاخرى الصوت والمجموع العصبى ووظائف الجسم العامة . وفى الخيل يخف شعر الرقبة فى الفحول المخصية . وأما فى الانسان فان الخصيان يعدمون الشعر ، فلا شوارب ولا لحى ، والصفات الخاصة بالذكر تكاد تكون معدومة . والسرطان الذى لا يوجد بجسمه نوع من الديدان « ساكيولينا » Sacculinae لا تنمو له الخواص الجنسية . والاناث المتبور مبيضها تظهر فيها صفات الذكور . ففى النساء مثلا ينمو لهن لحى وتصير أصواتهن خشنة .. وفى الدجاج العادى

الحياة « بالتناسق » Symmetry ، سواء أكان هذا التناسق متقابلا تقابلا زوجيا كاليدين أو الرجلين أو الاذنين أو كان شعاعيا Radial دائريا كأوراق الزهرة وبتلاتها ، وأشعة « صليب البحر » وغيرها من الحيوانات الشعاعية Rodioaria وفى التناسق الشعاعى Radial Symmetry يكون شكل كل الاعضاء المتكررة وتركيبها واحداً ، والفروقات بينها تكاد تكون معدومة . وليس الامر كذلك فى التناسق الجانبى المتقابل Bilateral Symmetry حيث يكون العضوان المتقابلان غير متشابهين أحياناً . فاليد اليمنى قد لا تشبه اليسرى وهكذا . وفى كلتا الحالتين أى التناسق الشعاعى والتقابلى ، يوجد نوع من التباين يسمى بالتباين « الشبهى » Homoeris ويظهر ذلك فى المثل الآتى : اذا زادت فقارة من فقارات العمود الظهرى وشابهت بقية فقارات الظهر فلا يكون هذا تباين شبهى . وأما اذا كانت هذه الفقارة فى قاعدة المخ وشابهت فى الوظيفة والشكل وظيفة وشكل الفقارة الظهرية المخية ، فان هذا يكون تباين شبهى . والأمر كذلك فى أزهار بعض النباتات حيث يحل محل الأسدية مثلا بعض البتلات وتكاد تؤدى وظيفتها . على أن التباين المتكرر فى الحيوان يحصل عادة فى الفقارات الظهرية والضلوع وفى عدد أعصاب الجهاز العصبى ، والزوائد السمعية فى الحيوانات اللبونة وفى عدد الرؤوس كما يحصل فى بعض السلاحف ، وفى عدد الأثداء ، والاسنان ، والعيون والاجنحة فى الحشرات ، وفى عدد القرون والأباهم والاصابع واتحادها بعضها ببعض بواسطة أغشية لحمية ، أو غير ذلك كاتحاد الظلف الثانى والثالث فى الاغنام والابقار والخنازير وما يسمى عادة باتحاد الاصابع : «Syndactilism »

وقد وضع علماء الحياة قواعد لهذا الضرب من التباين نذكر بعضاً منها :

أولا — أن زيادة عدد الاجزاء والاعضاء فى شطر من الجسم قد يؤثر أو لا يؤثر فى مجموع أعضاء الجسم . اذ قد يزيد من جهة وينقص من جهة أخرى ، ويكون العضو الزائد بمثابة عضو شبيه بالعضو القريب منه مباشرة

ثانيا — أن التباين الشبهى فى الفقارات والضلوع قاصرة على الاعضاء المجاورة لها فقط . فمشابهة فقارة زائدة مثلا للفقارة المخية والفقارة القريبة منها مباشرة لا يعد تباينا تشابهياً ، على الرغم من أن الزائد فى هذه الفقارات لا يوجد أبداً

سعد زغلول

الخالد الفانى

بالامس طويت صفحته ، وغابت لمحته ، لينشر ماضيه ، ويبسط ظاهره وخافيه ، وختم فى الحياة كتابه ، وأسدل حجابه ، والقى على شاطئ الخلود ركابه ، وفتحت له من العالم الثانى رحابه . فيالها من صفحة طويت لتنشر باقية سرمدية ، وكتاب ختم بآيات الخلود الأبدية ، ورقعة خطت بمداد البطولة والفخار ، وتاريخ يضل به سرب القطا ويحار . ويالها من حياة تثير فى الموت الحياة ، وموت هو البعث بعينه ، وجهاد ماقام به غير البطل الراحل . ويالها من روح حلقت فى سماء مصر فاختلست الأرواح وخلفت الاجسام ، واردة هى حد الحسام ، وعزمة كأنها الشهاب الراقب ، أو النجم الثاقب .



البطل الراحل سعد زغلول

وبعد . أفرأيت كيف تنقض الصاعقة على شعب فتصعقه ، وكيف تهوى عليه الكوارث من عالم القضاء والقدر فتمحقه ؟ اذا لم تكن قد رأيت هذا ولا سمعت به ، فانظر فاذا بك ترى سعداً وقد نكست لموته الاعلام ، وذهلت العقول وجفت الاقلام . انظر فاذا بك تراه مسجى فوق عربة تحمل الموت أينما سارت ، وهو الذى كان يحمل الحياة والقوة أينما سار . وقد جللت مصر الخالدة بعلمها الخفاق نعش بطلها الراحل الباقى ، بعد أن ودعت بموته آمالا كباراً ، وأمانى نعوذ بالله أن نقول إنها بموته قداندثرت

ينمو للدجاجة عرف كعرف الديك .

أما الظروف الخارجية وتقلب الفصول فلها فوق ذلك أثر شديد في التغيرات الداخلية فى الحيوان . فبعض أنواع الافيد " Aphids " تنتج ذكوراً أو أناثاً تبعاً لتقلب فصول السنة . وكذا الحال في النمل وبعض أنواع الزنابير الاجتماعية . وقد نجح « شينكوفتش » " Schenkowitch " بهذه الطريقة فى تحويل نوع إلى آخر . وأما فى النبات فالأمر لايخرج عن هذه القاعدة فبعض الاشجار الاوروبية تكون فى أمريكا أكثر نضارة وأقوى نماء منها فى أوروبا . ومن الحيوانات التى نجحت نجاحاً هائلا الطير المعروف باسم « الزرزور الانكليزى » " English Sparrow " فقد تغلب على جميع الصعوبات حتى اضطرت الحكومة الامريكية الى سن قوانين لمحاربته . وليس له فى انكلترا وطنه الاصلى مثل هذا النجاح الذى صادفه فى مهجره الجديد . وقد كان لادخال الصحافة تغيير كبير فى عوائد بعض الحيوانات والحشرات فان بعض الزنابير تبني اعشاشها الآن من ورق الصحف لامن شيء غيره

حسين تقى أصفهانى

الحياة والتولد الذاتى

قال الفرد روسيل وولاس

« انه من أكبر التصورات الباطلة مايقال لى دون اظهار أية صعوبة تحول دون ذلك القول ، بانه اذا أمكنك أن تبرهن على كيفية التولد الذاتى فى الاجسام التى لاحياة فيها ، امكنك أن تبرهن على كيفية التولد الذاتى فى الاجسام الحية . فنواة الخلية الحية ليست شيئاً كيماوياً عويص التركيب ، وفى الامكان تركيبها ثانياً اذا حللت ، ولكنها لاتكون نواة حية . إن الماديين يتجاهلون ذلك كله . يتجاهلون القوة المدبرة الخفية التى تستطيع الخلية الحية بفضلها من الدور فى سلسلة من التحولات يستحيل ايضاحها بأية طريقة كيماوية أو ميكانيكية »

حلق فى سماء الشعر ، وجب آفاق الخيال ، واضرب فى سماء الوهم كل مضرب ، وطر مع الأثير كل مطار ، فهل كنت تجد بين الساعة العاشرة من مساء ٢٣ أغسطس ومثلها من مساء اليوم التالى موضع فى سماء القارات الخمس التى تكون عالمنا الانسانى شبراً لم تهتز فيه أوتار البرق تحمل نعى زعيم مصر وقائد نهضتها ومحيى آمالها ، الى كل اذن تسمع ، أو قلب ينبض ، بين وهاد الأرض وجبالها ، أو فى مدنها وأمصارها ؟ وارجع الى عالمك الأرضى هل كنت تجد الا الهلع يخفق به قلب مصر ، والا الأسى يتمشى فى نواحى الشرق ، والا الوجوم يعلو الوجوه فى مهبط المدنية الحديثة ومنبع نور العلم والعرفان ، والا الخطرات النفسية حاملة ذكرى الراحل الخالد فى بقية ماتعرف من نواحى الارض ؟ ومن ذا الذى يجرأ بعد هذا على ان ينكر على سعد ضرباً من ضروب العظمة ، أو منحى من مناحى البطولة ؟ وما أصدق الشاعر حيث يقول

ما الميت من همل الانام كهالك   زالت به دنيا وباد قبيل

***

ولد البطل الراحل رحمه الله فى بلده ابيانه مركز فوه سنة ١٨٦٠ وبعد ان تلقى مبادئ القراءة والكتابة فى مكتب القرية . حضر الى الازهر واتصل بالمرحوم السيد جمال الدين الافغانى ودرس عليه قليلا ، ثم بدأت صداقته ، بالمرحوم الشيخ محمد عبده ثم عين محرراً فى الوقائع الرسمية ، وكانت جريدة تعنى بنشر أخبار الحكومة كما تنشر بعض المقالات فى موضوعات عامة . فانتهز هذه الفرصة ليعبر عن آرائه بصراحة وجرأة أدهشت الكثيرين ممن كانوا يرون فى الهيئة الحكومة شبحاً مخيفاً ، وفى الحاكم آلة اعدام مروعة ! واسندت اليه بعد ذلك وظيفة معاون فى الداخلية ثم جعل ناظراً لقلم القضايا بالجيزة فكان مثال النزاهة والاستقلال فى الرأى . ولم تكد نيران الثورة العرابية تشب وتندلع السنتها حتى اتهم بمالأة الوطنيين الذين قالوا لاول مرة فى التاريخ الحديث «مصر للمصريين» فقبض عليه ولكن لم تثبت ضده أية تهمه فاخلى سبيله .

اندثاراً . وما أظن أنك بعد هذا الا راء كيف تكون النكبات تهدم الشعوب ، وتشق المرائر والقلوب ، وكيف تنوء الكوارث فتقضى على الامم ، وكيف تهبط الحائجات ، فتثنى الهمم ، وتشيب اللمم .

أى موضع من مواضع الخلود نذكر ولا نجد لبطلنا فيه أثراً ، وأية ناحية من نواحى البقاء نرقب ولا نجد لزعيم مصر فيها خبراً ؟ أفى الوطنية وقد كان شعلتها المضيئة ، أم فى القومية وقد كان مصباحها الوهاج ، أم فى الزعامة وقد كان بطلها المغوار ، أم فى الخطابة وقد كان رجلها الفذ ، أم فى التأليف بين القلوب وقد كان رمزه المرموق ، أم فى القضاء على التعصب الطائفى وقد فعل فيه مالم يفعل من قبله زعيم أمة أو قائد نهضة ؟

وأى زعيم من الزعماء الذين القت اليهم الامم مقاليدها ، وتنحت لهم الجماهير عن السلطة والسلطان ، بلغ مابلغ سعد فى مصر فكان زعيماً بلا سيف ولا مدفع . حبته الامة بان يكون زعيمها فكان الزعيم الأول فى أرض الفراعنة الشداد ، وهو بعد أعزل من كل سلاح الا « الشخصية » تفعل فى الارواح مالا تفعل القوة فى الاجسام .

على مقربة منك ايطاليا فانظر اليها . تجد زعامة موسولينى وقد قامت على القوة وحدها لا تعرف غيرها للسلطة سبيلا ، وعلى النفى والتغريب والسجون والهدم والتحطيم والتدجيل لا تعرف لسواها الى حيازة الزعامة طريقاً . ثم انظر فى غربى البحر الابيض المتوسط تجد اسبانيا وقد قام على رأسها دى ريفيرا زعيماً خرج من جوف الحراب والمدافع ليقبض بها على خناق السلطة . ثم انظر الى مصر تجد ابن القرية الوادعة فى أحلامها وآمالها يثب من قنة الى قنة ، ومن ذروة الى ذروة ، حتى اذا ما اختمرت عجينة الزمان تمخضت عنه وهو فى الزعامة زعيم بان يستلب الارواح بقوة عارضته ، لا بقوة ساعده ، ويختلب النفوس بقوة اخلاقه ، لا بقوة سلاحه . وفى أى شيء يكون الخلود ، أو تكون العظمة ، أو تكون العصامية بازكى معانيها وأعطر أريجها ، ان لم تكن فى هذا الفتى القروى ، يحملها بين جوانحه لتزكو على قدر مقدور ، فاذا بها سعد الخالد العظيم .

قصص التاريخ العثمانى

الامير جم وقصته

قصة تثير الشجون والاحزان وتملأ القلوب الرحيمة شفقة وحناناً . وجدت فيها موعظة وعبرة فأحببت ألا يحرم منها قراء العربية لما لحوادثها من الاتصال الوثيق بالتاريخ المصرى ولما حوته من الحقائق الهامة عن سياسة أوروبا نحو الشرق عامة والاسلام خاصة. والحق اننا الآن فى أشد الاحتياج الى مثل هذه الحقائق لتكون نبراساً نهتدى به فى علاقاتنا مع أمم تلك القارة العظيمة .

لم يوجد فى مؤرخينا من عني بتحليل هـذه القصة تحليلا اجتماعيا وأوضح الأثر الذى تركته فى تاريخ مصر . كما انه ليس فيهم من رواها رواية تفصيل . ولذلك فان كثيراً من قراء العربية لايعلمون من هو الامير « جم » فى الواقع ، وما علاقة مصر به ؟ ومتى بدأت هذه العلاقة ومتى انتهت ؟ وما شأن أورربا معه ؟ وسأحاول الاجابة على هذه الاسئلة بقدر ما يمكن من الاختصار .

(١) جم أو كما يسميه الاوروبيون « زيزم » أمير شرقى بائس وشاب سيىء الطالع عبست له الاقدار حيث كان يأمل ابتسامها ، وتنكر له الزمان حيث كان يرجو صفاءه . هو ثانى أنجال السلطان محمد الفاتح وكان قد جمع بين الذكاء وقوة البنية ، وجمال الخلقة ، ودماثة الاخلاق ، والى الشجاعة ، رقة الاحساس . وكان فوق هذا شاعراً مبدعا فى شعره . عينه والده والياً على قسطمونى وله من العمر عشر سنين وكان فى هذه المدينة طائفة صالحة من الشعراء ، فاختلط بهم الامير وتلقى عنهم الشعر وقارضهم اياه حتى نبغ فيه نبوغاً تفوق به على أساتذته . وترجم من الفارسية قصة شعرية اسمها « خورشيد وجمشيد » أهداها لوالده ، فأعجب بها كثيراً . وكانت هذه القصيدة أولى آثاره الشعرية . ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره عينه والده والياً على بلاد كرمان وهى بلاد واقعة فى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى والآن فى جنوب ولاية قونيه وشرق ولاية ادنه . وكانت هذه البلاد امارة من امارات السلجوقيين التى استولى عليها سلاطين آل عثمان ولكنها

واشتغل من ثم بالمحاماة زماناً فكان فيها كما كان فى غيرها علماً يشار اليه بالبنان وزعيما يقتدى به غيره من أهل حرفته . ثم اختير لمنصب القضاء فى محكمة الاستئناف فترك وراءه أحكاماً عادلة لاتزال الى اليوم مرجعاً من المراجع التى يستشهد بها رجال القضاء فيما يماثلها من الحالات القضائية . وهنا عمل مع صديقه المرحوم قاسم أمين على تأسيس الجامعة المصرية فكانت النواة التى بنيت عليها كل صور الثقافة الحديثة فى مصر . وبعد ان قامت الجامعة على أسس متينة من ارادة الامة جعل وزيراً للمعارف سنة ١٩٠٧ وكان عهده فى هذه الوزارة عهد تجديد صحيح قضى فيه قضاء تاماً على نفوذ دانلوب ومن التف حوله من المصريين الذين عملوا على تنفيذ سياسته التى رمى بها الى تخريج موظفين للحكومة لا رجال مثقفين على أصح المبادئ التى تقوم عليها الحضارات الحديثة . وكان من أمر البطل سعد زغلول بعد ذلك ما لا يغيب عن الاذهان .

فنحن ان ودعنا اليوم بطل مصر فى ختام الربع الاول من القرن العشرين ، فلا أقل من ان يكون توديعنا لصفحته المجيدة مشفوعاً بالامل فى ان مصر سوف تنجب فى المستقبل أبطالا يتمون العمل المجيد الذى بدأ به أبطالها منذ سنة ١٨٧٦ فيخرجون بمصر من ظلمات القرون الوسطى الى وضح الحياة الحديثة فى عصر العلم والعرفان .

اسماعيل مظهر

حكمة

قال جولد سميث

« الحياة روض ، والامل زهرة ، والانسان فى الدنيا عابر سبيل ، وغاية كل متحرك الى سكون . »

وانتصر حزب بايزيد . ولما انكشف خبر المؤامرة قتل الثوار الصدر الاعظم .

وهنا تبدأ الصحائف السوداء فى تاريخ چم بلى تبدأ مصائبه وآلامه .

وصل رسول بايزيد اليه بأقصى السرعة وأسرع هو أيضاً بالحضور كأنه كان عالما باطماع أخيه وخائفاً من أن يفتك به قبل وصوله الى الاستانة وقد كان بايزيد ضعيف الارادة جباناً ميالا للغدر والدسائس فلما وصل الاستانة أحاطت به عساكر الانكشارية تطلب العطايا والصلات ، أو بعبارة أخرى تطلب ثمن اجلاسه على العرش حتى انها لم تتركه يدخل من باب السراى حتى وزع عليها العطايا والمنح التى انقلبت فيما بعد دينا يدفعه كل سلطان يرتقى العرش وكان بايزيد أول من سن لملوك بنى عثمان هذه السنة السيئة التى أضحت وبالا وشراً على هذه الامبراطورية .

بويع لبايزيد بالسلطنة وبعد أن دفن والده باحتفال مهيب أخذ يرقب حركات چم الذى لم يعلم بموت والده وبقتل رسول الصدر اليه وبقتل الصدر نفسه بعد ذلك الا فى النهاية وفاتته الفرصة وأفلت بايزيد من يده . وها هو ذا الآن سلطانه الذى تجب عليه طاعته فماذا يعمل ؟ كان يعلم ان بايزيد يكرهه ويخشاه معاً ويعلم ان بايزيد واقف على ماكان يدبره له چم من المكائد . فماذا يكون موقفه بعد أن صارت القوة اليه والسلطان فى يده ؟ أدرك تماماً ان حزبه مات بموت الصدر الاعظم ، وان الجيش ضده وان العلماء ورجال الدين أعداءه ، ولكنه تعزى بشيء آخر بعث الامل فى نفسه . كان يعلم ان رجال قرمان الاشداء يحبونه وانهم يلبون نداءه اذا دعاهم للقتال وان بايزيد ضعيف لا يقدر على الثبات أمامه ولقد فكر كثيراً فلم يجد أمامه الا طريقتين إما الخضوع لبايزيد والاستسلام له وتركه ينعم بأبهة الحكم فى هذه الامبراطورية العظيمة ؟ وهنا ساورته الوساوس هل يبقى عليه بايزيد ويتركه حراً ينعم بولاية قرمان ، يتربص به الفرص ؟ هذا ماكان يشك فيه . وإما أن يلجأ الى السلاح ويحكم السيف بينه وبين أخيه . أسقط فى يده وتحير فى أمره ، ولكنه قر على اختيار الطريقة الثانية ، إذ هى أحفظ للكرامة وأليق بالشرف ، وكان يريد أن يباغت أخيه قبل أن يستعد له فأسرع فى جمع جيش صغير زحف به على بورسه وهى مفتاح الاستانة والعاصمة القديمة للدولة وعلم بذلك السلطان فأسرع فى ارسال قوة صغيرة تحت قيادة " إياس باشا لتوقف

لم تخضع لهم تماماً وكانت لا تنفك تزعجهم بثوراتها المتوالية التي كان يشعلها أمراؤها السابقون ، يعضدهم في ذلك ملوك الشراكسة في مصر طوراً ، وملوك الفرس طوراً آخر . فلما وليها « چم » تمكن من إخضاعها لما له من شدة البأس وقوة المراس ، وهابه أهلها وأحبوه لما كان يبديه من ضروب الفروسية والمهارة في استعمال السلاح ، حتى لقد كان يغالبهم في كل نوع من ألعاب الفروسية ، فيغلبهم فيه حتى لقبوه بالمصارع الأول

ظل يسوس شؤون هذه الولاية خمس سنين في دعة وطمأنينة . ولما لم يجد في أحوالها ما يشغل باله ركن الى اللذات وأطلق العنان لشهواته ، فأصبح قصره مهبطاً الايناس ومسرحاً للحور والولدان ، وناديا للشعراء والمغنين ، فحرك ذلك عليه حفيظة المتدينين والحاسدين ، فرموه بالخلاعة وأتهموه بالفجور . وانقسم وزراء الدولة في شأنه الى حزبين ، حزب يرى فيه الرجل الذى يملأ عرش أبيه بعد موته ويحفظ للدولة فتوحاتها ويصد عنها غارات الدول المتألبة عليها ، ويتمم ما بدأ به والده . ورئيس هذا الحزب هو الصدر الاعظم محمد نشانى باشا . أما الحزب الآخر فهو حزب المتدينين الذين يرون فيه شابا خليعاً منهمكا في اللذات ورئيسه شيخ الاسلام . وكانت ولاية العهد لأخيه الاكبر « بايزيد » تبعاً لقانون وراثة العرش . فلما مات السلطان محمد الفاتح ، أخذ الصدر الأعظم يمهد الطريق لارتقاء « چم » على العرش وحرمان أخيه فأخفى موت السلطان عن الجند حتى يدبر طريقة للتخلص من « بايزيد » وأرسل رسولا سريا الى « چم » بخطاب يعلمه بموت أبيه ، وبرغبته في اجلاسه على عرشه ، ويوصيه بعمل مايمكنه للتنكيل بأخيه «بايزيد» وفي نفس الوقت أرسل رسولا رسميا الى «بايزيد» وكان والياً على اماسيا ، ينعى اليه أباه ، ويدعوه لارتقاء العرش .

ذهب الرسولان وكان من سوء حظ « چم » أن علم سنان باشا والى كوتاهيه وكان من حزب « بايزيد » برسالة الصدر الأعظم اليه ، فقبض على الرسول وأعدمه . ومما أفسد تدبير الصدر الاعظم ، فضلا عن حادثة القبض على رسوله ، ان الجيش علم بموت السلطان ، فثار الجند ودخلوا السراى وأخرجوا منها الأمير كوركود ابن بايزيد وكان مع ابن عمه چم رهينة عند جدهما تضطر والديهما الى الاخلاص ونادوا به سلطانا مؤقتاً الى أن يحضر والده . وبذلك فشلت مؤامرة الصدر الاعظم

محمد الفاتح تعرض عليه اقتسام الملك بينه وبين أخيه على أن يكتفى السلطان بحكم البلاد التى فى أوروبا وجم بحكم البلاد التى فى آسيا . وبينما هى تحاول تحريك عاطفة المحبة الاخوية فى نفس السلطان قال لها « لاأرحام بين الملوك » فرجع الوفد خائباً ووقع ماذكرنا وهزم جيش جم وفر هو ناجياً بحياته. ولم تقتصر خسارته على انه فقد ملكا وجيشاً بل أن قوما من عساكره سلبوه متاعه وقوما آخرين أصابوه بجرح اليم . فلما وصل غداة الهزيمة إلى آفشهر كان مجرداً من ملابسه ترتجف أعضاؤه من البرد ، ولولاأن رئيس ديوانه خلع عليه معطفه لمات من شدة الزمهرير

بعد مضى أسبوع على هذه الواقعة وصل جم إلى قونيه ، وبعد أن استراح فيهــا ثلاثة أيام ، سافر إلى سوريا ومعه أمه وزوجه ومنها وفد إلى مصر التى وصلها فى ٢٨ يونيه سنة ١٤٨٢ . ولقد عطفت مصر على هذا الامير وأحسنت لقاءه. ففى حلب ، وكانت تابعة لمصر ، لم يدخر الوالى وسعاً فى سبيل تخفيف مصابه وكذلك فى دمشق استقبل استقبالا عظيما وانزل فى قصر (الابلق) حيث أقام سبعة أسابيع مع حاشية تتكون من ثلاثمائة شخص وكذلك فى القدس وغزة كان محلا للحفاوة والاكرام .أما فى القاهرة فكان استقباله غاية فى العظمة والجلال اذ هرع لاستقباله السلطان قايتباى وكبار رجاله وعانقه معانقة حارة وسار معه فى موكب حافل إلى قصر من قصوره ، ووجه له من عبارات الترحيب والتشجيع ما هون عليه المصاب . وهنا يجب أن نلفت الانظار إلى ما احدثته هذه الزيارة فى نفس السلطان با يزيد من الحقد والضغينة على مصر فزاد بذلك توتر العلاقات السياسية وكانت قائمة بين الدولتين على طمع كل منهما فى توسيع حدودها على حساب الاخرى . وكان ذلك من أكبر أسباب الفتح العثمانى الذى ضرب استقلال مصر ضربة لا تزال تئن منها حتى اليوم .

أقام جم فى القاهرة أربعة أشهر ثم كان موسم الحج ، فذهب الى الحجاز وقضى فريضة الحج وزار قبر النبى ثم رجع الى القاهرة وهناك وجد كثيراً من رجال الدولة العثمانية الحانقين على بايزيد يزينون له الرجوع الى بلاد قرمان والسعى الى استخلاص الملك من يدى بايزيد وعاهدوه على ان يمحضوه العون والتعضيد . وكان من بينهم قاسم بك أمير قرمان . وأخذ الامير بوعودهم وترك القاهرة قاصداً الى حلب فلما وصل اليها وجد فيها كثيراً من قواد جيش بايزيد

زحفه واجتاز السلطان الى الشاطىء الاسيوى ليشرف بنفسه على إعداد الجيش

وصل الامير جم واياس باشا إلى بورسه فى وقت واحد وأراد كل من الجيشين أن يدخل المدينة فلم يمكنهما الاهالى من ذلك خوفا على مدينتهم من النهب والسلب ثم تقابل الجيشان وحصلت بينهما معركة صغيرة اسفرت عن انتصار جم وهزيمة اياس باشا وأسره . وسر جم بهذا الانتصار كما سر به أهالى بورسه ، الذين فتحوا له أبواب المدينة فدخلها ونودى به سلطانا عليها وخطب باسمه على المنابر وضربت النقود باسمه .

لقد خيل اليه انه أصبح سلطانا وها هو ينعم بعظمة الملك اذن فليس أمامه الاعقبات يسهل تذليلها . ألم ينجح فى أول حملة ؟ الم يرافقه التوفيق فيها ؟ اذن فلا بد من نجاح آخر ولابد من صعود نجمه. اليست المقدمات تبشر بذلك ؟ هذا ما كان يشغل ذهن الامير الشاب وهذا ما كان يملك عليه حواسه، فلم يدعه يفكر فى موقفه ويوازن بين قوته وقوة اعدائه حتى يعد للأمر عدته ، فخانه الحظ وغدرت به المقادير ، فما لبثت سلطنته أن تهدم قائمها واندكت جوانبها . جهز السلطان جيشاً عظيما تحت قيادة سنان باشا وزحف به على بورسه وهناك انضم اليه جيش آخر تحت قيادة ولده عبدالله الذى كان والياً على مغنيسا، فلما رأى نصوح قائد جيش الامير جم كثرة جيش السلطان انسحب إلى مضيق أزواد ، واضطر الامير إلى اخلاء بورسه آسفاً على سلطنة لم تدم إلا سبعة عشر يوم . ولم يعتمد بايزيد فى قتال جم على قوة جيشه العظيم فقط ، بل حاربه بسلاح الدسائس فاتصل بحاشيه الامير وزين لهم خيانة سيدهم بعد أن وعدهم باسمى المناصب فاستجابوا له وأخذ المدعو يعقوب ، رئيس تشريفات الامير ، يزين له الانسحاب بجيشه إلى سهل ينى شهر فخدع الامير عن ذلك ونادى بالرحيل إلى ينى شهر وهناك تقابل الجيشان وانحاز نصوح قائد جيش جم بقسم عظيم من الفرسان إلى جيش السلطان فكانت هزيمة منكرة ارتد معها جيش الامير ، وتقوضت بها صروح آماله وأفل بها نجم سعده أفولا لم يشرق بعده أبداً .

فاتنى أن أذكر أمراً له بعض الخطر فى هذه القصة ، وهو أن الامير لما علم قبل أن يغادر بورسه بقدوم السلطان بهذا الجيش العظيم أحس بضعفه وأدرك صعوبة انتصاره، فارسل وفداً للسلطان تحت رئاسة سلجوق خاتون عمة السلطان

ثم لا ينتبهون. هكذا كان شأن الأمير البائس. فمع أنه كان ميالا لأن يلجأ الى مصر أو فارس إلا أن هذه النصيحة حولت أفكاره وجعلته يقبل الالتجاء إلى الاوروباويين وفى ذلك الوقت كانت جزيرة رودس تحت حكم فرسان القديس يوحنا وهم طائفة من رجال الدين المسيحى اشتركت فى الحروب الصليبية وكان لهافيها شأن عظيم. فأوفد الى حاكم الجزيرة رسولا يعرض عليه ضيافة الامير وحمايته ومع الرسول كثير من الهدايا. فدعى الحاكم مجلس الجزيرة الى الانعقاد وتشاوروا فى الامر فقرر المجلس إجابة طلب الامير وأرسلت له عمارة بحرية تحت قيادة Don Avarez de Zuniga أقلته الى الجزيرة وهناك استقبل استقبالا عظيما فى ٢٣ يوليه سنة ١٤٨٢ وفرشت له الطرق ونثرت فيها الزهور ومشى فى ركابه جميع الفرسان ولم يبق فى الجزيرة رجل ولا امرأة الا خرج لرؤيته وكان حاكم الجزيرة ورئيس رهبانها (دوبسون) يسير بجانب الامير وأقيمت الافراح والزينات بقدومه أياماً متوالية ولكن لم يمض على حضوره زمن طويل حتى أرسل بايزيد وفداً يطلب الى الفرسان عقد معاهدة صلح دائم بين البلدين ويطلب تسليم الامير لقاء حقوق عظيمة يمنحها الى الفرسان فقبل الفرسان عقد المعاهدة ولكنهم اعتذروا عن تسليم الامير بحقوق الضيافة وتعهدوا بابعاده عن الجزيرة مقابل مزايا عظيمة حصلوا عليها ومبلغ من المال يدفعه اليهم بايزيد سنويا ومن جهة أخرى أخذوا عهداً على الامير لئن استولى على العرش ليمنحنهم كثيراً من الامتيازات والحقوق ثم أظهروا للامير ان بقاءه فى الجزيرة خطر على حياته لأن بايزيد سيرسل جواسيس تدس له السم وان الاولى به أن يذهب الى فرانسا ليكون فى مأمن فاقتنع بذلك وسافر مع حاشيته فى آخر اغسطس سنة ١٤٨٢ ولكنه شعر شعوراً خفياً بأنه لم يصبح حرا ثم بدأ هذا الشعور يزداد كلما اقترب من فرانسا ومنذ ذلك الوقت الى أن مات تلك الميتة الشنيعة فى ايطاليا مر عليه ثلاثة عشر عاماً سوداً معتقلا اعتقالا تختلف درجاته فمن أضيق حالات السجن الانفرادى الى الحرمان من التنقل من جهة الى أخرى ، تتقاذفه أيدى الفرسان تارة والفرنساويين تارة أخرى والبابا مرة ثالثة يساومون عليه فى مزاد أطماعهم السياسية ويلوحون به لبايزيد كلما بدا لهم تخويفه للحصول على شىء منه ولم يتعفف كبير الفرسان عن أن يبتز المال من والدته التى كانت ضيفة على مصر موهما إياها أنه يعيد إليها ابنها فكانت هذه

الذين انشقوا عليه ينتظرونه ، فتوجه معهم الى كليكيا وقطع على نفسه لقاسم بيك عهداً ان يجعله إذا كتب له الانتصار حاكماً مستقلا على بلاد قرمان ووعد غيره بوعود أخرى ، ثم تحرك بالجيش الذى كان قد أعدوه له قاصداً قونيه. فلما علم بايزيد برجوع جم أسرع بالحضور للقائه وكان يقود جيش بايزيد قائد من أعظم قواد زمانه وهو كدبك أحمد باشا الشهير فاتح اترنتو (من ثغور ايطاليا) وحدث بين الجيشين بضعة مواقع صغيرة انتهت بفشل جيش جم وتشتته وأصبح الامير وحيداً للمرة الثانية فاضطر الى الهرب والاعتصام بجبال قرمان (كليكيا) وهنا يبدأ القسم المحزن من قصة الامير وبدء حياة كلها آلام وشجون . أرسل له بايزيد وفدا يدعوه الى الخلود الى السكون ويؤمنه على حياته فاشترط جم أن يعطى بضع ولايات من الاناضول فلم يقبل بايزيد قائلا « ان الملك لا يقبل القسمة على أكثر من واحد » وطلب اليه ترك التنازع على الملك والاقامة فى هدوء وراحة ملقيا عليه تبعة أراقة دماء المسلمين . فلم يقبل جم تكاليف بايزيد وهنا يرد الى الخاطر سؤال : ماذا كان يرجو بعد ان جرب حظه مرتين نخانه ؟ أما كان يجب عليه الرضوخ للظروف والتسليم بالامر الواقع ؟ ربما كان هذا السؤال حقاً فى ذاته وربما كان جم قد أخطأ فى رفض الصلح ولكننا يجب ان لاننسى ان بايزيد غدار وان تقاليد سلاطين آل عثمان كانت تقضى على كل سلطان بقتل اخوته حتى ولولم يذنبوا اليه . ولما رأى بايزيد ان طلباته رفضت أمر فرسانه بمطاردة الامير فدخلوا كليكيا وأسقط فى يد الامير وخاف سؤ العقبى فاستشار قاسم بك فيما يفعل فزين له الالتجاء الى ملوك أوروبا ليعاونوه على قتال أخيه والاستيلاء على عرش والده . كانت هذه النصيحة ملعونة مشؤمة وان كانت نظرياً لها مسوغات كثيرة. لان ملوك أوروبا كانوا ناقمين على فاتح القسطنطنية وكانوا يتحينون الفرص لاسترداد ما أخذه منهم وكان التعصب الدينى على أشده فكان من مصلحة أوروبا ان يشتد النزاع بين الاخوين وان تساعد أحدهما على هلاك الآخر ؟ ولكن على من تعود الفائدة من ذلك ؟ وهل يصبح جم بعد ان تتكلل مساعدتها له بالنجاح الا أسيراً لها وعبداً لتنفيذ أوامرها ؟ ان أوروبا لا تعرف النجدة والمرؤة بل لا تعرف سياسة العواطف ولا تؤمن بها فيما بينها ، فكيف بها حيال الشرقيين ؟ ولكن الشرقيين أهل الاخلاق والعواطف كثيراً ما ينخدعون ثم

أفهمه استحالة سفره الى مصر الآن لأن ملوك أوروبا يتخابرون فى تشكيل جيش تحت قيادته لاجلاسه على العرش . وأفهمه انه يجب عليه أن يتنصر ليكون أهلا لمساعدة أوروبا فرد الامير على هـذا الامر باباء قائلا انه لا يبيع دينه بملك جميع العالم والحق ان الامير كان فى أسره مثالا للكرامة وعزة النفس ولم يؤثر عنه ما يخل بشرف الملوك حتى انه لما دخل على البابا لم يقبل احناء رأسه ولا تقبيل يده كما كان يفعل ملوك أوروبا فى ذلك الحين . ظل معتقلا فى الفاتيكان زمناً وفشلت مخابرات الدول بشأنه لما كان يبذله با يزيد من المساعى ولما كان بين الدول نفسها من الاختلافات ومات البابا اينوسان وخلفه الجانى العظيم الكسندر بورجيا. لم يقتنع هذا البابا بالمبلغ الذى كان يدفعه با يزيد سنويا أجراً لحبس جم بل اتفق مع با يزيد على قتل جم مقابل مبلغ عظيم من المال يعطى له مرة واحدة ولكن حصل فى ذلك الوقت أن شارل الثامن ملك فرانسا كان يحاصر روما فى سبتمبر سنة ١٤٩٤ ووضع فى شروط الصلح مع البابا أن يسلم اليه الامير جم فأراد البابا أن يستفيد من الجهتين فسلم الامير الى ملك فرانسا ولكنه فى نفس الوقت وكل به رجلا من رجاله يدس له سما بطىء التأثير فى الماء فما وصل الامير الى نابولى حتى كان السم قد أكمل مفعوله فمات وهو فى ريعان شبابه بعيداً عن أمه وزوجته وأولاده فى ٢٤ فبراير سنة ١٤٩٥ ضحية الغدر . ترى لو كان التجأ الى مصر ماذا كان يحصل ؟ لاشك ان عاقبته مهما ساءت كانت تكون خيراً من ذلك بكثير بل ان مصر كان يمكنها فى ذلك الوقت أن تنتصر على با يزيد وأن تقى نفسها مما أصابها بعد ذلك على يد ابنه سليم

وكانت آخر كلمة قالها وهو يلفظ النفس الأخير « اللهم ان كان أعداء الدين يريدون استخدامى فى أغراض ضارة بالمسلمين فعجل بموتى ولا تحقق غرضهم »

محمد خليل

قال أرسطوطاليس لاخوانه فى الدرس :

« نحن نحب أفلاطون ونحب الحق. فاذا اختلفا فأيهما أولى بالمحبة والاحترام »

المسكينة تبيع حليهـا لتدفع له ما يطلب. ولكي يوهمها بصدقه كان يضطر الامير إلى الامضاء على أوراق بيضاء كان يستعملها فى كتابة خطابات عن لسانه لوالدته

سـارت سفينة الامير محاذية لسواحل ايطاليـا حتى وصل الى مدينة نيس فأعجب بها الامير كثيراً ونظم قصيدة فى مدحها وكان يود الاقامة بها الا أنه كان يرجح اصطحاب جيش من الاوروباويين والاسراع به الى الروملى لقتال بايزيد فأفهموه انه يجب عليه أن يرسل رسولا الى ملك فرانسا يقدم له فرائض الصداقة ويلتمس منه المعونة فأرسل أحد أتباعه المدعو خطيب زاده الى باريس ولكن هذا الرسول قبض عليه الفرسان وحبسوه ثم نقلوا الامير من نيس بدعوى الخوف عليه من الطاعون فى فبراير سنة ١٤٨٣ وأخذوا يتنقلون به فى بلاد فرانسا فمن شامبرى الى بوى الى قلعة ساسيناج الى برج نوف وشاتوفور فأدرك الامير ان الفرسان قد خدعوه وانهم لا يريدون أن يتصل بأى ملك من ملوك أوروبا وانهم يريدون أن يبقى فى قبضتهم ليكون مورد مال يتقاضونه من بايزيد فحاول الاتصال بملك فرانسا أو بملك المجر فأرسل اليهما رسلا فعلم بذلك الفرسـان ففصلوا عنه رجاله واعتقلوه فى قلعة (ساسناج) وضيقوا عليه وحرموه من جميع رجاله وقد حاول الهرب فلم يفلح وكان صاحب هذه القلعة دوق له ابنة على غاية من الحسن تسمى (فليبينه هيلانه) فتعلق الامير بحبها وأحبته هى أيضاً وكان غرامه هذا معيناً له على تحمل آلام الاسر والوحدة وخيبة الرجاء ولو أن هذا الحب لم يحل بين نفسه وآلام وجدانية شديدة كانت سبباً فى تبدل عظيم فى أخلاقه وعواطفه فبعد أن كان يلتهب شوقا الى المجد ونفسه ثائرة على أخيه وقلبه وثاب الى الملك أصبح يتمنى حياة هادئة متواضعة وأن يكون حرا طليقاً حتى انه أرسل الى بايزيد يستعطفه وأصبح رقيق القلب مهذب الاخلاق وهكذا يفعل الحب فى نفوس الرجال مالا تفعله المصائب

أرسل بايزيد رسولا الى ملك فرانسا يطلب إليه إبعاد جم ورأى الفرسان ان الفريسة ستفلت من يدهم فسلموا الامير الى البابا (اينوسان الثامن) فى ١٣ مارس سنة ١٤٨٩ مقابل مبلغ كبير من المال فسيق الى روما وهناك قابل البابا وشكا ما لاقاه من ألم السجن والغربة ورجاه أن يرسـله الى مصر ليرى أمه وزوجته وأولاده الذين طال فراقه عنهم فرق له البـابا حتى انه بكى شفقة عليه ولـكنه

اضطرت الجمعيـة الاسبينوزية أن تعمل على ترميمه احياء لذكرى الفيلسوف الـكبير ، وأن تجعله بعد ترميمه مقراً للدراسات الفلسفية . ولم تغب بعد عن الاذهان ذكرى ذلك اليوم الذى حمل فيه الفعلة معـاولهم ومحافرهم وقد يمموا شطر المنزل الذى كان يسكن فيه اراسموس Erasmus أحد أركان النهضة فى عصر التجديد الاوروبى ، فى روتردام ، فلم يتركوا منه قائماً ولا صعيداً . ولا مرية فى أنه مما يأخـذ بمجامع النفس حزناً وأسى أن يكون مصير المنزل الذى سكنه سبينوزا ، أحد الذين أحبوا الانسانية وعملوا على خيرها ، كمصير غيره من مقاطن الفلاسفة والعظماء . ولا جدال فى أن العودة الى درس فلسفة سبينوزا فى هذا الزمان ، كانت عاملا من أكبر العوامل التى شجعت الجمعية القائمة لاحياء ذكراه على التفكير فى تخليد آثاره . وعسى أن تستطيع أن تبث شيئاً من مبادئه الاخلاقية العالية بين جماعات العصر الحديث ، فتكون قد عملت لما هو أخير ، وتكون قد خدمت ذكرى الفيلسوف العظيم بما هو أخلد وأبقى .

***


جون كالفن — ١٥٠٩ — ١٥٦٤

لم يظهر لاسبينوزا خـلال سنى حياته سوى كتابين . الاول ترجمة الجزأين الاولين من كتاب ديكارت « مبـادىء الفلسفة » ملحقاً بتـذييل فى « الآراء الميتافيزيقية » والثانى كتابه الذى اسماه (مقالة فى اللاهوت السياسى) Tractatus Theologico-Politicus ولقد ظهر ثانيهما سنة ١٦٧٠ ، ثم منع عن نشره سـنة ١٦٧٤ بتأثير تعصب الكالفينيين ، أتباع كالفن المشهور . وكان هذا التعصب سـبباً فى أن لا يفكر سبينوزا فى نشر شيء مما كانت تجود به قريحته الوقادة . فترك الايثيكا ، وكل ما كتب رهن الطروس كما خطتها يراعته ، فودع العالم وأودعها نهب الحوادث .

بنديكت سبينوزا

صورة وذكرى

فى ٢١ فبراير الماضى كان قد مضى على وفاة الفيلسوف سبينوزا مايتان وخمسون عاماً ميلاديا . فقد توفى فى مثل هذا اليوم من سنة ١٦٧٧ . وكل من يزور مدينة « لاهاى » اليوم يرى اذا ما مرّ بشارع بافلجوين منزلا حقيراً مكوناً من طابقين ، وفى الطابق العلوى منهما ، وهو يتركب من حجرتين صغيرتين ، أمضى سبينوزا السنوات الست الاخيرة من عمره القصير . وعلى احدى نوافذ هذا الطابق علقت لوحة يشير ما كتب فيها الى هذا الحادث الكبير .



بنديكت سبينوزا — ١٦٣٢ — ١٦٧٧

فى هاتين الحجرتين أتم سبينوزا كتابه « الايثيكا » Ethica وفيه بث كل مذهبه الاخلاقى . ولا جدال فى أن هذا الكتاب يعد حتى اليوم أعظم ما كتب الكاتبون ، وأمتع ما أخرج الفلاسفة فى تاريخ الميتافيزيقا . « الغيبيات » فهو تاج على مفرق الدهور ، لم تتوج به الفلسفة وحدها ، ولم ينل شرفه الفلاسفة بمفردهم ، بل توجت به الانسانية منذ أبعد العصور التى ظهرت فيها آثارها فوق هذه الارض حتى اليوم ، لأنها أنجبت سبينوزا العظيم الذى أشع عقله الكبير بما بث فى « الايثيكا » من مبادئ ، فى عصور أخص ما اتصفت به حب السبح فى الظلمات .

لقد عملت حادثات الدهر فى ذلك البيت ، وامتدت اليه يد البلى . حتى لقد

فى سبينوزا على امتـداح أخلاقه والعمل على اذاعة فلسفته ، بل مضوا يقولون بأنه أول رائد لذلك الميدان الفسيح الذى ولجه مفسرو الاناجيل من بعده ، عاملين على بث الكثير من التعـاليم التى من أجلها دمغ سبينوزا بدامغ الكفر والالحاد خلال أيام حياته ، وخلال عدة من الاجيال بعد مماته . ولا مرية فى أن زماننا هذا ككل زمان مضى ، فيه من الجهلة والمتعصبين نفر لايزالون حتى اليوم يعلنون سخطهم على سبينوزا وفلسفته . غير أن هؤلاء لحسن الحظ أقلية لا يعبأ بها أحد من المستنيرين بنور الطريقة العقلية الحـديثة ، أولئك الذين يمجدون سبينوزا كفيلسوف ومصلح اجتماعى ، بل كرائد من رواد الفكر الانسانى ، ولو لم يقبلوا كل نظرياته على علاتها .

***

اننا ولا شبهة نكون أقرب الى الاقساط فى القول اذا مضينا فى هذا البحث قانعين بأن المذهب الاسبينوزى لايزال حتى اليوم بعيداً عما يستحق من عدالة المفكرين على أن جلة ما أقسط به مؤرخو العصور الحديثة والناظرون فى مذاهب الفلسفة لمذهب الفيلسوف الكبير ، انهم لم يجعلوا لما يرفضون من آرائه تأثيراً على ما يرون من رأى فى أخلاقه ، وتاريخ حياته . وليس هذا كل ما يطلب من مفكرى القرن العشرين . فان الواجب أن نقسط ، وأن نعدل ، وأن نعطى بن الانسانية البار حقه من عطف الانسانية . ولن نصل الى هذا الا اذا اعتقدنا بأن الطريق الأقوم أزاء هذا الامر هو أن نجعل تفسير فلسفة سبينوزا رهن على درس تاريخ حياته درس تفصيل ، والاكباب على تعرف حقيقة أخلاقه اكباب نقد وتحليل . واذا كان درس ترجمة الفلاسفة من أخير الوسائل لاستيعاب حقيقة ما يرون فى الفلسفة من رأى ، فان سبينوزا أحق الفلاسفة جميعاً بأن يتبع فى درسه هـذه الوسيلة وحدها دون غيرها . ولقد جهر كثير من الذين أكبوا على درس سبينوزا فى العصر الاخير برأيهم تلقاء هذا الامر . فقضوا بأن السبب فى أن كثيرين ممن عكفوا على تفسير فلسفة سبينوزا ، حتى من أيدها منهم ، قد عموا عن الطريق القويم وهاموا فى فلوات من الفكر أضلتهم سبيل الوصول الى حقيقة آرائه ، انما يرجع الى أنهم فصلوا بين سبينوزا وبين فلسفته فعكفوا على درس الفلسفة وتركوا الرجل . فكان مثلهم كمثل من أكب على المسببات وترك الاسباب المباشرة التى

غير أن الحظ ساق إليها نفر من أصحابه فى أمستردام هبوا الى حفظ تلك الآثار الخالدة سراعاً ولم يكد يمضي عام واحد على وفاة سبينوزا حتى ظهر أول كتبه التى نشرت بعد موته المسمى « أوبرا بوستيوما » Opera Postuma ولكن هنالك هب اللاهوتيون خفافا وثقالا يناهضون آثار الراحل العظيم بعد موته ، ولم يأت يوم ٤ فبراير سنة ١٦٧٨ حتى صبوا اللعنة على كتاب « الاوبرا بوستيوما » . زاعمين أنه كتاب « تجديف لم يظهر له من مثيل منذ خلق العالم حتى اليوم » .

لم يمض على هذا الحادث قرنان من الزمان حتى تهيأت النفوس وأعدت العقول لأن يقام لاسبينوزا أثراً تذكاريا كان من حسن الحظ أن يدشنه « رينان » أحد عظماء القرن الماضى ، ومن أكبر مؤرخى النصرانية ، مشيراً بأصبعه الى النافذة التى كان يطل منها سبينوزا على شارع بافيلجوين قائلا — « لعل الله كان أقرب الى هذه النافذة منه الى أى مكان فى الارض »

إن هذا الحادث يظهرنا على مقدار ما تطورت الفكرة فى حقيقة سبينوزا . ولا ننسى هنا أن نذكر فضل العاملين على إحياء مذهب الفيلسوف الكبير وشرح آرائه . ومن بين الباحثين كان أشد من ميترما وميير وفرودنتال وجبهاردت اكبابا على درس آثار سبينوزا وكداً فى سبيل إذاعة آرائه والعمل على بثها فى صدور الناس على مر الأجيال . وكذلك يجب أن نعى أن اتهام بايل وليبنتز وسيمون وغيرهم من الفلاسفة لاسبينوزا بأنه كان ملحداً ، مجاراة للرأى السائد ، لم يكن الا وسيلة حاولوا بها أن يصرفوا عما يقولون نظر الناقدين من أهل التعصب ، والمتعصبين من أهل الفلسفة والعلم

ولقد مجد كل من احتك باسبينوزا سمو أخلاقه ورضى صفاته . وجاراهم فى ذلك كل الناس حتى أولئك الذين مضوا غير مقتنعين بفلسفته ، والذين لم تستطع مواهبهم العقلية استيعاب أفكاره العالية . وعدت على الناس سنون عديدة اعتقدوا فيها ، مجاراة لما رمى به اللاهوتيون سبينوزا من تهم الهرطقة ، ان يدعوه « أمير الملحدين » وبنوا على ذلك انه لابد من أن يكون يوم الدينونة العظمى متربعاً على عرش جهنم ، وقد توج على أهلها ملكا . أما هذه الاراء العتيقة فقد تغيرت الآن وذابت تحت نيران الفكر الحديث الذى أوقدته المعارك الشديدة التى قامت بين أهل العلم وأهل اللاهوت . ولم يقصر أهل الدين من المحدثين كلامهم

وهو بعد فى الرابعة بعد الاربعين . على أن ما كتب فى العلم على الرغم من أنه لايستحق الالتفات ولا الدرس ، فان فيه من روح العلم الحديث ، أو كما يقولون من قوالب الفكر العلمى ، ما يرفع سبينوزا الى مصاف كبار العلماء الذين ظهروا فى القرن السابع عشر ، عصر العلم الذهبى . على أنك لا تحكم هذا الحكم وتكون به أشد تشبثاً منك اذا قرأت ما كتب بويل و نيوتن فى اللاهوت ، لتعرف الى أى حد ذهبت باسبينوزا منازعه العلمية . والى هذا الامر يعزى فى الحقيقة السبب فى أن سبينوزا اليوم أكثر صلة بفلاسفة العلماء منه بعلماء الفلاسفة . وعلى الاخص فى عصر كعصرنا هذا ، قلت فيه الثقة ، حتى بنيوتن نفسه

***

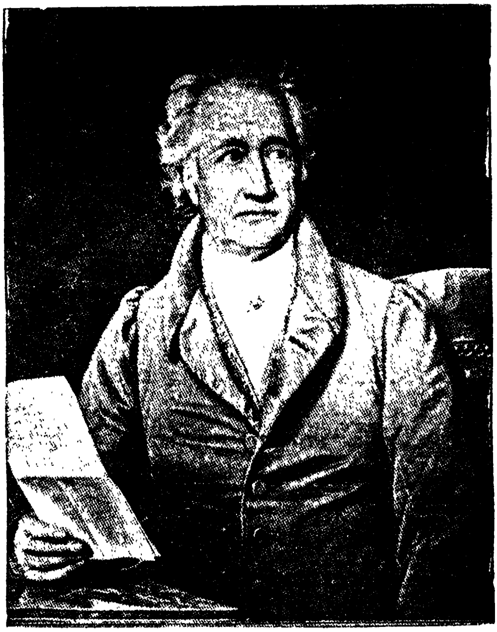


صموئيل تيلور كولردج — ١٧٧٢ — ١٨٧٦

من أكبر الاخطاء التى يقع فيها كثير من مفكرى هذا العصر اعتقادهم بأن فلسفة سبينوزا قد بادت منذ زمان بعيد، وانها أصبحت من الاشياء التاريخية التى لا يمكن أن تأخذ بضلع فى تقدم الحضارة الحديثة . بيد أن الحقيقة الواقعة هى أن فلسفة سبينوزا لا تزال كما كانت منذ ظهورها فى فى القرن السابع عشر مملوءة حياة وقوة ، فائضة بكل ما يبعث على العمل والتأمل وليس معنى هذا القول أنها حقيقة كاملة فى ذاتها أو أنها مذهب تام النواحى متلائم الاجزاء . فانها ، شأن كل الاشياء الانسانية ، يعتورها النقص وتجرى فى تضاعيفها الاخطاء . وأى مذهب من مذاهب الفلسفة ، أو مبدإ من مبادىء العلم ، لا تصدق عليه هذه الحال بعينها ؟ غير أن هذا كله غير كاف للزعم بأن فلسفة سبينوزا قد عقمت عن الانتاج وبارت فأمحلت

أوجدتها ، فعرف شيئا ولكنه لم يعرف الحقيقة والعلة الاولى أين هى ؟ وكيف وجدت ؟ ولماذا أوجدت ؟ وعلى هذا لا نغالى اذا قررنا بأن تفسير فلسفة سبينوزا من غير درس سبينوزا نفسه ، أمر أقل ما فيه انه يقودنا دائما الى مزالق الشطط فى القول والفكر .

لم يكن لاسبينوزا من حظ فى الفلاسفة . وكان حظه من أهل اللاهوت حظ الذين سبقوه من رواد الفكر الانسانى مثل كوبرينكوس وغاليليو وجيوردانو برونو وغيرهم . على أنه كان أسعد حظا مع الشعراء منه مع أهل مهنته النبيلة ففى أوائل القرن التاسع عشر أشاد الشعراء بذكر الفيلسوف الكبير وقد كاد ينساه الفلاسفة . أشاد بذكره ليسنج وجوته وكوليردج ووردسوورث وهين وغيرهم . على أن الفلاسفة وأساتذة الفلسفة لم يغيروا حتى الآن موقفهم ازاء سبينوزا . فعلى الرغم من أن اسمه قد أخذ يتردد الآن حيناً بعد حين ، فانه لم تتحرك به الا ألسنة العلماء الذين غلبت عليهم الفلسفة ، لا الفلاسفة الذين غلب عليهم حب العلم



جوته — ١٧٤٩ — ١٨٣٢

وليس فى حقائق التاريخ الحديث من شىء يجعلنا نعجب لهذا . فان القرن السابع عشر كان عصر العلم الذهبى . وقد جمع أكبر من ظهر فيه من الفلاسفة بين العلم والفلسفة ، فكانوا فلاسفة وكانوا علماء ، وهذه حقيقة تنطبق على اسبينوزا ، كما تنطبق على ديكارت وليبنتز . فانه كان عالما « بالبصريات » وبها امتهن . وكتب فى تعليل قوس قزح وفى كثير من مشكلات الموسيقى ، وليس ببعيد لو امتد به أجله ، انه كان يكتب فيها كتاباً ممتعاً ، لولا أنه عاجلته المنية

تفاريق

فى النقد والتراجم ومختلف الموضوعات التى تتناولها العصور

على طريق الهند

ألف المسيو موريس برنو كتابه « على طريق الهند » بعد أن أمضى اثنى عشر شهراً متجولا فى مصر والهند والعراق وافغانستان وفارس وسوريا . وذكر فى كتابه أنه ما حل رحاله فى بلد إلا وعمل جهده ليعرف آراء الفريقين — فريق المستبدين وفريق المستبد بهم — ولم يترك من فئة إلا وحادثها وعرف آراءها وأغراضها . فحادث الزعماء والمحرضين السياسيين وموظفى الحكومات والشعراء ورجال الدين ورجال الاعمال الحرة .

ولكن الظاهر أن مسيو برنو هو من بقايا ذلك العصر البائد الذى ظهر فيه أولئك السياسيون الذين قالوا بأن سياسة الحزم مع الامم الشرقية أسلم سبيل لقيادتها وإخضاعها . أما اذا كانت سياسة الحزم التى يدعو اليها مسيو برنو اليوم هى نفس السياسة التى أعقبت تلك النتائج التى رأيناها فى تركيا وفارس ومصر فلا نظن أنه يكون على كثير من الحق فى منزعه السياسى .

يقول بأن أساس الدعوة السياسية قائم فى الشرق على أكتاف فئة من أنصاف المتعلمين الذين زودتهم الجامعات بقشور من العلم تضخمت فى رؤوسهم حتى خيل إليهم أنهم أعلم العلماء وأحكم الحكماء . وأن أمثال هؤلاء كانوا أول من مثل على مسرح السياسة المصرية أثناء الثورة .

فاذا رجعنا الى حكمه على سياسيينا وجدناه يقول بأن الاحزاب المصرية لا برامج لها ولا مبادئ ثابتة . فان للاحزاب زعماء يقودونها حسب أهوائهم . فاذا وصل أحد الزعماء الى منصب الحكم عمل على الاحتفاظ به أطول زمان ممكن بأن يوزع على أنصاره مناصب الحكومة والرتب والنياشين وبأن يدر على ذويهم الاموال ويغدق الارزاق بلا حساب . فى حين أن السياسة المصرية قد اتبعت

والحقيقة أن بحث فلسفة سبينوزا قد بدأ فى هذا العصر فان هذه الفلسفة لم تدرس فى عصر من العصور الماضية درساً وافراً يظهرنا على كل ما فى نواحيها من الحق الثابت . فان فلسفة النقد الحديث ، على الرغم من أنها حاولت أن تهدم كل ما هو قائم من عمد المعرفة لتفسح بذلك طريقاً للايمان ، وفضلا عما ترتب على ذلك من أنها لجأت الى تسليم ذوى العقيدة من ناحية ، وإلى حيرة اللاأدريين والشكيين من ناحية أخرى ، فانها قد قبضت على زمام الفكر والعواطف طوال القرن التاسع عشر ، فأعاقت خطا الصور المذهبية فى الفلسفة وفى طليعتها مذهب سبينوزا ، عن الانبعاث فى سبيل النشوء والارتقاء .

على أن البحث فى الغيبيات ، وإن شئت فقل فى « القصدوالغاية » التى تختفى وراء الظواهر الطبيعية ، لايزال كما كان خلال العصور الغابرة ، قبلة الفكر والتأمل بل ولا نغالى إذا قلنا بأن الفلسفة قد حولت دفتها نحو هذه الابحاث تارة أخرى فى العصور الاخيرة . والذين لايجدون فى منازعهم من حب الغلو قدراً يجعلهم غير كاملى الاعتقاد ولا كاملى الشك ، لايزالون يجدون فى فلسفة سبينوزا وفى مختلف أبحاثه الكثيرة من مناحى التفكير العميق ما يرضى نزعاتهم ، ويسد فراغ تأملهم . على هذا نستطيع أن نقول بكثير من الاطمئنان ، إن فلسفة سبينوزا ستجد من أبناء الجيل الحاضر نفر يعرف لها قيمتها ويقدرها قدرها ، وسوف لا تمر سنة ١٩٣٢ ، وفيها سيختم القرن الثالث من ميلاد سبينوزا ، حتى تكون فلسفة هذا النابغة الكبير قد شاعت بين المتعلمين والفلاسفة ومحبى التأمل شيوع غيرها من ضروب الفلسفة المعروفة الآن بين جلة النابهين من أبناء هذا العصر

فيلوزوف

لحافظ ابراهيم عن لسان ماكبث ترجمة عن شكسبير :

كأنى أرى فى الليل سيفاً مجرداً — تطير بكلتا صفحتيه شرار
أراه فتدنينى اليه شراستى — فينأى وفى نفسى اليه أوار
على الفتك ياضنك كان صحت عزيمتى — وان لم يكن بينى وبينك ثار
فيا حلم قاطعنى ويا رشد لا تثب — ويا شر مالى من يديك فرار
ويا ليل أنزلنى بجوفك منزلا — يضل به سرب القطا ويحار

لايقوم على ارادة الامة بل على القوة . وان القوة لا بدلها من نظام لتصبح حكومة بالمعنى المعروف . لهذا أخذ ينظم هذه القوة تنظيما يرمى أولا الى القضاء على كل شيء الا على مبدأ الفاشزم . فأخرج قانون النقابات التعاونية وفصل بين الطبقات إذ جعل لأصحاب العمل نقابات تمثلهم ، ولكن لتقوم بجانبها نقابات تعاونية تمثل العمال . ففصل الامة الى قوتين متعارضتين ، وركز فى يده السلطة الكاملة عليهما باعتبار أنه هو القانون . والدليل على هذا أن ممثلى النقابات يعينهم موسولينى تعييناً ، ولا يخضعون فى انتخابهم لتشريع ما . ولقد ألغى نظام الانتخاب الذى كان يطبق لدى انتخاب مجالس البلديات فى المدن . كما أن الضرائب التى يدفعها الناس قد زادت يوماً بعد يوم ولا تزال آخذة فى الازدياد من غير أن تجيز المجالس النيابية هذه الزيادة وكذلك الصحف المعارضة قد زالت من ايطاليا زوالا تاما ومحيت آثارها جملة .

أما الاحزاب السياسية التى تقوم فى الجو الديمقراطى فقد ألغيت فى ايطاليا إلغاءاً تاما ولم يبق إلا حزب الفاشزم وحدة محصورة كل سلطاته الادارية والتشريعية بل والقضائية فى يد موسولينى وحده . وكذلك كل النوادى السياسية والعلمية والادبية والفنية . فانها قد خضعت لرقابة الفاشزم وحكمهم الجائر

وللفاشزم فوق ذلك أسلوب طريف فى إخضاع الناس لا يذكرنا بشيء الا باستبداد محاكم التفتيش فى القرون الوسطى . لأنه أسلوب من الحكم ينفذ تنفيذاً تحكميا غير خاضع لنظام ولا لقانون . فان غير المرغوب فيهم من الايطاليين يخضعون لثلاث درجات من العسف . الاولى : الانذار . والثانية المراقبة : والثالثة الاسر . فان أى شخص يرى الفاشزم أنه غير مرغوب فيه يرسلون إليه بانذار بأنه فعل كذا وأنه لا يجب أن يأتى ذاك الفعل أو ما يشابهه ، أو أنه قال كذا وانه لا يجب أن يتفوه به أو بما يماثله مرة أخرى . فاذا وصله الانذار ألزم بأن يوقع عليه فكأنه بذلك قد كتب ورقة اتهامه بيده ، إن حقا أو زوراً . فاذا عاد روقب . أما اثبات العودة فذلك أمر راجع الى ارادة الفاشزم وحدهم . وهناك يلزم بأن لا يخرج عن دائرة معروفة مدى نصف قطرها كذا من الاميال ليحصل رزقه وفى الساعة الثامنة مساء يلزم أن يكون داخل منزله وأن يسلم مفتاح المنزل لرجل من رجال البوليس منوط بهذا الامر . فاذا لم يرتدع أسر فى احد الاماكن

طريقاً عكسيا رجعياً . وعنده أن الدليل على ذلك جلي واضح فى احتكار كل حزب من الاحزاب للوطنية والتضحية فى سبيل القضية العامة . وهذا الاحتكار اللفظى قد شغل أول مكانة فى قلوب الزعماء السياسيين . أما الاستقلال التام فاتخذ وسيلة لاحتكار الوطنية والعمل على القبض على زمام الحكم .

الفاشزم فى خمسة أعوام

هل أخفق النظام الديمقراطى فى حكم الشعوب ؟ وهل تحققت نظريات الذين قاموا يناوؤن الديمقراطية منذ أول عصورها حتى اليوم ؟ اذا كان هذا صحيح فلا شك فى أن تحول الفكرات والمبادئ الانسانية بطىء جهد البطء . غير أن الظاهر أن تطور الافكار تابع لأشياء كثيرة أهمها تطور الاحوال المعاشية وزيادة عدد السكان وانقلاب الاشياء الكمالية الى حاجيات على مدى الزمان وبحكم تقدم العلم والاستكشاف

فى العالم اللاتيني اليوم ثورة ضد النظام الديمقراطى . فاذا استثنينا فرنسا وحدها ، استطعنا أن نقول بأن العالم اللاتيني واقع اليوم تحت آصار القوة الاستبدادية وحدها ، اذا اعتبرنا ايطاليا واسبانيا ممثلتان للفكرة الجديدة فى الحكم على أنك لا تستطيع أن تخرج من مجمل ما حدث فى نواحى العالم حتى اليوم بفكرة صحيحة تؤيد احدى النظريتين تأييداً تاما . فان ايطاليا قبل قيام حكم الفاشزم كانت على أبواب فوضى بلشفية . واسبانيا كانت قد أخذت تتردى فى مهاوى الافلاس سياسيا واقتصاديا . ولا مراء فى أن ايطاليا واسبانيا اليوم غيرهما منذ بضع سنوات مضين . على أنهما ليستا فى حالة يحسدان عليها ، وان كانتا فى نظام هو على كل اعتبار أمثل من النظام البلشفى .

لقد قضى مبدأ الفاشزم على كثير من مثاليات الديمقراطية . فان نظام النيابة قد استبدل فى الواقع بنظام النقابات التعاونية على صورة جديدة لم تكن معروفة من قبل . والحريه الفردية قد اندمجت فى الحرية العامة وتركزت قوة الحكم فى فرد واحد مطلق السلطة فى السياسة الخاصة والعامة . ومن أجل أن يحتفظ حزب الفاشزم بقوته عمل على تركيز السلطة فى بورة واحدة تشع بكل السلطات على اختلاف مناحيها . لهذا أعلن موسولينى فى خطبته الاخيرة أن حكم الفاشزم

بوردو لايحرم الطلاق تحريماً قاطعاً ولـكنه من الذين يقولون بأن الطلاق لايجب أن يقع أو يسمح به الا بشروط خاصة وتحت ظروف معينة . وهو يعتقد فوق ذلك ان اباحة الطلاق مضرة كل الضرر بمستقبل الامة لأنه يحل روابط العائلات وينزل بمستوى التربية خصوصاً بين الاطفال الذين يربون فى حضن أحد الابوين دون الآخر

كذلك يقول بأن اباحة الطلاق قد زادت الى نسبة حوادث القتل الانتقامية . فان الزوجات ذوات الغيرة على أزواجهن غالباً يرتكبن أبشع الجرائم اذا ما مست هذه العاطفة فكرة الخيانة من ناحية الزوج . وكذلك الازواج من ناحيتهم اذا جرحت فيهم حاسة الشرف أو العرض أو قصور الكراهية الناشئة عن علاقات غير شرعية من جانب زوجاتهم . فان الاباحة فى الطلاق لايعادلها الا الاباحة فى الزواج ، بل ان الاباحة فى كل شىء عبارة عن خروج عن قانون موضوع . وما دام هذا معناها فان إلغاء القيود الادبية والدينية فى مجتمع مالا ينتج الا فوضى فى الغرائز أجدر بها أن تقوض دعائم المدنية . ومن الخطأ أن يدعى بعض الكتاب ان أواصر المدنية وحدها كافية لكبح جماح الغرائز . فان الواقع يؤيد على الضد من ذلك أن المدنية تهيج الشهوات السفلية ما دامت الحاجيات المادية متوافرة على أدائها .

ثم يتكلم فى نظام التحليف فى القضاء فيقول ان هذا النظام ما دام مرتكزاً على طريقة التحكيم الصرف فان أقل تأثير نفسانى كاف لأن يجعل أكبر مجرم من المجرمين يفلت من يد الشرائع اذا ما أمكن لمحام ماهر أن يستغوى المحلفين أو يوحى اليهم من طريق الخطابة والجدل والسفسطة بموحيات تكون فى جانب الدفاع لا فى جانب القانون

والظاهر مما أدلى به مسيو بوردو أن هذا النظام سوف يظهر عما قريب مناف لاقامة العدل على ما يجب العدل أن يكون . ولقاض عادل لايتأثر الا بالحق ولا يقدس الا القانون والشريعة خير من ألف محلف يؤخذون بروح الجماعات وتأثرها بالمشاعر تحت تأثير كلمات جوفاء، فيلغون العدل ويقبرون القانون.

المنفردة أو فى جزيرة مقفرة لعدد غير محدود من السنين . وفى ايطاليا اليوم ١٥٤١ بيدهم انذارات الفاشزم و٩٥٩ تحت المراقبة و٦٩٨ فى الاسر .

على انى أعتقد أن حكومة تقوم على مثل هذه النظم لا يمكن أن توافق الطبيعة البشرية زماناً طويلا . أما قيامها اليوم فراجع الى حالة عقلية خاصة لا تلبث أن تزول . وما أظن أن موسولينى وشيعته ، وهم المأخوذن بخيال الامبراطورية الرومانية القديمة ، الا قوم خياليون سوف يلقون بايطاليا فى أحضان حروب مفنية وثورات طاحنة . بل انهم فوق ذلك من أكبر من قام فوق هذه الارض من الدجاجلة الذين فتنوا الامم بترهاتهم منذ أبعد الازمان . ان السياسة فى العصور الحديثة يجب أن تقوم على العلم العملى . على بحث عقلية الشعوب و نفسياتها وهى أكثر حاجة الى علم البيولوجيا منها الى أى علم آخر . وأكبر الظن أن سياسيى الامم سوف ينتقون عما قريب من العلماء ، لا من الانتهازيين أمثال موسولينى ودى ريفيرا وغيرهما . يجب أن تخضع السياسة للعلم . فان القبض على خناق الشعوب قبض على خناق الطبيعة ، ما يحدث من شىء اللهم الا الكوارث الفجائية وتوارث الهدم والتحطيم

نظام التحليف فى القضاء

بدأت الثقة تزول شيئاً فشيئاً بنظام التحليف فى القضاء . فان هذا النظام الذى جاهدت فى سبيله انجلترا زماناً طويلا وأراقت فرنسا من أجله الدماء أنهاراً أصبح اليوم موضع نقد الكثيرين من الكتاب لا فى فرنسا وحدها بل فى جميع أنحاء العالم المتمدين .

كتب العلامة هنرى بوردو فصلا مطولا فى الاضرار التى نشأت عن هذا النظام فقال بأنه منذ نفذ قانون سنة ١٨٨٤ بدأت الثقة تقل بالعدل الفرنسوى فان هذا القانون قد جعل الطلاق ممكناً فى فرنسا فأحل كثيراً من الروابط التى تقوم عليها فكرة الآداب الزوجية . بل حدث أن كثيراً من قضايا الطلاق التى لا يمكن أن يصدر فيها قاض حكمه بحل الروابط الزوجية فى أى مكان آخر قد وجدت فى فرنسا مجالا واسعاً حتى لقد وفد الى فرنسا عدد عديد من الامريكيين الذين انتهزوا فرصة هذا القانون ليتمتعوا بنعمة الطلاق فى ظلاله . على أن مسيو

(١١) اذا شبهنا الانســان بدائرة وجب أن يكون كل انسان فى مركرها ولـكنه غير ملزم بأن يكون مركزاً ومحيطا فى آن واحد
الاسقف انج

(١٢) يمتاز الشعب الانجليزى بقدرته على نقد نفسه بنفسه ، وبذلك يسمع منه الناس ما لا يسمعون من غيره
دكتور نيقولاوس بطلر

(١٣) ان المدنية وكل ما ينطوى تحتها من المعانى انما يتوقف بقاؤه على الاعتراف بحق الملـكية . وهـذه الحقيقة تظل ثابتة مهما قلبتها على أوجه النقد والتحليل
لورد بركنهد

(١٤) ان الفوائد التى تجنى من وراء الاديان لا تعدل الاضرار التى تنشأ عنها
برترند روسل

نقص المواليد فى انجلترا

جاء فى مجلة الاحصاء الانجليزية أن نسبة المواليد فى انجلترا قد أخذ فى التناقص عاماً بعد عام . فان احصاء سنة ١٩٢٦ يظهر أن نسبة المواليد كانت ١٧٫٨ لكل ألف نسمة من السكان . فاذا استثنيت سنة ١٩١٨ وهى آخر سنة من سني الحرب حيث بلغت نسبة المواليد ١٧٫٧ لكل ألف نسمة كانت سنة ١٩٢٦ من أكثر السنين جدباً فى المواليد . واذا قوبلت نسبة المواليد فى الاشهر التى فرطت من سنة ١٩٢٧ بمثلها فى سنة ١٩٢٦ دلت المقارنة على أن نسبة المواليد فى هذا العام ستكون أقل منها فى العام الماضى . وعلى هذا أصبحت نسبة المواليد فى انجلترا وايلس أقل منها فى فرنسا . واذا استثنيت بلاد أسوج كانت انجلترا أقل البلاد مواليداً بين ممالك أوروبا الرئيسية . غير أن المدهش مع هذا أن نسبة الوفيات بين البالغين والاطفال أقل فى انجلترا منها فى أى مملكة أخرى من ممالك أوروبا . فكأن انجلترا هى أقل الممالك مواليداً وأقلها وفيات . وعلى هـذا يستنتج أن نقص النسبة فى المواليد غير راجع الى فساد النظام الصحى ولا الى قلة الغذاء . وهذا ما يدهش كثير من الباحثين فى نظام الجماعات من ناحية الاحصاء

البرنس دولجوروكوف

البرنس بول ديمتريفتش دولجوروكوف الذي أعدمه البلاشفة فى موسكو منذ

من أقوال المعاصرين

(١) ان نصف مايجبى من ضرائبنا ينفق فى ترضية الناس ليخلدوا للسكينة ، أما النصف الآخر فينفق فى تحطيم الجماعات وقت الحرب أوغسطين بيريل

(٢) ان كل الاشياء التى تبلغ منتهى الجودة أو منتهى الرداءة ، لاتنتج الا من طريق المنطق الصرف الاسقف انج

(٣) اذا أردت أن تضع الحكومة فى موضع القوة التى تنظم أعمال الافراد وتحتكم فى حركاتهم وسكناتهم ، فان ذلك لايكون له معنى سوى انك تريد أن تتبع ذلك السبيل الذى أدى الى الاستبداد الفردى منذ أول عصور روما الى عصر السوفيت الحديث فيليب كير

(٤) لم يمر عصر من العصور بلغت فيه ممالك الارض من الدين مبلغها فى هذا العصر جورج بيش

(٥) اذا استطعنا أن نبطل الحروب وأن نضع قواعد يقوم عليها السلام الانتاجى وأن نستخدم تقدم العلوم والاختراعات وننتفع بها ، فانى أعتقد انه يكون فى مستطاعنا أن نضاعف أجور العمال خلال الثلاثين القادمة من السنين ر . سيمون

(٦) لقدحبتنى الدنيا برضاها اذ تقبلت منى الدعوة الى الاخاء العام . وانى لأعتقد بأني أكون فاقد القيمة معدوم النفع اذا قام فى نفسى يوم شعور بالقومية أو التفوق النوعى أو الاحساس بالعزة الآثمة أو الكبرياء أو المجد العالمى طاغور

(٧) لقد أمضيت زماناً ما فى روسيا . وانى لأعترف بأنى لو كنت قد ولدت روسياً تحت النظام السوفيتى لانقلبت ثائراً عليه خارجاً على قواعده هربرت سميث

(٨) انه لأقل الرجال نفعاً ذلك الذى لايعطى للمستقبل بقدر ما أخذ من الماضى الاستاذ بولارد

(٩) ان ايطاليا لا تريد بعد اليوم أن تظل دار عاديات تاريخية تلتقى فيها أنظار العالم لتقرأ الماضى وحده سنيور توراتي

(١٠) اذا كان من المحتوم أن تلقى الدولة الى الكلاب ، فانى أعرف عدداً من الكلاب الجيدة يصح أن تلقى اليهم أسقف بارو

ثم ذهب بعد ذلك مع فرانجل الى شبه جزيرة القرم ، و بعدان هزم فرانجل رحل الى البلقان حيث عاش عيش الفقر المدقع والفاقه الماسة . وما أظلته سنة ١٩٢٥ حتى كان اليأس قد ملأ قلبه بعد أن تسول ومديده للعطاء وضرب فى أقطار الارض على قدميه زماناً حتى صدق فيه قول الشاعر :

أخو سفر جواب أرض تقاذفت   به فلوات فهو أشعث أغبر

ولم يجد أمامه من مهرب مما كان فيه الا أن يعبر تخوم روسيا ليعمل فى أرض قومه ليقوت نفسه بكد ساعده . غير أنه لم يكد يهبط أرض روسيا حتى قبض عليه عسس السوفيت وأودع السجن . ولكنه لم يبق هنالك طويلا لان السوفيت لم يكتشفوا من هو فافرجوا عنه واطلقوا سراحه . فعبر التخوم الى الخارج مرة أخرى ، حتى كانت سنة ١٩٢٦ ، ففكر فى أن يعود الى أرض أجداده مرة ثانية . ولكنه كان سقيم الجسم والعقل فقير الحال سيء المآل ، وظل يضرب فى الآفاق عدة أسابيع قبل أن تكشف عسس السوفيت أمره ويقبضوا عليه فى بلدة خاركوف ، ولقد أعلن لدى القبض عليه أنه سوف يحاكم ، ولكنه أعدم رمياً بالرصاص من غير محاكمة خلال أزمة عقلية من تلك الازمات التى تصيب البلاشفة فى روسيا حيناً بعد حين ، فسقط شهيد الواجب والدفاع عما اعتقد أنه حق ثابت .

لم يتزوج دولجوروكوف مدى حياته . وكان له أخ توأم يدعى البرنس بطرس دولجوروكوف وهو يشابهه كل الشبه ولكن عاش خارج روسيا ولم يطأ بعد أن غادرها ثراها . ومما يروى بهذا الصدد أن البرنس دولجوروكوف عندما كان يضرب فى أرض روسيا شمالا وجنوباً وهو فى أشد ساعات الخطر من أن يكشف أمره البلاشفة قابله رجل فى احدى محطات السكة الحديدية وقال له « سعد يومك ياصاحب السمو » فاجابه « من أنت » فقال له : « ألا تعرفني يا بطرس ديمتريفيش لقد كنت مراقباً فى احدى مزارعك » . فأجابه : « لست بطرس بل بول » وحدث قبل أن يقبض عليه بقليل أن صادف فى الطريق رجلا سكراناً من العمال يسب بأعلى صوته البلاشفة وحكم السوفيت ونظاماتهم . فأوقفه دولجوروكوف ونصحه بأن يتذكر ما عليه لروسيا من واجبات . فأصغى اليه الرجل مليا ولكن فى حيرة وعجب ثم سأله « هل أنت تولوستوى العجوز قد قام مرة أخرى من بين الاموات »

عهد قريب ينتمى الى أسرة من أقدم الاسر الارستقراطية الروسية . وكان فضلا عن هذا موصوف بالشجاعة والاقدام والوطنية الحارة . ولد منذ خمسة وستين سنة مضين . ورث ثروة طائلة ثم وقف نفسه على الاشتغال بالمسائل العامة . وهو ككل أصحاب الاملاك فى روسيا لم يتوان عن أن يأخذ بضلع فى الاعمال التى كانت تقوم بها مجالس الارياف وعلى الاخص فى حكومة موسكو حيث كان يملك ضياعا واسعة . وانضم قبل ثورة ١٩٠٥ الى طائفة الاحرار فى هذه المجالس ثم أصبح عضواً ذا شأن كبير فى حزب « الكاديت » . وكان زمانا ما عضواً فى مجلس الدوما ولكنه كان يفضل دائما العمل فى حكومة موسكو مسقط رأسه . ولم يكن خطيباً مفوهاً ، بل ان كل نبوغه انحصر فى قوة عارضته وقدرته على الحكم والتمييز بين غث الاشياء وثمينها ونبالة مقاصده التى عمل كل ما استطاع فى سبيل تحقيقها .

اتجهت ميوله زماناً ما الى أن يكون من ناشدى السلام العاملين على تحقيقه بين الامم . ولكن لم يكد ينادى منادى الحرب العظمى حتى نسى هذه الميول برمتها وانقلب وطنياً حاراً وبدأ يدافع عن فكرة الحرب الى النهاية . بل اشترك فى الحرب اشتراكا فعليا بان رأس أحد بعثات الصليب الاحمر التى عملت فى ميدان غاليسيا

وبعد أن انتقل الحكم الى البلاشفة قبض على دولجوروكوف فى بتروغراد وحبس زماناً ما فى قلعة بطرس وبولص . وبعد أخلى سبيله ذهب الى جنوب روسيا حيث أخذ بضلع فى حرب البيض ضد البلاشفة تحت قيادة كورنيلوف أولا ثم دنكين ثانياً .

كانت ثروته قد زالت وأصبح أفقر الفقراء ولكن عزة نفسه لم يثنها فقر ولا أثر فيها جوع وعرى . فانه ذهب مرة الى حائك فى مدينة « ايكايترينودار » وأمره بعظمة أن يحيك له كساء من الخيش . وما كاد يرتدى هذا الكساء حتى أصبحت حياته حياة آفاقى يجوب الوهاد والقفار يبشر للناس بفكرة الوطنية والقومية . فكان يكلم الناس فى الشوارع ومنعطفات الطرق ، أو يخطب الضباط والجند فى محطات السكك الحديدية ، يحثهم على أن يحاربوا الى النهاية فى سبيل انقاذ روسيا من الفوضى والدمار . ومما يدلك على شدة اقتناعه بمبادئه التى كان يدافع عنها واخلاصه لفكرته انه بعد أن هزم دنكين ومزق البلاشفه جيشه شر ممزق وهرع الناس الى الفرار من وجههم عمد دولجوروكوف الى جموع من الناس ينتظرون القطر الحديدية فى محطة نوفوردسك وأخذ يخطبهم حاثاً على مقاومة الاعداء الى آخر رمق من الحياة .

فهرست